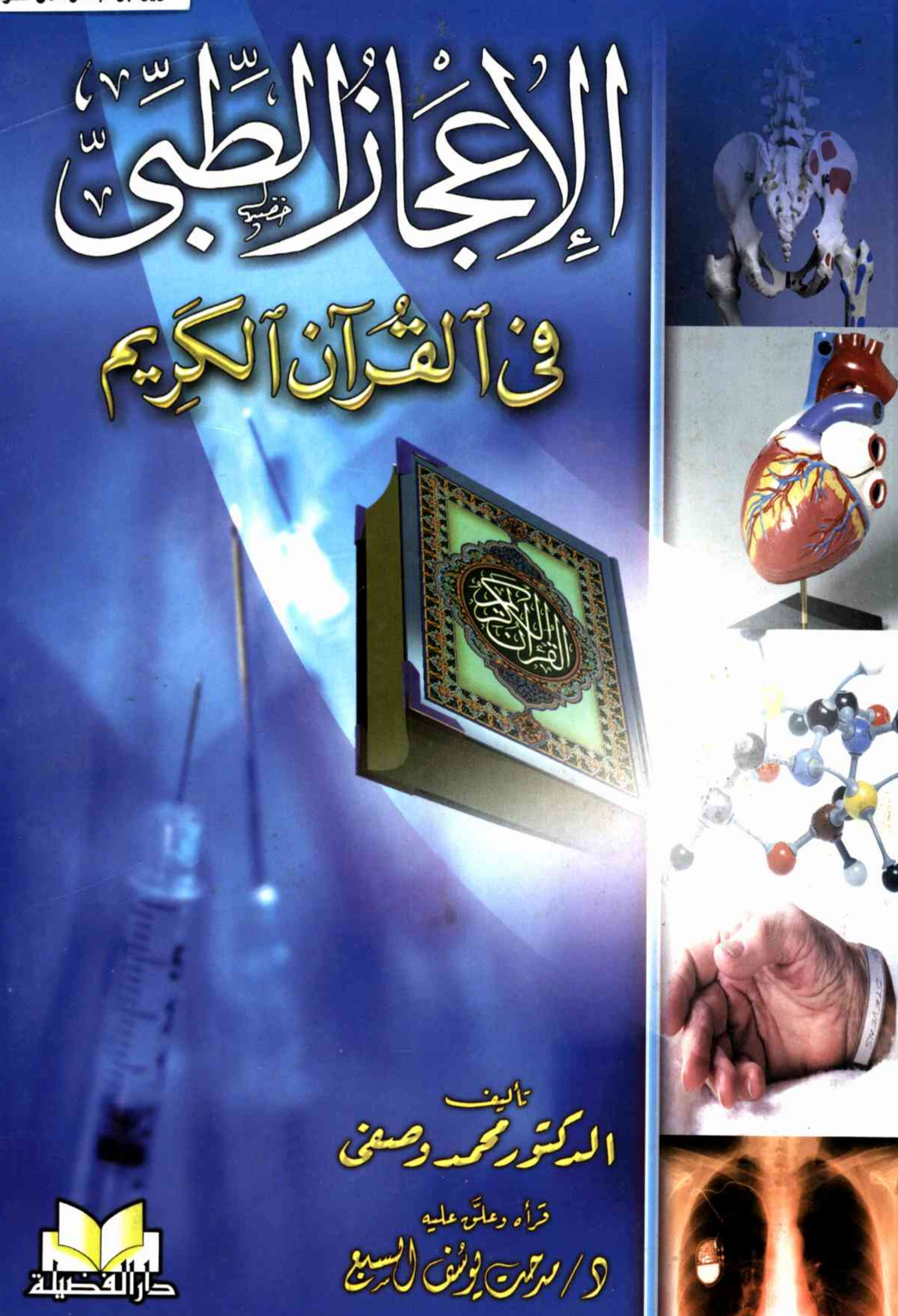

الإعجاز الطبي
في القرآن الكريم
تأليف
الدكتور محمد وصفي
قرأه وعلّق عليه
د/ مدحت يوسف السبع
دار الفضيلة

الإعجاز الطبي

في القرآن الكريم

تأليف

الدكتور محمد وصفي

قرأه وعلق عليه

د/ مدحت يوسف السبع

دار الفضيلة

دار الفضيلة
للنشر والتوزيع والتصدير

الإدارة : القاهرة - ٢٣ شارع محمد يوسف القاضي - كلية البنات
مصر الجديدة ت وفاكس ٤١٨٩٦٦٥ رقم بريدي ١١٣٤١ هليوبوليس
المكتبة : ٧ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة ت ٣٩٠٩٢٣١
الإمارات : دبي - ديرة . ص ب ١٥٧٦٥ ت ٢٦٩٤٩٦٨ فاكس ٢٦٢١٢٧٦



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله وكفى ، وصلاة وسلامًا على عباده الذين اصطفى ، وبعدُ فإن القرآن الكريم معجزة النبى ﷺ الخالدة ، حمال ذو وجوه ، يطل على كل قوم ، وفى كل عصر ، بوجه يلفت أنظارهم إليه ، ويدير حركة تفكيرهم تجاهه ، فيستجمعون قواهم وعتادهم لإدراك شأوه وفهم مراده . ولما كان العرب أهل فصاحة ولَسْنٍ أطل عليهم بهذا الوجه الذى به عُرفوا ، فما استطاعوا أن يدركوه ، بله يباروه .

وفى هذا العصر ، عصر العلم والتقدم التقنىّ يطل علينا القرآن الكريم بوجه آخر جديد ، لم يطل به على جزيرة العرب ولا غيرها من قبل ، وهو وجه الإعجاز الطبى .

وكما أيَّد الله من كشف وجه الإعجاز البلاغى فى القرآن الكريم من مثل عبد القاهر الجرجانى ، وابن سنان الخفاجى وغيرهما ، أيَّد هذا العصر من يظهر وجه الإعجاز الطبى فى القرآن الكريم ، ومن هؤلاء بل من أوائل هؤلاء مؤلف هذا الكتاب العلَّامة الدكتور محمد وصفى - رحمه الله - .

المؤلف العلَّامة الدكتور محمد وصفى :

هو من أوائل من حاولوا كشف الإعجاز العلمى فى الإسلام ، لا فى القرآن الكريم فحسب ، حيث نشر عدة مؤلفات فى الاتجاه منها (الموسوعة الشاملة فى علاقة الرجل بالمرأة ، والإعجاز الطبى فى القرآن الكريم) .

وقد كان يحس جيدًا بعالمية هذا الدين ، فأنشأ جمعية (أنصار الحج) ليعقد مؤتمرات تناقش قضايا المسلمين المهمة فى موسم الحج ، وحاول إنشاء (رابطة أدباء العروبة) لينهض بالأدب العربى ضد هجمات التغريب ، وكان عضوًا نشطًا فى جمعية (الرابطة الإسلامية) التى كانت تضم النابهين العاملين من العلماء .

قال عنه الأستاذ محمد عبد الله السمان : الكاتب الإسلامى المعروف « الدكتور محمد وصفى يعتبر الأول من نوعه الذى يعرض لهذه الفروق من منظور إسلامى فى دراسات علمية وموضوعية شاملة » (الموسوعة الشاملة فى علاقة الرجل بالمرأة) .

وقالت عنه جريدة الأخبار : « كان يحس من البداية بضرورة التغيير السياسى

والاجتماعى ، ولكن من خلال عقيدتنا » (جريدة الأخبار 4 / 4 / 1968 م) .

هذا الكتاب :

أصل هذا الكتاب محاضرات ومقالات نشر بعضها فى مصر وخارجها منذ جمادى الأولى 1353هـ فى مجلة (الإسلام) و (هدى الإسلام) وجريدة (البلاغ) وغيرها .

ثم نشرت هذه المقالات فى كتاب سماه (الإسلام والطب) عام (1359 هـ / 1940م) .

وقد ذاع صيته ونفد وأعيد طبعه بعد إضافة أربعة مباحث جديدة ، وتحت عنوان (القرآن والطب) .

واليوم تعيد دار الفضيلة طبعه بعد أن أحسنت إليه صنعًا بتحديث مادته العلمية وإضافة الجديد فى الطب وفى ثوب جديد بعنوان : (الإعجاز الطبى فى القرآن الكريم) .

منهج هذا الكتاب :

أراد المؤلف أن يظهر الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم ، فانتقى عدة قضايا لها المراتب الأولى فى عداد المهمات ، من مثل إظهار الإعجاز فى المحافظة على الصحة عامة ، وبين الوسائل التى لجأ إليها القرآن لذلك ، ثم أظهر إعجاز القرآن الطبى فى تحريم ما يضر بالإنسان نفسيًا وماديًا مثل تحريم الوطء أثناء الحيض ، وتحريم الزنا واللواط ، وأطال الوقفة مع الخمر لأنها أم الخبائث ، فمنها تبدأ وعليها تُجرِّئ ، ثم استطرد إلى مناقشة الطلاق وتعدد الزوجات فى الإسلام ، ثم عاد مرة أخرى إلى التماس الإعجاز الطبى القرآنى فى تحريم أكل الميتة والدم ولحم الخنزير ، ثم أنهى عمله بإظهار حكمة القرآن فى تحريم الإسراف فى المباحات .

عملى فى هذا الكتاب :

اقتصر عملى فى هذا الكتاب على ما يلى :

1 - القراءة والتعليق . 2 - تشكيل الألفاظ التى بها لبس . 3 - ذكر معانى ما غمض من ألفاظ وتعبيرات . 4 - تخريج ما ورد من آيات وأحاديث وأقوال مأثورة . 5 - إضافة مادة علمية حديثة نظرًا لبُعد الفترة الزمنية بين الإصدار الأول 1380هـ / 1960م وهذا الإصدار . والله الموفق .

د / مدحت يوسف السبع

مُقَدِمَةُ المؤلف

لَسْنَا نَعْنى بهذا المؤلَّف أَنْ نُلم بكلّ ما حواه القرآنُ الكريمُ ، مما له علاقةٌ وثيقة بأبداننا ، وأثرٌ بالغٌ فى حياتنا ، وارتباطُ كل ذلك بعلوم الطب ، ولكنّه صورةٌ مصغَّرةٌ لما فى الإسلام من تشريع طبيّ شامل ، وقواعدَ علمية ثابتة ، أتى بها الدينُ الحنيفُ لصالح البشر ، وقررها لكمال الإنسانية ورُقيِّها .

ولا زالت معجزاتُ القرآنِ الكريم يَكْشِفُها العلمُ ، ولا زالت العلومُ كلما تقدَّمت تجلو الغِشاواتِ التى تحجُبُ النورَ عن عُيون الغافلين ، وسنرى اليوم الذى يبحث فيه العالَمُ فى القرآن الكريم عن بُغيته ، ويحاولُ استخراجَ كُنوز العلوم والفُنون من بين كَلِماته ومعانيه ، قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .
[فصلت : ٥٣]

ولقد اقتصرْنا فى هذا الكتاب على أربعةَ عشرَ مبحثًا ، رأينا أنْ نُوفِّيها حَقَّها من الشرح والإيضاح ، وأرجأنا مباحثَ أُخرى لنشرها فى مؤلَّفات تالية إن شاء اللّه ، وتركنا زيادةَ التوسع فى المسائل الطبية إلى مراجعها الخاصَّة بها ، وقد سمينا أهم ما رجعنا إليه منها فى آخر الكتاب ، ولم نشأْ أنْ نَزْحَمَ الصحائف بالهوامش ، واقتصرنا على ما وجدناه - حسب رأينا - محتاجًا للإشارة فى صُلْبِ الكتاب ، ولم نَرَ الحاجةَ ماسةً إلى ذِكر آراء جميع المفسّرين فيما خالفناهم فيه ، إذ للقارئ أنْ يَرجعَ إليها إذا أراد .

ولقد بدأنا الكتابة فى موضوع « الإسلام والطب » منذ 7 جمادى الأولى عام 1353هـ (17/ 8/ 1934م) فى مجلة (الإسلام) ، ثم تابعنا بعد ذلك الكتابةَ فى هذه المجلة ، وفى مجلة (هدى الإسلام) ، وفى جريدة (البلاغ) وغيرها من المجلات والصحف المصرية والشرقية ، وألقينا عدّة محاضرات فى مختلف الجمعيات عن عَلاقة الدين الإسلامىّ بعلوم الطب ، وأَصدرْنا خلال ذلك مُؤَلَّفَنا « الإسلام والطب » عام 1359هـ (1940م) .

ولما كان ذلك الكتابُ قد نفدَ من زمن بعيد ، رأينا إعادة طبعه ، ولم نغير فيه إلَّا تغييرًا طفيفًا ، ولم نزد عليه إلَّا أربعة مباحثَ جديدة ، وسميناه « القرآن والطب »[1] لاعتقادنا أنّ هذا العنوانَ أكثرُ دلالةً على ما هدفنا إليه من بيان آيات القرآن الكريم التى لها علاقة بعلوم الطب .

ولقد كان أولَ دافع لنا على الكتابة فى هذا الموضوع فقرُ التفاسير المختلفة للقرآن الكريم فى كلّ ما له علاقة بعلوم الطب ، وعدمُ وجود مؤلَّفات فيما طرقته فى هذا الكتاب .

وما هذا المؤلَّف إلَّا تفسيرٌ لبعض آيات القرآن الكريم على ضوء ما درستُه من علوم الطب وعلوم الدِّين .

وإنّى لأرجو أنْ أكونَ قد أدَّيتُ واجبًا علىّ فى هذا الكتاب ، وأظهرتُ شيئًا من حِكَمِ الدِّين الإسلامىّ ، وبيَّنتُ دقّة هذا التشريعِ الحكيم .

والله تعالى يقول : ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ صدق الله العظيم [المائدة : 15 ، 16] .

الدكتور محمد وصفى

★ ★ ★

---

(1) غُيّر هذا العنوان فى هذه الطبعة إلى العنوان المطبوع على الغلاف ، وهو : الإعجاز الطبى فى القرآن الكريم .

المبحث الأول

الصِّحَّة فى الإسلام

توطئة :

الدِّينُ الإسلاميُّ هو الدينُ الوحيدُ الذى يَهتم بسلامة الأجسام اهتمامَه بسلامة النفوس والأرواح ، وما كان الدِّين الإسلامى - وقد عمل على ترقية النفس البشرية إلى ذلك المستوى السامى الذى هيأه لها ، ومهّد كُلَّ الأسباب التى تُوصل الروحَ إلى مَثَلِهَا الأعلى ، وقد علم أنّ الأجسام مقرُّها ومستودَعُها فى الحياة الدنيا - لِيَذَرَ الأبْدانَ بغير تشريع خاص ، يقيها من العلل ويحفظها من الأوصاب والأمراض والأوجاع .

ومن سَعادةِ المسلمين الحقَّةِ أنّ دينَهم لم يَدَعْ شيئًا يَمَسُّ كِيَانَهم ، ويحفظ أبدانَهم إلَّا وبيَّنَهُ بيانًا شاملًا ، وشرحَه شرحًا كاملًا ، وذلك لتبلغَ النفسُ البشرية ذلك الكمالَ المُطْلَقَ الذى أشار الله تعالى إليه فى قوله : ﴿ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [الصف : 8] .

إنّ العليلَ لا تُتاح له الفرصةُ السعيدةُ التى تُمكّنه من أداء واجبه الإنسانىّ الذى فرضه الدِّين ، والمرض يجعل المرء أقلَّ قدرةً على التخلُّص من خُبث الأهواء ، ومجاراة نَزَعَات النُّفوس ، وذلك للصلة الوثيقة بين الجسد والرُّوح ، فالعلة لها تأثيرها على الجهاز العصبىّ ، وعلى تفكير المرء وإدراكه ، وعلى إحساسه وعمله ، وتستوى فى ذلك الأمراضُ الجسمية والآفاتُ النفسيةُ والخُلُقيّةُ .

والمريض لا تُتاح له فرصةُ الجهاد فى سبيل الله ، والذودُ عن حياض الوطن والدِّين ، ولا تُمكّنه العلةُ من السعى لطلب الرزق ، والوقوف فى مضمار الحياة ، والقيام بواجبه الإنسانىّ ، كعُضو من أعضاء الهيئة الاجتماعية .

بل قد تَعوقُه العلةُ عن أداء فريضة الحجّ وصيام رمضان وصيام الكفارات ، بل قد لا يقدر على الوقوف والركوع والسجود فى صلاته وهو بجانب ذلك ضعيفُ الإرادةِ ، قليلُ الحِيلة ، واهى الأعضاء ، مضطربُ التفكير ، عصبىّ المِزاج ، لا يستفيد العالم منه تلك الفائدةَ التى تعودُ عليه من الأصحاء الأقوياء .

وإنّك لترى كيف مدح الله قوةَ البدن فى قوله فى موسى عليه السلام على لسان ابنة شيخ مدين : ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ [القصص : 26] ، ولقد جمع الله تعالى فى هذه الآيةِ الكريمةِ كُلًّا من سلامة البدن ونقاء الروح ، وجعلهما خير الصفات التى يجب أنْ يتحلى بها الإنسانُ ، وانظرْ إلى أيوبَ نبىِّ الله كيف فَرَّ من المرض إلى مولاه : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ ﴾ [الأنبياء : 83 ، 84] ، ولو تيسرت لأيوبَ العبادةُ فى مرضه على الوجه الأكمل لمَا هَرَعَ يشكو مصيبته ، ودعا ليكشف عِلته .

وَمَنْ مِنَ العابدينَ لا يطلب من الله أن يُمتِّعه بسلامة الجسم والرُّوح حتى يصبحَ كطالوت الذى قال الله عنه لبنى إسرائيل : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : 247] ، والبسطة فى العلم والجسم كناية عن كمال الروح والجسم جميعًا .

لذلك نرى الطبَّ مجسَّمًا فى الدِّين الإسلامى ، وليس معنى ذلك أنّ القرآنَ الكريم كتابُ طبّ ، وجلّ أنْ يكونَ مقصورًا على ذلك ، ولكنّه أشار إشارات صريحةً إلى ما يَهُمّ الناسَ من هذا العلمِ ، وترك لهم مجال البحث فيما عدا ذلك .

النَّظافةُ :

ومما أوجبه الله على المؤمنينَ الاغتسالُ وتنظيفُ البدن وغَسْلُ الأطراف عند كل صلاة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ

وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ ﴾ [المائدة : 6] ، كما أمرنا بالمحافظة على طهارة المياه وعدم تلوثها كما سيتبيَّن من المبحث الحادى عشر ، وأمر الله بنظافة الثياب فقال : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [المدثر : 4] ، وأمر بالاستنجاء عقب التبرّز والتبوّل كما جاء فى آية الوضوء ، وما أمر الله بالنظافة وفرضها على المسلمين إلَّا ليكونوا مثلًا يُحتذى : ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة : 6] ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة : 222] .

الوِقايةُ :

ولقد وضع الله قانونَ الوِقاية فى قـوله تعـالى : ﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة : 195] ، وضرب الأمثال لذلك فحرّم الانتحارَ وهو ما يشمله قوله جلَّ شأنه : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء : 29] ، وحرَّم أكل الخبائث التى تَفْتِكُ بالأجسام وتُسبّب الأمراضَ كالمَيْتَةِ والدّم ولحم الخنزير ، وحرَّم شُربَ الخمور على اختلاف أنواعها ، وأمر بالتخلُّص من الجراثيم والتطهرِ منها ، ففرض الاستنجاء من البراز والبول .

ولا يقتصرُ تحريمُ الدِّين للزنا واللواط على الأسباب الاجتماعية فحسبُ ، بل إنّ الأمراض الجسمية والخُلُقية والنفسية والجنسية التى تسببها هاتان الفاحشتان لما له نصيب كبير فى علة التحريم .

ومن الأشياء التى حرّمها الدِّينُ كذلك للوقاية وطءُ الحائض لما يترتب على هذا الفعل من الأذى والأضرار البالغة التى لا تعود على الرجل فحسبُ بل على المرأة كذلك .

وأرى أنَّ دعوةَ الدِّين إلى دفن الموتى والتعجيل فى ذلك عند التحقق من الوفاة لهى كذلك من الأغراض الوقائية لسرعة تعفن الجثث ، ولمنع انتشار الأوبئة والأمراض بين الأصحاء ، وأعتقد أنّ الأمر بدفن الموتى فرضه الله

على البشر منذ خَلْقِ الإنسانِ ، وأنّ هذا الأمر يُؤخذ من قوله تعالى فى قصة ابنى آدم ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ [المائدة : 30 ، 31] ، ولقد كان ولدُ آدمَ المقتولُ أوّلَ مدفونٍ من البشر على حَسَبِ تعاليم الإسلام .

وإنّ الأمر بعدم الإسراف فى الطعام والشراب لهو كذلك من وسائل الوقاية مما يترتب على النَّهم من أضرار تَلْحَقُ بالإنسان ، وإنّ هذا الأمرَ هو قوله تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف : 31] .

ومن طرق الوقاية اتخاذ الأردية المناسبة لحرارة الجو والأردية المناسبة لبرودته ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [النحل : 5] ، فمن أوبار الجمال وأصواف الأغنام وأشعار الماعز مثلًا تُصنعُ الثيابُ والأردية والأغطية الواقية من شدّة البرد .

الغِذاءُ :

ووضَعَ الدِّينُ مبدأ عامًّا للتغذية وهو قوله جَلَّ شأنه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ [البقرة : 172] ، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [البقرة : 168] ، وضرب الله لذلك مثلًا ما استجاب له أهل الكهف حين قالوا : ﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ ﴾ [الكهف : 19] .

وضرب الله مثلًا للغذاء الصالح لحومَ الأنعام وما يُشْتهى من لحوم الطير الطيب المذاق والأسماك الطرية الجيدة اللحم ، وضرب أمثلة كثيرة للخَضْرَوات الطازجة والمفيدة كالفول والقَرْع ، ومَنَّ علينا بما أنعم به علينا من الزُّبْدِ وزيت الزيتون واللبن وعسل النحل إلى غير ذلك من الطيبات ، ولقد ذكر لنا الله أطيب أنواع الفاكهة فى مواضعَ كثيرةٍ من كتابه الكريم وذلك لصلاحيتها للجسم ، ولكبير منفعتها له ، كلّ ذلك فى الوقت الذى حَرَّم فيه

علينا خبيث الأنواع : ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [النحل : 114] .

الرياضةُ البَدنيَّةُ :

ولم يَترِكْ الدِّينُ الرياضةَ البدنيةَ دونَ أنْ يَعتنى بها عناية كافية ، وحسبك ما تحويه عبادةُ الصلاة من حركات نظامية ، وأعمال بدنية مستمرة يوميًا فى أوقات النهار والليل ، يستطيع أن يؤديها كل فرد بغير إجهاد أو إرهاق .

إنَّ الصلاة فى الإسلام بهذه الدقة المتناهية ، وبهذا النظام العجيب ، وبما تحويه من وقوف وركوع وسجود وقعود وتلاوة لخير ما تفسر به أصول الرياضة البدنية الحقّة ، ولما كان الدين الإسلامى هو دينَ الله الذى فرضه على البشر ؛ لذلك أُنزل ليوافق كل زمان ومكان ، ولهذا كانت فريضة الصلاة ميسورة لكل فرد من أفراد العالم ، يَعتادها الإنسان منذ صِغره فتكون خير مقوِّم لبدنه منشِّط لأمعائه ، ورياضة صالحة لعضلات جسمه ومفاصله وعظامه ، فبحركات الصلاة تتحرك جميع عضلات الانقباض والانبساط فى الهيكل الإنسانى حتى عضلات الوجه والعضلات التى تحرك الفكين [1] .

ولا شك أن الفتى والفتاة إذا نُشئا على شريعة خاتم النبيين ﷺ ، مؤدين فريضة الصلاة حسب النظام الذى بينه الله تعالى ، ضَمِنَا قوامًا رشيقًا ، وأَمِنَا من السمن المشين ، وصحبتهما الصحة والعافية طوال الحياة ، ولكى تتأكد من أن فرض الصلاة يهدف ، فيما يهدف إليه ، إلى معنى رياضى صحى انظر إلى قوله تعالى فيمن يأتون بحركات الصلاة بعيدين عن ذلك الهدف ﴿ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ ﴾ [التوبة : 54] .

ولا جدال - من النظرة الطبية - فى أنَّ خير الرياضات اليومية هى الرياضة المستمرة غير المجهدة ، الميسرة فى أى مكان ، الموزعة على أوقات الليل والنهار ، قبل الشروق ، وفى الظهيرة ، وقبل الغروب وبعده ، وفى أثناء الليل ، مع الوضوء الجدى ، وكل هذا بجانب المحافظة على سلامة

---

(1) المعروف أن أقوى عضلة فى الجسم هى عضلة الفكّين .

الأخلاق والتمسك بالكمالات النفسية وتهذيب الروح وتنقيتها من المفاسد مما يُعتبر أصلًا أساسيًا من أصول الرياضة البدنية الحقّة .

وحين قرر الدِّين تلك الرياضةَ البدنيةَ اليوميةَ بالصلاة ، فرض رياضة أخرى من نوعٍ آخرَ تشمل الأعضاء الداخلية من الجسم خاصَّة الجهاز الهضمى والغدد القنوية وغير القنوية ، وما يتعلق بها والجهاز الدورى والأعصاب وغيرها ، تلك الرياضة هى الصيام فجعله شهرًا على الأقل كل عام ، ويضيق بنا المقام إذا أردنا أن نبين علاقة الصيام بالصحة العامة ، ولقد بَيَّنا كُلَّ هذا فى مؤلَّف لنا مخطوط .

وفرضَ الله الحجَّ كذلك رياضة لصحيح الجسم القادر على مشقة السياحة والسفر ، وهذا بجانب ما دعا إليه الدِّين من أنواع الرياضات الأخرى كركوب الخيل مثلًا والرمى بالنبال ، بل إنه لمن الرياضات البدنية المهمة التدربُ على الأعمال العسكرية بجميع أنواعها ، وهذه الأعمال يشملها قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال : 60] وهو ما يجعل عشرين رجلًا مؤمنًا يُنازلون مائتين من أخصامهم [1] ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنفال : 65] بل انظرْ إلى الله تعالى يقسم بالخيل يركبها فرسانها فيخوضون بها ساحات الوغى ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴾ [العاديات : 1 - 5] .

هذه أمثلة لـمَا شرعه الله تعالى للرياضة البدنية التى تُهذّب الرجال وتخلع عليهم ثياب الصحة والسلامة والعافية .

عَدَمُ الإجهادِ والرِّفْقُ :

عَلِمْنَا أنَّ الإسلامَ تركَ المجال مُتَّسِعًا لما ذكرنا من الرياضات ، وللمؤمن

---

(1) الصواب : خصومهم جمع (خَصْم) بفتح الخاء ، أما أخصام فهى جمع (خُصْم) بضم الخاء أى الجانب والناحية أو الفُرجة . انظر : « المعجم الوسيط » (خصم) .

أنْ يتعبدَ بما فرضــه الله عليه ما شاء ، فيجازى فى الدنيا بالعافية ويضمن حُسْنَ ثواب الآخرة ، ولكن يجب أنْ نعلم أنَّ الدِّين فى الوقت نفسه اشترط عدم الإجهاد حتى لا تخرج الرياضة عن هدفها الأساسى ، قال تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ ﴾ [البقرة : 286] .

ومن ذلك ترخيصُ الدِّين للمرضى والمسافرين ألّا يصوموا حتى يَقْوَوْا على الصيام : ﴿ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة : 185] .

وأسقط الدين الحجَّ عن المريض الذى يكلفه الحجُّ مجهودًا جسمانيًا لا يحتمله ، ويشمله قوله جلَّ شأنه : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ ﴾ [آل عمران : 97] .

وَأَعْفَى كذلك من القتال العمى والمرضى والعرج فقال تعــالى : ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ ﴾ [الفتح : 17] .

وتأمّلْ رفقه جلَّ شأنُه بالمؤمنين إذ أعفاهم من قيام الليل كقيام الرسول الكريم خاتم النبيين ﷺ ، ومنعهم من تقليد رسول الله ﷺ فيما لا يحتملون ، إذ إنهم لا يستطيعون الجمع بين قيام الليل والقتال والسعى فى طلب الرزق والسفر ، وأشفق عليهم أن يفرضوا على أنفسهم فرضًا مستمرًا قد يعوقهم كذلك عن أدائه مرضٌ من الأمراض ، تأمل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ [المزمل : 20] ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء : 28] .

المبحث الثانى

تطورات خلق الإنسان

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ (*) [المؤمنون : 12 - 14] .

إن القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة التى تُرينا من أسرار الكون عجبًا ، والآية المبصرة التى لا تزال تأتينا من كلِّ شىء سببًا . ولقد قال تعالى : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام : 38] ، والآية الكريمة التى نحن بصددها تبحث الإنسان بحثًا دقيقًا ، هو من أهم الأبحاث العلمية ، ومن أدق الحقائق والأسرار الكيمائية ، كما يبحث علم الأجنة الذى هو من أهم العلوم الطبية الحديثة .

وسنرى فيما يلى ما تتناوله الآية الكريمة من أسمى الأغراض وأدق المعانى .

ولسهولة بحث الآية ، نقسم شرحها إلى الأطوار التى ذكرتها ، وذلك استنادًا على قوله تعالى فى سورة نوح عليه السلام : ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ [نوح : 14] فنبدأ بخلق الإنسان من طين ، ثم ننتقل إلى جميع الأطوار الأخرى ، من نطفة ، وعلقة ، ومضغة ، إلى آخر ما ذكرته الآية الكريمة ، وفى أثناء ذلك سنقوم بتفسير ما يتعلق بموضوع الخلق من آيات .

★ ★ ★

(*) نشرتُ رأيى هذا فى تفسير هذه الآيات منذ عام 1353هـ الموافق 1934م فى مجلة « هدى الإسلام » العدد الثانى من السنة الأولى .

طَوْرُ الطِّينِ

عناصرُ الطِّينِ :

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ [المؤمنون : 12]
والطين : هو ذلك المخلوط المعروف بالتراب : (الرغام) حين يمتزج بالماء ؛ فالإنسان بحسب الآية الشريفة ، خلق منهما جميعًا ، فأما خلقه من التراب ، فقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم : 20] ، وأما خلقه من ماء ، فقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ (*) [الفرقان : 54] ، وقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [النور : 45] .

وعناصر الطين : هى التى تتكون منها القشرة الأرضية ، والعناصر المعروفة لدينا اليوم تبلغ تسعين عنصرًا ، تسعة منها هى أكثرها انتشارًا ، وتكون 98% من القشرة الأرضية ، وهى : الأكسجين ، والسليكون ، والألمنيوم ، والحديد ، والجير ، والصوديوم ، والبوتاسيوم ، والمغنسيوم ، والهيدروجين . . . إلخ ، وباقى العناصر ، ويكون 2 % منها . وسنرى أن أجسامنا لا تتكون إلَّا من نفس هذه العناصر .

ويمكن تقسيمُ العناصر المعلومة لنا إلى قسمين كبيرين :

1 - **عناصر غير معدنية** : كالهيدروجين ، والأكسجين ، والكربون ، والأزوت ، والكبريت ، والفسفور ، والكلورين ، والأيودين ، والفلورين ، والسليكون .

(*) يذهب المفسرون إلى كون الماء هنا هو ماء الرجل ، ولكن الماء إذا قصد به المنى ، فالمنى لم يخلق منه الإنسان ، بل إن الحيوانات المنوية لم يخلق منها الإنسان الأوَّل ، وعلى ذلك فالماء هو ما ذكرنا ، أى الماء العادى .

2 - وعناصر معدنية : كالصوديوم ، والبوتاسيوم ، والكلسيوم (الجير) والمنجنيز ، والحديد ، والنحاس ... إلخ .

ويجبُ أن نبينَ هنا أن هذه العناصرَ لا توجد كلُّها خالصةً فى القشرة الأرضية ، بل أغلبها موجودٍ على شكل مركبات كيمائية كوجود الكلورين متحدًا مع الصوديوم ، ليكونا ملح الطعام (كلورور الصوديوم) وكوجود الصوديوم على هيئة نترات أو كبريتات ، وكوجود الجير على هيئة فسفاتات ... إلخ .

عناصرُ جسمِ الإنسانِ :

إذا نظرْنا إلى جسم الإنسان وجدناه مكونًا من نفس العناصر غير المعدنية ، والعناصر المعدنية التى ذكرناها ، وهى التى تتكوّن منها أجسامنا ، وهى موجودة فينا على شكل مركبات عديدة غير عضوية وأخرى عضوية .

فأمّا المركباتُ غيرُ العضوية فهى :

1 - كلورور الصوديوم وكبريتاته وكربوناته وفسفاتاته ، وأهم هذه كلها كلورور الصوديوم ، ويبلغ مقداره فى الجسم 3 % من وزنه .

2 - أملاح البوتاسيوم المرادفة لأملاح الصوديوم ، وتدخل فى تركيب الجسم بنسبة أقل من سابقتها .

3 - وتوجد أملاح الجير بنسبة كبيرة فى العظام فى شكل فسفاتات ، وتوجد كذلك فى الأنسجة المختلفة فى سوائلها ، ومثلها أملاح المغنسيوم ، وأملاح هاتين المادتين توجد فى الجسم كذلك على شكل كلورات وكربونات وفسفات ، ويوجد فلورور الجير كذلك فى الأسنان .

4 - وأملاح الليثيوم ، توجد آثار منها فى الجسم .

5 - وفى العصارة المعوية يوجد حامض الكلوردريك ، وهو مُكوَّن من عُنصرَى الكلورين والهيدروجين .

وأما المركباتُ العُضوية المركّبة للجسم فهى :

1 - **البروتينات أو المواد الزُّلالية** ، وهى مركَّبات معقَّدة من الكربون ، تحتوى بجانب الكربون على الهيدروجين والأكسجين والأزوت والكبريت ، ومنها ما يحتوى كذلك على الفسفور .

2 - **الدهنيات** ، وتتركب من الكربون والهيدروجين والأكسجين .

3 - **الكربوهيدرات أو المواد النشوية أو السكرية** ، وتتركب من عين عناصر الدهنيات ، ولكنها تخالفها فى وجود عنصرَىْ الهيدروجين والأكسجين فيها بنسبة وجودهما فى الماء وهى (2 : 1) .

والماء يُعَدُّ من أهمّ المركبات غير العضوية المقيمة لكِيان أجسامنا ؛ إذ تبلغ نسبة الماء فى الجسم 66 % من وزنه ، ويختلف مقدار الماء باختلاف أنسجة الجسم ، فبينما تصل نسبته فى الأسنان 1 % ، تراها فى عضلات الجسم 75 % ، وفى الدم 78 % ، وكذلك الحال فى الحيوان ، بل إن النبات يكوّن الماءُ كذلك جزءًا مهمًّا فيه .

كيف خُلِقَ الإنسانُ من طين؟

تَرى مما تقدَّم أنّ الموادَّ التى يتركَّب منها جسمُ الإنسان ، **هى بعض** محتويات القشرة الأرضية ، فإنْ قلت إنَّ الإنسان لا يتكوّن منها جميعًا ، وإنَّ هنالك من محتويات القشرة الأرضية ما لا يدخل فى تركيبه ، قلنا لك : إنَّ الله تعالى بَيَّن ذلك بيانًا وافيًا فقال : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ [المؤمنون : 12] والسلالة معناها الخلاصة ، ويكون معنى الآية الكريمة : إن الله تعالى خلق الإنسان من خلاصة خاصة من الطين ، وهى المواد التى ذكرناها ، ويتركب منها جسم كل منا .

ويقرب هذا المعنى إليك قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴾ [الرحمن : 14] ، وكلنا يعلم أن الفخار لا يصنع ولا يتكون إلَّا من طين غنى بالعناصر التى يتركب منها الإنسان ، وينشأ منها النبات ، كطمى

نهر النيل مثلًا ، ويكون الفخار بذلك شبيهًا بالطين الذى صنع منه الإنسان ، والذى سماه الله تعالى صلصالًا ، لما سنبين بعد .

وننتهز هذه الفرصةَ لنذكر أن النبات يشبه تمام الشبه جسم الإنسان ، من حيثُ أصلُ تركيبه ، وائتلافُ عناصره ، فالبذرة حين توضع فى الأرض الخصبة المحتوية غالبًا على العَناصر المكونة للنبات كالأكسجين والحديد والكلسيوم والبوتاسيوم والماجنيزيوم والهيدروجين والأزوت والكبريت والفسفور والكبريت . . . إلخ ، ثم تروى بالماء ، ويتكون الطين لاتلبث أن تجد ذلك الطمى وقد غدا جُذوعًا ، وفروعًا ، وأوراقًا ، وزهورًا ، وأثمارًا .

إن البذرة التى وضعناها فى الأرض ما هى إلّا بويضةٌ نباتية مُلَقَّحَةٌ بعضو التذكير النباتى ، ويقابلها فى الإنسان بويضة الأنثى حين تلقح بنطفة الذكر ، كما سنبين بعدُ .

وإننا إذا نظرنا إلى الإنسان لوجدناه جسمًا يتركَّب من أعضاءٍ مختلفة ، وهذه الأعضاءُ تتركب بدورها من أنسجة خاصة ، وهذه بِدَوْرها تتركَّب مِن خلايا دقيقة ، مرتبة ترتيبًا محكمًا ، منسقة تنسيقًا بديعًا ، ثم إنَّنا إذا تتبعنا الوَحْدَةَ البشريةَ ، وهى الخلية ، نجد أن أهم محتوياتها البروتوبلازم ، والبروتوبلازم هو مادة نصف سائلة ، عديمة اللون تتركّب من البروتين ، ومن كمية قليلة من الدهن ، وأخرى معلومة من الكربوهيدرات ، ويحتوى البروتوبلازم أثناءَ الحياة على بعض عناصرَ أخرى عالقة به ، بحيث يصبح البروتوبلازم كتلةً غيرَ حيّة من البروتين عند فقدها ، **وهذه العناصر هى** : الأكسجين ، وأملاح أخرى أهمها الجير ، ودهن ، وبروتين ، ومركّب آخر يحتوى على آثار من الحديد ، وهذا الأخيرُ هو الذى يُعطى البروتوبلازمَ القدرةَ على تخزين الأكسجين الذى لو عمل على إخراجه مات البروتوبلازم ، وأصبح كتلة غير حيّة من العناصر المذكورة .

فترى من ذلك أنّ الوحدة البشرية هى كذلك من مادة الطين ، فإذا وضعت فى التربة الصالحة لها وهى الرحم ؛ وزودت بعناصر الطين ، كبرت ونمت ، وأصبحت المادة الطينية جسمًا ، وأعضاء ، وأنسجة ، وخلايا مختلفة .

قال تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت : 20] أى فابحثوا ، وتعلموا ، وفكروا فى كيفية خلق الإنسان من عناصر الأرض وأجزائها ، وكيف جعل الله من التربة الأرضية المخلوقات كلها ، بل كيف حول الأرض الميتة إلى كائنات حية تتنفس ، وتأكل ، وتعمل ، وتعيش ، ألم يقل الله تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا ﴾ [يس : 33] أى حولناها إلى كائنات حية ، منها : الجنس البشرى ، والحيوان والنبات ، وقوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت : 39] .

وكما يتكوَّنُ النباتُ من طين الأرض ، كذلك يتكوّن الإنسانُ ، ولعلّ ذلك تفسير قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (17) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ [نوح : 17 ، 18] .

وأما قوله تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾ [الصافات : 11] فاللزوب صفة للطين ، ومعناه اللصوق والثبوت ، ولزب الطين لزق وصلب ، أى من طين متماسك ، وسلالة الطين اللازب سميت صلصالًا ، وكذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (28) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [الحجر : 28 ، 29] ، وإنك لترى لفظ (صلصال) هنا يقابل لفظ طين فى قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (71) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [سورة ص : 71 ، 72] .

وقوله تعالى : ﴿ مِّنْ حَمَإٍ ﴾ أىْ أنّ الصَّلْصَال متكوّن منه ، و (الحمأ) الطين الأسود المنتن ، ومعنى ذلك : أنَّ الطين الذى خُلق منه الإنسان مَرَّ فى طَوْرٍ كان فيه منتنًا ، أىْ متعفنًا ، أو بعبارة أخرى علمية إنه قد حصل قبل تكوينه تفاعل كيميائىٌّ بين عناصره ومركباته مع وجود الماء ، وكانت نتيجة ذلك اتحاد عناصرَ خاصةٍ ببعضها ، وخروج غازات خاصَّة نتيجة التفاعل ، كغاز كبريتور الهيدروجين الكريه الرائحة ، والنشادر وغيرها ، وذلك كما يحصل فى الأسمدة البلدية والرمم قبل تحويلها إلى تراب طهور لا رائحة له ،

ولقد قال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس : 78 ، 79] .

فعندما يموت المرء ، يبتدئ جسمه فى التحلل إلى عناصره التى ذكرناها ، وتتصاعد غازاتٌ خاصَّة نتيجةَ ذلك التحللِ ، ويفقد الجسم بعض عناصر أخرى ، وفى هذه الحالة يسمىَ (الحمأة) ، وكذلك الحال إذا حرق .

وبعد ذلك يصير ترابًا ، وهو قوله تعالى : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه : 55] وحين يختلط التراب بالماء يصير طينًا .

وأما قوله تعالى : ﴿ مَّسْنُونٍ ﴾ فصِفَةٌ للحمأة ، ومعناه (متغير) وذلك لما بيّنا من التفاعل الكيمائى ، **وقال صاحب لسان العرب**[1] : يقال هو المتغير ، **وقال أبو عمرو** : ﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ أى متغير منتن ، **وقال أبو الهيثم** : سن الماء فهو مسنون أى تغير .

وتكُونُ الأدوارُ التى مَرَّ بها الإنسانُ عند الخلق من طين هى : أنَّ الله تعالى خلق الأرض بعناصرها ، ثم شاء أنْ يخلق الإنسان من هذه العناصر ، فجمع سلالة ، أى خلاصة منها ، وهى التى تتركب منها أجسامنا كما بيّنا ، وهذه السلالة حدثت بتفاعلات كيمائية خاصَّة ، وهى التى تُسمّى بالحمأ المسنون ، وحين تم التفاعل أصبحت ترابًا ، فخلط هذا التراب بالماء ، فغدا طينًا لازبًا أو صَلْصَالًا كالفخّار ، فسوى الله تعالى هذا وهو قوله : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ ﴾ أى جعلتُه على هيئة الإنسان ، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين : 4] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ ﴾ [الأعراف : 11] ، وقال : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان : 2] ، وقال : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ [التغابن : 3] ، وبعد ذلك أوجد فيه الرُّوحَ وهو قوله : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ [الحجر : 29] أى خلقت فيه رُوحًا من عندى .

وهكذا خَلَقَ الله تعالى آدم من طين كما بَيَّنَّا ، وخلق منه أولاده وأحفاده

---

(1) انظر : « لسان العرب » : (سنن) .

وذُرِيَّته بعضَهم من بعض ، وكلُّهم من أصل الطين كذلك ، ثم بعث فيهم الروح والحياة ، وهو قوله تعالى : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس : 36] فقوله : ﴿ مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ ﴾ أىْ من الأرض كما ذكرنا ، وقوله : ﴿ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ أى بعضهم من بعض من طريق التناسل كما سيأتى ، وقوله : ﴿ خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾ أى الإنسان والحيوان والنبات ؛ إذ جعلهم من ذكر وأنثى ، وهو كقوله : ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات : 49] والنبات يدخل فى ذلك إذ قال تعالى عنه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ [الشعراء : 7] أى ذكر وأنثى كُلٌّ له أعضاؤه الخاصة به ، وبعضه فيه أعضاء التذكير والتأنيث تُلقِّحُ أُولاها ثانيتَها وهو ما بيّنه قوله جل شأنه : ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ [الحجر : 22] تحمل حُبيبات الذَّكَر لتضعها فى أعضاء التأنيث لتلقيحها ، وهذه كلها أشياء لم يكشفها العلم إلَّا حديثًا ، وذكرها القرآن الكريم .

أنبت الله تعالى فى الأرض من كل زوج كريم ، وهو عين ما قاله فى الإنسان ﴿ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ [الروم : 21] .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس : 36] أىْ مِن الرُّوح ، وحقًّا لقد عجزت عقولُنا عن إدراك كنهها ، أو معرفة ماهيتها ، مع وجودها معنا أينما سِرْنا ، نحس بها ولا نستطيع تكييفَها ، قال تعالى : ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات : 20 ، 21] فسبحان ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾ [السجدة : 6 ، 7] .

طَوْرُ النُّطْفَةِ

شَكْلُ النُّطْفَةِ :

قال تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً ﴾ [المؤمنون : 13] والنطفة هى الحيوان المنوى الذى ينشأ فى خِصية الرَّجل ، ويبلغ طوله نحو الاثنين والخمسين

ميكرونًا (*) إلى الاثنين والستين ، **وهو مقسَّم إلى أربعة أقسام ، وهى :** الرأس والعُنق والجسم والذنب ، وبعد الذنب يوجد جزء يسمّى بالمؤخرة ، والرأس يبلغ طوله نحو الأربعةِ إلى الخمسةِ الميكرونات ، وهو مُدَبَّبُ الطرَف الأعلى ويشبه الرمح ، وذلك لأنه يستعمل فى قطع جزء من بويضة الأنثى لاختراقها ، ويكسو ثلاثة أرباع جزئه العلوى غشاء خاص يسمّى بالكبود .

والعنق يقع فى أسفل الرأس ، بين هذا الأخير والجسم ، ويوجد أعلى العنق جزء يُسمْى (السنتريول الأمامى) .

ويقع الجسم بين العنق والذيل ، وهو خيطىّ الشكل ، ويحد من الخلف بما يُسمّى بالأسطوانة الطرفية ، والسنتريول الخلفىّ موضوع عند اتصال الجسم بالعنق ، ومنه يمتد شريط خاص محاط بجراب ، والشريط يمرّ فى الجسم والذنب ، ويلتف حوله خيطٌ حَلَزونىٌّ الشكل ، محاط بحافظة تحتوى على (كوندوريوزومس) تُسمّى الحافظة (الميتكوندر) .

والذيلُ يبلغُ طوله من 41 إلى 52 ميكرونًا ، ويتكوَّن من شريط محورى ، محاط بحافظة بروتوبلازمية ، والمؤخرة وهى القسم الواقع بعد الذيل لا تتكوَّن إلَّا من الشريط المذكور ، ويبلغ طولها ستة ميكرونات .

ولا يَخْرج الحيوانُ المنوىُّ عن كونه خليةً واحدةً ، مُرَكَّبة هذا التركيب الخاص ، وهو كائن حى ، سريع الحركة إذ تبلغُ سرعتُه نحو نصف ملليمتر فى الثانية الواحدة ، وتبلغ سرعة الحيوان أقصاها عند خروجه من الخصية مباشرة ، ويتحرك هذا الحيوان بواسطة حركة ذيله الثُعْبانية .

وروى الأستاذ (التزمان) أن المنىَّ المحفوظ من الضوء والبرد تعيشُ حيواناتهُ مدةَ 48 ساعة ، ووجدها الدكتور (كوبر) بعد 84 ساعة فى منى حُفظ فى زجاجة عادية غيرِ مُحْكَمةٍ ، ويروى (فريزر) عن (زفيفل) أنها تعيش أكثرَ من ثلاثة أسابيع ، ويقول : إن عدد الحيوانات المنويَّةِ يبلغ فى الدَّفْعَةِ الواحدة نحو 200 مليون حيوان .

(*) الميكرون : وحدة هستولوجية تبلغ 1/ 1000 من الملليمتر أو 1/ 25000 من البوصة .

كيفَ تَنْشأُ النُطفةُ ؟

وقبلَ أنْ أشرحَ كيف تَنْشأُ الحيوانات المنويّةُ أَرانى مُضْطَرًّا إلى ذِكْرِ تركيب الخصية حتى يَسْهُلَ فهمُ ما أرمى إليه .

(أ) **تركيبُ الخصية** : فالخِصيةُ هى غُدّة بيضاويّة الشكلِ تَزِنُ الواحدة منها نحو ثلاثة أرباع الأوقية ، وهى محاطة بحافظة لِيفية متينة تُسمى الصفاق الأبيض للخِصية ، وهى مُغطاة بطبقة مَصْلية منعكسة من الطبقة الغمدية للخصية ، وهذه الطبقة تَبْرُزُ منها زوائدُ أو استطالاتٌ ليفية تَقْسِمُ الخصية إلى فُصوص مخروطية غير مُنتظمة الشكل .

يمتدّ الصِّفَاقُ من الخلف إلى داخل الغُدة مكوِّنًا كتلة من النسيج الليفىّ تُسمى حيزوم الخِصية .

ويتصل بالحافة الخلفية لجسم الخصية جسمٌ يُسمّى بالبربخ ، وهو مكوَّن مِن أنبوبة واحدة معرجة تستقبل من طرِف فوهتها العليا القنوات الخارجة من الخصية ، وتمدّ عند طرفها الأسفل مكوِّنةً أُسطوانة عضلية سميكة الجُدُرِ تُسمَّى القناة الناقلة للمنىّ ، وهى التى تسمح بمرور الإفرازات إلى مجرى البول .

تتكوَّن مادة الخصية على وجه عام من قَنا منوية يبلغ طولها مقدارًا كبيرًا إذا مددناها .

تبدأ كل قناة بِقربِ الصِّفَاق ، وبعدَ تعرجات عديدة تنتهى إلى قنوات مستقيمة بعد أنْ تكون قد اتحدت بقناة أو أكثر من القَنَا المنوية ، وتنتهى القنوات المستقيمة إلى حَيْزوم الخصية ، وتكوّن هنالك باتحادها شبكة من القنوات المختلفة الحجم تُسمى بالشبكة الخِصوية ، والقنوات المستقيمة مُبَطَّنة من الداخل بطبقة واحدة من الخلايا المسطحة أو المكعبة ، وكذلك أنابيب الشبكة الخِصْيِيَّة .

ومن الشبكة الخِصْيِيَّة يخرج عددٌ محدود من القنوات الخارجة من الخصية تتصل بعد تعرجات بسيطة بالبربخ ، وهذه القنوات الخارجة مبطنة من الداخل ببشْرة ذاتِ خلايا عمودية ذات أهداب .

والبربخُ يبلُغ طولهُ من 6 - 8 أمتار ، وهو مبطَّن من الداخل بخلايا عمودية طويلة ، يحتوى كلّ منها على نَواةٍ بيضيّةِ الشكلِ ، وتوجد عند قاعدتها خلايا عديدةُ الزوايا أصغرُ حجمًا ، يحتوى كلٌّ منها على نَواةٍ كُرَوِيَّةٍ .

وتحتوى الخلايا العموديَةُ على أهداب تتجه نحو داخل الأنبوبة ، ويُلاحظُ فى هذه الخلايا وجودُ جهاز خاص يسمى (جهاز جولجى)(*) .

(ب) **تركيب القنا المنويّة** : تتكوّن القنا المنوية من نسيج ضام صفيحى التركيب ، وتغطى هذه الصفائح بخلايا مسطحة ، وتحتل مادةَ الصفائح خيوطٌ مختلفة أهمها خيوط خاصة من النوع المرن .

ويلى الغشاء القاعدى(**) للقنا المنوية مباشرة خلايا مكعبة تحتوى الواحدة منها على نَواة ذات شكل شبكى غير منتظم ، وتمتاز هذه الخلايا بهذا الشكل فى وقت راحتها ، ولكنك قد تجدها فى بعض الأنابيب الصغيرة فى دور الانقسام ، هذه الخلايا تُسمى بالخلايا الإيبيثليومية .

تلى هذه الطبقةَ من الخلايا طبقةٌ ذاتُ خلايا أكبر حجمًا لكل منها نَواة فى دور الانقسام ، وتُسمى خلايا هذه الطبقة الجراثيم المنوية ، وتلى هذه الطبقة طبقة الخلايا المنوية ذات النواة الكروية البسيطة الشكل ، وتُشاهَدُ فى هذه الخلايا ذيولِ الحيوانات المنويّة فى دَوْرِ التكوين .

تستطيل خلايا هذه الطبقة بعدَ ذلك وتأخذ نَواة كلِ خلية فى الاتجاه إلى أحد طَرَفَى الخلية المتجهة نحوَ محيط دائرة القنا ، ويأخذ ذيلُها فى النمو كذلك ، وتكوّن نَواةُ كل خلية رأس الحيوان المنوى .

وتتجمّعُ الحيواناتُ المنوية فى مجموعات ، ورءوسها متخللة الطبقة التى تليها من الخارج ، وتراها متعلقة بخلايا خاصة لتغذيتها ، وكلما زاد الحيوانُ

(*) سيأتى بيانه عند الكلام عن قوله تعالى : ﴿ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ [الإنسان : 2] .

(**) هو غشاء رقيق تقوم عليه البشرة (إيبيثليوم) المخاطيةُ أو المَصْلِيَّةُ فيفرقها من الطبقة الوعائية التى تحتها .

المنوىّ فى النمو برز إلى الداخل ، وغدا ذيله طليقًا فى تجويف القنا .

وفى الوقت الذى تكونُ فيه مجموعةٌ من الحيوانات المنوية فى دَوْرِ التكوين نجدُ مجموعة أخرى من الخلايا الإيبيثليومية تنقسم لتكوين جراثيمَ منويةٍ .

وعندما تُمْنَى الحيواناتُ المنويةُ التامة النمو ، تأخذ الجراثيم المنوية فى الانقسام لتكوِّن خلايا منوية جديدة . وهذه تنمو لتكوِّنَ حيوانات منوية ، وهكذا دَوَاليكَ .

(ج) **نُشوء النطفة** : ويُمكن تلخيصُ الأدوار التى تمرُّ حتى تنشأ النطفة فيما يلى :

1 - تنقسم الخليةُ الإيبيثليومية إلى خليتين : إحداهما صغيرة تظل فى مكانها ، والأخرى كبيرة تنمو وتحتل مكانها فى الطبقة الداخلية الثانية لتكوِّن جرثومةً منوية أُولى .

2 - تنقسم الجرثومة المنوية الأُولى إلى جرثومتين .

3 - ثم تنقسم الجرثومة المنوية الثانية لتكوِّن خليتين منويتين ، تحتوى نَواةُ كلّ منهما على نصف عدد الكروموزومات الأصيلة .

4 - ثم تستطيلُ الخلايا المنوية لتكوّن حيوانات منوية ، وفى هذه الحالة يظهر تجمُّعُ الخلايا التى تنمو من الخلايا الإيبيثليومية ، وتستطيل هذه الأخيرةُ لتساعد الحيوانات المنويةَ فى الوصول إلى تجويف القنا حيثُ تكون حُرةً طليقة .

وجدير بنا أن نَذْكُرَ هنا أن جميع هذه الأطوار يمكن رؤيتُها تحتَ المجهر فى مقطع واحد من خِصية واحدة ، ويمكن تمييزها تمامَ التمييز ، ولا أرى داعيًا لذِكْرِ الخُطْوَات التى تمر بالخلية المنوية لتكوّن الحيوان المنوى التام النمو .

المنىُّ وتركيبُه :

أطلق المفسرون لفظ المنىّ على النطفة ، ولكنّى أرى أن القرآن الكريم فرّق بين النطفة (الحيوان المنوى) والمنىِّ قبل أنْ يُكتشفَ المجهر بأكثر من أحد

عشر قرنًا ، وهو قوله تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴾ [القيامة : 36 ، 37] .

والمنى هو ذلك السائل اللزج الذى يسبح فيه الحيوان المنوى ، وهو كمطبوخ النشا ، وله رائحة خاصة به ، ويَرى (لاندوا) أن المنىَّ الطبيعىَّ يحتوى على 82% من ماء وزلالَ المصل وزلالات قلوية ونيوكانين وليستين وكوليسترين وشحم فسفورى وقلويات وسلفات وكربونات وكلوريدات .

ويبلغُ مقدارُ المنىّ فى الحـالةِ العـادية مِنْ دِرْهَـم إلى دِرْهَمَيْـنِ تقريبًا ، وهو عبارة عن إفراز الخصيتين ، والقناة الناقلة للمنىّ التى تبتدئ من البربخ ، والحويصلات المنوية ، والبروستاتا ، وغدة كوبرَ ، ويسمّى إفرازها (المَذْى) وإفراز مخاطىّ من غشاء مجرى البول ، ويحتوى المنىّ بجانب ذلك على بللورات عديمة اللون ذات أربعة جوانب ، وتُـرَى فى المنى الطبيعى والحيوانات لا تزال حية ، وتوجد فيه كذلك بلورات متوازية الأضلاع ، تُرَى فى المنى بعدَ خروجه بزمن طويل ، من يومينِ إلى أربعة أيام .

ويرى (سربنر) أنها أجسام فُسفاتية مع قاعدة من المركبات العضوية .

يصل إفرازُ الخِصية ومعه الحيوانات المنوية من القنا المنوية إلى القنوات المستقيمة ، إلى الشبكة الخصوية ، إلى القنوات الخارجة ، إلى البربخ ، ومن البربخ يخرج الإفراز إلى القناة الناقلة للمنى فتصعد إلى الصَّفَنِ ، ثم إلى الحوض العظمى ، وتصب القناة الناقلة إلى الحويصلة المنويّة أسفلَ المثانة ولكلٍّ منهما انقباضات خاصة لدفع السائل المنوىّ عند الوطء .

والبروستاتة ، وهى غُدة تقعُ أسفلَ المثانة ، تُفرز سائلًا لَزِجًا لتخفيف الإفراز المخزون فى الحويصلتين المنويتين ، ولتشجيع الحيوانات المنوية على الحركة ، وتصب فَتحات الحويصلتين والبروستاتة فى الجهة الخلفية لمجرى البول .

وهكذا نرى وجوبَ التفرقة بين الحيوان المنوىّ والسائل المنوى ، وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴾ [القيامة : 37] بيان ظاهر لذلك ؛ إذ إن النطفة حسب الآية الكريمة هى قطعًا خلافُ المنى ، وهى كقولك أخرجت

السمكة من البحر ، والسمكة لا علاقة لها به ، إلّا أنها تسبح فيه كما تسبح الحيوانات المنوية فى السائل المنوى .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝٤٥ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾ [النجم : 45 ، 46] أى تخرج مع المنى ، ولعله من البديهى ، بعد ما قدمنا ، أن الإنسان لا يخلق من السائل الذى بيناه ، بل يخلق من الحيوان المنوى الذى سماه تعالى نطفة ، قال تعالى : ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴾ [عبس : 17 - 19] .

وأما الآية الكريمة التى تشمل السائل المنوى والحيوانات المنوية جميعًا فهى قوله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ [الواقعة : 58 ، 59] و (ما) للجماد [1] ، ذكرها تعالى وأطلقها على المنى والحيوانات المنوية بتغليب السائل لأنه هو الظاهر ﴿ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ [الرعد : 16] .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ :

وأما قوله تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ [الإنسان : 2] فليس معناه كما **قال المفسرون** : أى أخلاط ، أى من ماء الرجل وماء المرأة المختلطين الممتزجين ، أو كما قال **صاحب القاموس المحيط** : أو نطفة أمشاج مختلطة بماء المرأة ودمها [2] .

بل إن معنى قوله تعالى : ﴿ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ أى أن النطفة ولو أنها بسيطة الشكل الظاهرى ، لكنها مركبة تركيبًا محكمًا كما بينا آنفًا ، وتحتوى على عناصرَ ومركباتٍ وأخلاط خاصة هى التى سماها الله تعالى ﴿ أَمْشَاجٍ ﴾ ، وأرانى هنا مُضْطَرًّا أن أضرب مثلًا لذلك فأقول :

---

(1) يقصد لغير العاقل ، وهذا هو الأصل ، وقد تخرج عنهَ ومنه قوله تعالى : ﴿ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ [النساء : 3] وقوله تعالى : ﴿ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا ﴾ [آل عمران : 35] . انظر : « مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب » (1/ 308) .

(2) انظر : « القاموس المحيط » : (مشج) .

إنّ المادةَ الأساسيةَ فى الخلية ، وهى السيتوبلازم ، تحتوى على بروتينات (زُلاليات) وكربوهيدرات (نشويات وسكاكر) وجليكوجين ودهن وليبيد .

وتحتوى بجانب ذلك على أملاح غير عضوية ، وتوجد هذه العناصر مع الماء ، ويبلغ مقدار الماء فى مركبات الخلية من 50 - 90 فى المائة .

والخلية : ذاتُ جدار ، ونَواة ، ونُوَيَّة ، ويوجد فيها بجانب ذلك سنتريول ، والجسم المركزى للخلية ، وجهاز جولوجى ، ولنتكلم عن أهم هذه المحتويات أو الأخلاط باختصار ، حتى تسهل معرفتها .

السنتريول : هذا الجسمُ تحتوى عليه كلُّ خلية قادرة على الانقسام الميتوسى الخاص بخياط الخلية ، ويقع بجانب نَواة الخلية الدائرية أو عَدِيدة الزوايا ، ويقع بين النواةِ وجدار الخلية فى الخلايا العمودية .

وينقسمُ هذا الجسمُ إلى قِسْمَيْنِ عندما تبدأ الخليةُ فى الانقسام ، ويتجه كلّ قسم منهما إلى أحد قُطبيها .

ويَخْرج عددٌ من الخيوط الدقيقة من كلٌ قِسْم ، ويمتدّ نحوَ خطّ استواء النَّواة المنقسمة ، حيث يقابل الخيوط الأخرى المنبعثة من الجزء المقابل ، فيكونان مغزلًا عديم اللون ، تتصل به الكروموزومات المنقسمة للنواة . والكروموزومات هى الأجسام الملونة فى النواة .

ويختلفُ السيتوبلازم المحيط بالسنتريول عن غيره ، ويُسَمَّى الجسمُ المركزى للخلية ، ولم يشاهد السنتريول فى خلايا النباتات العليا ، ولكنّها تحتوىء على الجسم المركزىّ للخلية .

المِيتُوكوندريا : وهى أجسامٌ تشبه القضبان الصغيرةَ أو الخيوطَ ، وتوجدُ فى جميع الخلايا النباتية والحيوانية ، والأجسام الخيطية منها تنقسم وتتحدُ ثانيًا ، وتكوّن هذه الأجسامُ مجموعات فى الخلايا المستطيلة العمودية ، تقع كل منها فى أحد جوانب الخلية ، وتتركبُ هذه الأجسامُ من موادَّ بروتينيةٍ وليبيد وجلوتاثيون ، وتلعبُ هذه الأجسامُ دورًا كبيرًا فى تكوين بعض المركبات ، والموادّ الخاصة فى الخلية ، كالخمائر التى توجد فى سيتوبلازم كثير من الخلايا .

جهاز جولجى : هذا الجهازُ لا يُمكن تميزهُ فى الخلية الحية ، ولكنّه يظهرُ فى الخلايا المصبوغة المثبتة ، ونجده فى الخلايا الدائرية والعديدة الخلايا محيطًا بالنواة ، وفى الخلايا المستطيلة والمكعبة ، نجده فى أحد الجوانب غالبًا .

وليس هذا الجهاز صُلبًا ولكنه غَرَوِىٌّ القِوام ، وقد نجدهُ فى بعض الحالات على شكل حُبيبات صغيرة منتشرة ، ويتركب هذا الجهاز كالميتوكوندريا من بروتين وليبيد ، ويختص عملهما ببناء الخلية ، ويتغيران شكلًا ووضعًا فى الخلايا التى تفرز إفرازات خاصة ، ويرى (ليم وما) أنّ مادة الميتكوندريا تُستهلك فى تكوين إفرازات خاصة تُعطى زيموجن وتطلق الليبيد حُرًّا فى الخلية .

النَّواة : والنواة تُحاط بغشاء خاص ، وهى حُوَيصلية الشكل ، ومحتويات هذه الحويصلة تبدو كسائل متماثل يُسمّى كاريوبلازم ، وتحتوى النواة على جسم صغير يُسمّى بالنُّوَيَّة ، وفى نواة الخلية يمكن رؤيةُ شبكة متماسكة متصلة الأطراف ، وتقع النُّوية عند ملتقى الخيوط الشبكية فتثبتها مكانها ، ولكنها تغدو حرة طليقة فى الخلايا التى ليست فيها هذه الشبكة .

وللنُّواة عملٌ كبير فى الخلية خاص بتغذيتها ، وإفرازها ، وسائر وظائفها الكيمائية ، وفى النواة مادة خاصة تسمى كروماتين ، وهى الجزء المتخصب (الميال للون) فى الخلية .

ويحتوى كروماتين النواة على الحامض النووى المتحد بالبروتينات بِنِسَب خاصة مكوِّنًا النيوكليين والنيوكليوبروتين ، وتحتوى النواة كذلك على الليبيد وكمية كبيرة من الكلسيوم (الجير) .

وتُوجَدُ فى النواة كذلك شبكةٌ دقيقة تُسمَّى شبكةَ اللينين ، يقال : إنّها لا توجد إلَّا فى الخلية الميتة .

ولا تجد الكروماتين فى بعض الخلايا أثناء راحتها على شكل شبكة ، بل تجده على شكل قضبان صغيرة ، أو خيوط علىَ شكل شَلَّة أو خصلة تشاهد غالبًا عند ابتداء انقسام النواة .

تُسمّى هذه الخُصلة عند اتصالها ببعضها كروموزومات ، ويمكن عدها

فى الخلية بسهولة ، ويختلف عددُها فى الحيوان عنه فى النبات ، والعدد كذلك خاص بالنسبة لكلِّ خلية نوع من الأنواع .

ويبلغُ عددُ خيوط الكروموزومات فى الإنسان 48 (أى 24 زوجًا منها) فى كل خلية ، وفى الخلية المذكرِة يوجد كروموزوم واحد من هذه غير زوجى يُسمى كروموزوم الجنس ، ويقول البعض : إن كروموزوم الجنس يوجد كذلك مُثنى .

ووجد تاج كمب عام 1928م أنّ عدد الكروموزومات فى الخلية الجنينية الآدمية 48 ، تختلف فى الطول من 1 – 8 ميكرونات ، وتختلف فى السمك من نصف ميكرون إلى ميكرون واحد .

ووجد أن الكروموزومات مكونة من حبيبات صغيرة تُسمّى كروموميرز ، مرتبة فى صفوف مَثْنَى مَثْنَى ، أو فُرَادى فُرَادى ، وتتجمع الكروموزومات فى النواة لتكوّن كتلةً صُلْبة من الكروماتيين تحمل النوية فى حال وجودها ، ويمكن رؤية ذلك فى نواة الحيوان المنوى ، حينما يخترق غشاء البويضة ممثلًا خلية عادية الشكل .

ومن المقطوع به علميًا أنَّ الكروموزومات فى الحيوان المنوىّ والبويضة هى التى تحمل صفات المورِّث ، وتنْقلها إلى الذُّرِيَّة ، وتجد كلّ خلية من هذين تحمل نصفَ عدد الكروموزومات الأصلية ؛ فلذلك تجدها فى الرجل 24 ، وعندما يحصل تلقيحُ البُوَيضة لتكوين الجنين ، تجد فى هذا الأخير العددَ الأصلىَّ للكروموزمات ، وكلما انقسمت الخلية الملقحة بعد ذلك ، أعطت كل خلية ناتجة من الانقسام عدد الكروموزومات الأصلية ، حاملة صفات الوالدين لكل خلية من خلايا جسم النشء الناتج .

وتتكوَّن الكروموزومات من حُبيبات غير منظورة بالمجهر ، هى الحوامل للصفات التى تنقل إلى النسل ، والتى تتوقف عليها الوراثة .

النُّويَّة : والنوية جسم مستدير الشكل ، يوجد واحد أو اثنان منه فى الخلية الواحدة ، وهى نوعان يُمكن تمييزُهما بطريق الأصباغ ، فأحدهما

يصبغ بالأصباغ القاعدية ، ويُستهلك هذا النوع فى تكوين بعض مادَّة الكروموزومات أثناءَ انقسام الخلية .

والنوعُ الآخرُ يأخذ الأصباغَ الحامضية ، ويختفى هذا النوع كذلك أثناء انقسام الخلية ، ولكنّه لا يدخل فى الكروموزومات ، ويُسمّى **النوعُ الأوّلُ** كريوزومَ ، **والثانى** يُسمّى بلازموزوم .

ويُمكن رؤيةُ النُّوية وهى تتحرك فى الخلية الحية ، وتحتوى النويتان على حُبيبات خاصة تُسمّى نيوكليين ، ولا تختفى أثناءَ الانقسام .

من هذا يتضح معنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ [الإنسان : 2] أى من نطفة مركبة من الأخلاط التى ذكرناها ، وبجانب ذلك فإن (**أمشاج**) صفة للنطفة ، وقد قدمنا أن النطفة هى الحيوان المنوىّ ، وأثبتنا ذلك آنفًا ، فلا موضعَ إذًا لذكر ماء المرأة أو بُويضتها فى هذا الموضعِ من الآية الكريمة .

الرَّحِمُ :

قال تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ [المؤمنون : 13] **والقرار** : المستقر . والمرادُ : الرحمُ ، وسترى فيما يلى كيف سَمَّى الله تعالى الرحم بالقرار المكين ، وكيف جعله موطنًا للجنين ، وكيف هيأه لهذا الاستيطان . فلقد شاء الله تعالى أنْ يجعلَ من الذَّكَر والأُنثى وسيلةً لإيجاد بنى آدمَ وشاء أَنْ يمرَّ الإنسانُ بطور خاص من أطوار حياته الدنيا ، يكون فيه جنينًا ، ينمو فى مكان هادئ آمن ، يتناسب وحالته الثانيةَ ، فجعل للأنثى رحمًا وزوّده بكلّ وسائل الراحة والاطمئنان ، ووضعه فى أحسن مكان ، وأحاطه بأركان عظيمة ، وأربطة مِفْصَلية متينة حتى يُصبح بعيدًا عن جميع المؤثّرات الخارجية .

والرَّحِمُ يقعُ خلفَ المثانة وأمام المُستقيم ، وهو كيس عضلى كمثرى الشكل ، يبلغ طولهُ سبعة سنتيمترات ، وعرضه خمسة سنتيمترات ، وسمكه نحو سنتيمترين ونصف .

ويَنقسمُ الرحمُ إلى ثلاثة أقسام : أما **الأول** فيسمى بالقاع وهو الجزء العلوى منه ، ويتجه نحوَ الأمام ، وأما **الثانى** وهو جسم الرحم فله سطح محدب ، خاصة من الناحية الخلفية ، وهو ضيق من الجهة السُّفلية ، حيثُ يتصل بالجزء الثالث ، وهو العنق .

ويتكوّن جسمُ الرحم من نسيج عضلىّ غير إرادىّ سميك يمكن تقسيمهُ إلى ثلاث طبقات : فالطبقتان الخارجية والداخلية رقيقتان وبعض أليافهما مرتبة طوليًّا ، والبعض الآخر دائريًّا ، والطبقة الوسطى سميكة ، وأليافها تأخذ اتجاهات مختلفة ، وتحتوى هذه الطبقةُ على أكبر الأوعية الدموية ، ويمتدّ بعضُ ألياف الطبقة الداخلية إلى داخل أجزاء الغشاء المخاطىّ المبطّن للرَّحِم .

ويتكوّن هذا الأخيرُ من نسيج ضامٍّ يحتوى على عدد كبير من الخلايا ذات الشكل المِغْزَلىّ ، ويحده من الداخل فى بعض الأجزاء بَشَرَةٌ هُدْبية ، ويحتوى الغشاءُ المخاطىُّ على غُدد أسطوانية طويلة بسيطة الشكل ، تتخذ شكلًا منحنيًا معرجًا فى مرورها وسط هذا الغشاء ، وله إفراز قلوى خاص .

ويغطى الرَّحمَ من الخارج الغشاءُ البريتونى ، وهذا يمتدّ من الخلف حول القاع والجسم والجزء العنقى المطل على المهبل حتى يصل إلى التجويف المهبلىّ الخلفىّ .

وأما عُنقُ الرَّحم فيبلغ طولهُ نحوَ سنتيمترين ونصفٍ ، وجزؤه الأسفل بارز فى المهبل ، والعنق الظاهر مغطًّى كذلك بغشاء مخاطىّ وتفتح فيه قنوات كثيرة أكثر تعقيدًا من غدد الرحم ، تحدها من الداخل خلايا عمودية تفرز مادة مخاطية .

وبقرب العنق تُصبح البَشَرَةُ المخاطيةُ عديمةَ الأهداب ، وتتعدد طبقاتها عند حافته .

والغشاء المخاطى يحتوى على عدد كبير من الأوعية الدموية الكبيرة والأوعية اللمفاوية .

والرَّحمُ هو المكان المُعدّ لحفظ الجنين وهو مُهيأ بجميع وسائل التغذية ،

ومُحصَّن تحصينًا محكمًا ، ولقد جعل الله تعالى لحفظه صندوقًا عظيمًا متينًا هو الحوض .

والحوض عبارة عن حزام عظيم ، يقع معترضًا فى نهاية العمود الفقرى ، محمولًا على عظمتى الفخذين ، ويتركب من أربع عظام هى : العظمان اللذان لا اسمَ لهما ، والعجز ، والعصعص ، ويتركب كل من العظمين اللذين لا اسم لهما من الحرقفة ، والورك ، والعانة ، والعظم الأول أكبرها ، ويقع على الجانبين ، والثانى يتلو الحرقفة فى الحجم ، ويؤلف الجزء الخلفى من أرضية الحوض ، والعظم الثالث أصغرها ، ويكوّن مقدمة الحوض .

والعظامُ الأربعة الأولى تتصل ببعضها اتصالًا محكمًا ؛ فكلٌ من العظمين اللذين لا اسم لهما يتصل عند المفاصل العجزية الحرقفية ، ويتصل العجز بآخر عظمة قطنية عند المفصل العجزى القطنى ، ويتصل بالعظمين اللذين لا اسم لهما عند المفاصل العجزية الحرقفية ، وبالعصعص عند المِفْصَلِ العَجُزِىّ العُصْعُصِىّ والعصعص لا يتصل إلَّا بالعجز .

والمفاصل المذكورة صُلبة عادةً ، ولكن من حكمة الله تعالى أنها عند أواخر الحمل تلين أربطتها فتسمح بحركات بسيطة لها أهمية خاصة لا يُستهان بها ، ولا يُستغنى عنها وقتَ الولادة ، فالعَجُزُ يدور إلى الأمام والخلف ، كما لو كان محورُه هو المِفْصَل العجُزِىّ الحُرْقُفِىّ ، وعند الولادة عند نزول رأس الجنين يسقط الأخيرُ على أعلى العجُز ؛ فيدفعه إلى الخلف قليلًا ، وبمجرد نزول الرأس يرجع أعلى العجُز إلى مكانه الأول . وبعد ذلك يتحرك إلى الأمام قليلًا ، وتَسحب رأسُ الجنين القطع السفلى عند نزولها إلى الخلف ، ويستطيعُ العصعصُ هو الآخرُ التحرّكَ إلى الخلفِ على المفصل العجُزى العصعصى ، وبذلك تكبر دائرة الخروج الأمامية الخلفية بما يقرب من ثلاثة أرباع البوصة ، هذا بجانب ما يستطيعه عظم العانة من الانفصال عند ملتقاهما .

ولا يخفى أن المفاصلَ تربطها جميعًا أربطة خاصة ، متينة التركيب ، محكمة الوضع ، تجعل من عظام الحوض المختلفة صندوقًا محكمًا ذا أسقف وأرضية وجدران . ولا يفوتنى أنْ أَذْكُرَ أنّ هنالك الرباط العجُزىّ الوَرْكِيّ ، الذى هو

عبارة عن غشاء ليفىّ مفرطح ، يتم به التجويف الحوضى من كلا الجانبين .

وهكذا جهّز سبحانه وتعالى رحمَ المرأة بكافّة أسباب الراحة والوقاية ، وأعدّه لحفظ الجنين من أول نشأته من نطفة إلى أنْ يَلْفِظَهُ فى تاسع شهر قمرىّ من ابتداء تكوينه ، ولو شئتُ أنْ أذكر الوسائل التى أعدّها سبحانه وتعالى لتغذية الجنين ، وحفظ حياته لطال الشرح ، ولكنّنى أظنّ أننى بما ذكرت أعطيتُ القارئ فكرة عامة وافية ، وصورة دقيقة مصغرة لما عناه الخالق الكريم بقوله : ﴿ قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ [المرسلات : 21] قال تعالى : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾ [النجم : 32] .

طَوْرُ العَلَقَةِ

العلقة ومعناها :

قال تعالى : ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ [المؤمنون : 14] وأُريد أنْ أقفَ بجانب (ثم) لترى مثالًا من بلاغة القرآن الكريم ، ودقة بيانه فى وضع هذا الحرف موضعًا يؤدى به المعنى الطبىّ الصحيح الذى تشير إليه الآية الكريمة .

فإن (ثم) هى حرف العطف الوحيد الذى يستطيع أنْ يؤدى معنى هذا الطور من الانتقال فى تكوين الإنسان ، وهى تدلّ على الترتيب مع التراخى [1] بخلاف الواو مثلًا ، وبخلاف الفاء فى قوله : ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾ [المؤمنون : 14] كما سيأتى ، ولعلَّ القارئ اللبيبَ قد فهم سرَّ استعمال (ثم) فى خلق الإنسان من نطفة بعد خلقه من الطين فى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً ﴾ [المؤمنون : 13] لطول الفترة ما بين طور الخلق من الطين ، وخلق الإنسان من نطفة . تأمل قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم : 20] .

وكذلك ذكر الله تعالى : « ثم » بعد النطفة لطول الفترة بين الإنسان وهو

---

(1) انظر : « مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب » (1/ 117) .

نطفة فى خصية الرجل حتى يصبح علقة فى رحم المرأة كما سيأتى .

والعلقة : لفظ دقيق يبيّن ذلك الطورَ الذى يمُرَّ به الإنسانُ عند تلقيح الحيوان المنوىّ لِبُويضة الأنثى ، وليست العلقةُ دمًا متجمدًا كما قال جميع السادة المفسرين . **قال المفسرون** ذلك ونحا نحوهم المترجمون أمثال « سافارى » و « جورج سيل » و « رودول » وغيرهم . وكذلك فعل علماء اللغة [1] ، فقد جاء فى (المصباح المنير) عند الكلام عن العلقة **قوله** : والعلقة المنى ينتقل بعد طوره فيصير دمًا غليظًا متجمدًا ثم ينتقل طورًا آخر فيصير لحمًا وهو المضغة . والعلقة ليست دمًا متجمِّدًا ، وما سميت علقة إلَّا للعلاقة بين النطفة وبويضة الأنثى عند التلقيح .

يقال فى اللغة : أعلقت ظفرى بالشيء بالألف : أنشبته ، وعلقت الشيء بغيره وأعلقته بالتشديد والألف فتعلق ، وعلق الوحش بالحبالة علوقًا تعلق ، ومنه **قيل** : علق الخصم بخصمه وتعلق به ، وعلق الشوك بالثوب علقًا وتعلق به إذا أنشب به واستمسك [2] .

وهكذا يفعل الحيوان المنوى مع بُويضة الأُنثى ، فحين يندفع إلى جهاز المرأة التناسلى يقابل البويضة التامة النمو فيعلق وينشب بها ويستمسك ، وهذا هو تلقيح الرجل للمرأة ، أو إيصال الحيوان المنوى للرجل إلى بويضة الأنثى ليعلق بها ، وليصير علقة ، ولذلك **يقال فى اللغة** : علقت المرأة أى حبلت [3] .

بُوَيْضَةُ الأُنثى :

(أ) الإشارة إلى البويضة فى القرآن الكريم :

ولا يحسبنّ أحد أن الدين الإسلامىّ لم يذكر البويضة ، وما كان القرآن الكريم ليهملها وهى شَرْطٌ أساسىّ فى تكوين الجنين ، ولذلك ذكرها فى الموضع المناسب لها فى طور العلقة .

---

(1) هذا تعميم فقد ورد فى « المعجم الوسيط » تعريف دقيق للعلقة « والعلقة طور من أطوار الجنين » . **انظر** : « المعجم الوسيط » (ع . ل . ق)

(2) **انظر** : « المصباح المنير » (ع . ل . ق) . (3) **انظر** : « القاموس المحيط » (ع . ل . ق) .

وفى ذلك دليلٌ كافٍ على أن للمرأة نصيبًا فى تكوين الجنين ، وأن لها بويضة تقابل الحيوان المنوى للرجل .

(ب) تركيبُ المِبْيض :

وبُويضة الأُنثى عبارة عن خلية كُروية الشكل يبلغ قطرُها نحوَ الاثنين من العشرة من المليمترات ، وتنشأ فى مبيض المرأة وتفرز منه .

وأرانى قبلَ أنْ أشرحَ البويضة مضطرًّا إلى ذِكْرِ شيء عن التشريح الدقيق لمبيض المرأة ، حتى تسهل معرفةُ أصل البويضة معرفة كاملة .

فالمبيضُ : عضو صغير صُلْبٌ ، يتكوّن معظمهُ من نسيج أساسىّ ليفىّ ، وخلايا مِغْزَلية ، وتُنشر فى النسيج الأساسىّ حُويصلات صغيرة بأحجام مختلفة أصغرها يقع بجانب حافة المبيض ، ويليها الأكبر فى الحجم ، ولكنها كلما كبرت اتجهت نحو الحافة ثانيًا .

هذه الحويصلاتُ الصغيرةُ تُسمّى حويصلات جرافَ ، ولكلٍّ منها غلاف خارجىّ غنىّ بالأوعية الدموية ، يتكوّن من الخارج من نسيج ضام مستمد من النسيج الأساسىّ ، وفيه من الداخل طبقة تحتوى على خلايا كبيرة الحجم .

وتحتوى كلُّ حويصلةٍ على بُويضة (أو بويضتين أو أكثر) وبَشَرَةٍ مخاطية ، وفى الحويصلات الصغرى تجد البويضة صغيرة الحجم ، والبشَرة المخاطية مكوَّنة من طبقة واحدة ذات خلايا مسطحة ، فإذا كَبرَتْ الحويصلةُ عن ذلك ، غَدَتْ البشَرَةُ المخاطيةُ من طبقتين من الخلايا العمودية الشّكل ، وتجد فى الحويصلات الأكبر طبقات متعددة من الخلايا المذكورة ، ويبتدئ تجمعُ سائل خاص بين الطبقات فى مكان واحد .

ويزَيدُ مقدارُ السائل فى الحويصلات الكبيرة ، فتكبر فى الحجم شيئًا فشيئًا ، وتزيد صلابتها ، وينتهى الأمرُ ببروزها من المِبْيض وانفجارها وخروجِ السائل الحويصلى والبويضة منها ، ويُعْزَى انقباضُ الحويصلة وانفجارُها إلى وجودِ عضلات غير إرادية فى جدار حويصلات جراف ،

وأما الحويصلة الفارغة فتلتئم فى المِبْيض ، وتُسمّى بعدَ ذلك بالجسم الأصفر .

(ج) تركيبُ البُوَيضةِ :

والبويضةُ عبارة عن خلية كُروية الشكل ، يبلغُ قطرُها نحوَ الاثنين من العشرة من الملليمترات ، وتقع البويضة فى الغالب بَعيدةً عن مركز حويصلة جراف ، وتحاط كلٌّ بويضة تامة النمو - كما هو الحال فى حويصلات جراف الكبرى - بجدار شفاف سميك ، يحفظ من الداخل مادة السيتوبلازم الخاصة بالبويضة ، وتحتوى هذه المادة على بضعة محتويات خاصة ، كحبيبات دهنية ، وحبيبات مادة البيض الصفراء .

وتُوجد فى السيتوبلازم بجانب ذلك نواةُ البويضة ، وتُسمّى حويصلة النمو ، وهى مستديرة الشكل ، كبيرة الحجم نسبيًّا ، تحتوى على نُوية تسمّى نقطة النمو .

وتتخلّل جدارَ البويضة فتحاتٌ دقيقةٌ تمر فيها بعضُ خيوطٍ مستمدةٍ من خلايا البشرة المخاطية التى تجاورها مباشرة .

(د) قَنَاةُ فَالوبَ :

وهناك قناة تَصِلُ الرحمَ بالمبيض تُسمَّى قناةَ فالوبَ ، وتفتح بقرب المبيض وتتصل به بواسطة بروز فيها فيتصل واحد من هذه البروز أو اثنان منها بالمبيض مباشرةً اتصالًا خاصًّا ، ويحتوى جهاز الأُنثى على قناتين ينتهى كلٌّ منهما فى الرحم ، ويفتح فى الزاوية العليا من جسمه .

وقناةُ فالوبَ مبطَّنةٌ من الداخل بغشاء مخاطىّ غنىٌّ بالأوعية الدموية مغطىّ بطبقة من الخلايا ذات الأهداب ، وتختفى هذه الأهدابُ بعدَ سِنّ اليأس ، وهذه الطبقة فيها ثنيات طولية عديدة يتخللها كثير من الانخفاضات .

ويُغَطّى القناة من الخارج غشاءٌ مَصْلىّ تليه من الداخل طبقة من ألياف العضلات غير الإرادية تليها أليافٌ عضلية دائريةُ الشكلِ .

تَلْقِيحُ البُوَيْضَةِ :

التلقيحُ هو عُلوقُ الحيوانِ المنوىّ ببويضة الأُنثى التامة النمو ، ويتمُّ هذا التلقيحُ غالبًا فى الجزء الأعلى من قناةِ فالوبَ .

يخترقُ الحيوانُ غشاءَ البويضة الخارجىَّ قاطعًا هذا الغشاءَ بوساطة حافته الحادة التى فى قلنسوته ، وفى أثناء ذلك تجد البويضة كذلك تسعى إلى الحيوان ، ويتمثل هذا فى بروز جزء قمعى الشكل من مادة البويضة - داخل الغشاء الخارجى - ويسمّى هذا البروز القمعى (مخروط الجاذبية) ومكان هذا البروز هو الجزء الذى يقابل رأس الحيوان عند دخوله مباشرة .

يَستمسك بعد ذلك الرأسُ بهذا البروزِ ويدخلُ فيه ، وربما دخل جزء من الجسم كذلك ، وينفصل باق الحيوان مع الذيل والمؤخرة ، ولا تدخل هذه الأشياء فى التلقيح ، وقد تمتصها البويضة وتهضمها فتتلاشى فيها .

عند ذلك يتحول الجزء الذى يدخل من الحيوان فى البويضة إلى نواة ، تُسَمّى : (النواة الأولية المذكرة) وتكون هذه النواة مصحوبة بمخروطها وسنتروزومها ، وعندما يصبحُ تكوينُ النواة ظاهرًا تماماً ، تحف حولها حُبيبات السيتوبلازم المحيطة بها ، وتتركب حولها ، فتظهر كأنها خيوط من الأشعة منبعثة منها وكأنّ للنواة تأثيرًا كُليًّا عليها ، وبعد ذلك تأخذ النواةُ فى الاتجاه إلى داخل البويضة .

وعندما تصلُ النواةُ الأوليةُ المذكَّرةُ عندَ النواةِ الأوليةِ المؤنَّثة يبدو على الثانية نشاطٌ غيرُ عادىّ ، وتظهر عليها تغيراتٌ خاصة ، وتأخذُ فى التحرك لتلتقى بالنواة المذكَّرة .

وبعد ذلك تقفُ كلُّ نواة فى مقابل النواة الثانية ، ثم يندمجان جميعًا ليكونا نواة واحدة هى (النواة الأولى للانقسام) ، وهذه النواة يصحبها سنتروزومان يقف كلٌّ منهما فى مواجهة الآخر على الخط الاستوائى للنواة المحصورة بينهما .

وهذان السنتروزومان ناشئان من سنتروزوم النواة المذكرة الأولى ، الذى ينقسم عندما تندمج النواتان الأوليان .

تَوْضِيحُ مَعْنَى العَلَقَةِ :

قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [غافر : 67] .

وهذه الآيةُ الكريمةُ تُبَيِّنُ لنا أهمَّ هذه الأطوار فى خلق الإنسان ، و (ثم) فى هذه الآية الكريمة تُوحى إلينا معنًى دقيقًا يؤيِّد ما نرمى إليه من تفسير النطفة والعلقة ، فلقد ذكر الله تعالى التراب وهو أصل النشء ، ثم ذكر طورًا يبعد كثيرًا عن وقت الخلق من الطين ، وهو طور النطفة فى الرجل ، ثم ذكر العلقة ، وهو الطور الذى لا يتحقق إلَّا عندما يَقْرُبُ الذَّكَرُ الأنثى ، ولم يَذْكُرِ الله تعالى المضغة هنا ؛ لأنها تنشأ بعد العلقة مباشرةً فى الرحم ، كما سيأتى ، فلا تذكر فيها (ثم) بل تُذْكَرُ الفاءُ التى تدل على التعقيب بغير مُهلة كقوله تعالى : ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ﴾ [المؤمنون : 14] ، واستعمل الله تعالى (ثم) بعد هذه الآية ، فقال : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ [المؤمنون : 14] وهى كقوله : ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ [غافر : 67] وذكر (ثم) هنا لأن الخروج هو الانفصال عن الرحم ، وحياة الجنين فى الرحم مخالفة كل الاختلاف لحياته فى الخارج وهو طور مهم من أطوار الإنسان .

وأما قوله : ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ﴾ [غافر : 67] فإن طور البلوغ مخالف كل المخالفة لطور الطفولة ، ومثله قوله : ﴿ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ﴾ [غافر : 67] فحالة الشاب غير حالة الشيخ ، وهكذا ذكر الله تعالى أهم الأطوار الظاهرة فى خلق الإنسان .

ولو كان طورُ النطفة فى الرحم لقال جَلَّ شأنه : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ [المؤمنون : 12 - 14] لكنه قال : ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ ليبين أن النطفة فى

مكانٍ آخرَ غيرِ الرحم ، وأن هنالك فترةً كبيرةً تمر قبل أن يصلَ الحيوانُ المنويُّ إلى بُويضة الأُنثى ليلقِّحَها .

والطورُ الذى يُلَقِّحُ فيه الذَّكرُ الأُنثى هو طورُ الحملِ ، وهو طورٌ كبيرُ الأهمـية لا يمكن أن يَغْفُلَهُ الدِّينُ ، ولذلك قال تعـالى : ﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ [غافر : 67] وقال : ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ أى أن الحيوان المنوىّ علق بالبويضة واستمسك بها ، فعلقت المرأة أى حبلت كما قدّمنا .

وقوله تعالى : ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ [العلق : 2] يؤيد ذلك أيضًا ؛ لأن الإنسان يُخْلَقُ من اتحاد الحيوان المنوى مع بويضة الأُنثى ، أى يُخلق من البويضة الملقَّحة ، قال تعالى : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ [العلق : 1 ، 2] أى خلق الإنسان من طريق الزواج بين الرجل والمرأة ، وهو أهمُّ طور فى حياة الإنسان ، فاقتضى ذلك أن يقتصر الله تعالى على ذكره فى هذا المقام ، وهو أبلغُ تعبيرًا فى هذا الموضع ، وأكثرُ تِبْيانًا لخَلْقِ الإنسان بطريق التناسل - ويؤيد ما ذهبنا إليه كذلك قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ [فاطر : 11] أى زوّجكم ، وطور التزاوج هو طور العلقة ؛ لأن التزاوج هو عُلوق الحيوان المنوى بالبويضة ، تأمل قـوله تعـــالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ﴾ [فاطر : 11] فهنا يتضح لك معنى الزواج وهو الحملُ ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ ﴾ والحمل هو التلقيح ، وهو طَوْرُ العلقة .

بَلْ تأمَّلْ قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ [غافر : 67] وقارنْ بين هذه الآية والآية المشار إليها ، وهى : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ [فاطر : 11] ألا ترى أنك تستطيع أن تضع ﴿ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾ [غافر : 67] مكان ﴿ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ [فاطر : 11] بغير أن يختل المعنى أو يضطرب الكلام ؟

وأما قوله تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾ [القيامة : 36 - 39]

فيثبت كذلك ما ذهبنا إليه ، فإن قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً ﴾ يدل على أن النطفة تكون فى الرجل فى خصيتيه كما قدَّمنا ، ولا ينشأ منها الجنين مطلقًا إلَّا إذا وقع اتصال بين الرجل والمرأة ، وتصادف حصول التلقيح فعلًا ، هذا ما تَرْمِى إليه (ثُمَّ) فى هذا الموضع ، ونجد الفرق جليًّا بين استعمال هذا الحرف هنا واستعمال الفاء فى قوله جل شأنه : ﴿ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ [القيامة : 38] أى أنه بعد وجود العلقة يبدأ الانقسام المباشر للبويضة الملقحة بغير مُهْلَةٍ ، وفى مكان واحد هو الجهاز التناسلى للمرأة .

وأما الفاءُ فى قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾ [القيامة : 39] فتدل على أن الجنين يكون ذكرًا أو أُنثى أثناء تطوره فى الرحم قبل الوضع ، وتستعمل (ثم) بعد خروجه طفلًا كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ [غافر : 67] كما سبق ذكره .

قوله تعالى : ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ :

قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام : 98] .

وأرى فى هذه الآية الكريمة أنّ الله سبحانَه وتعالى خلق الإنسان من والديه بطريق التناسل ، وقوله : ﴿ مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ [النساء : 1] أى باعتبار أن الوالدين نفس واحدة ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم : 21] .

وأما قوله تعالى : ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ فأحد الجنسين مستقَرّ ، والآخر مستودَع ، أىْ أنّ أحدهما يكون مستقرًّا للنطفة التى ينشأ منها الإنسان ، والآخر مستودع لها ، وسُمِّى الذكّرُ مستقرًّا لأن النطفة تستقر فيه فى أُنْثَيَيْهِ ، وبطريق أدقّ من ذلك تكون الخِصية هى المستقرَّ ويكون الرحمُ هو المستودع ، فيكون معنى الآية الكريمة : أنّ الله تعالى هو الذى خلقنا ﴿ مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ أى من ذكر وأنثى متزاوجين ، فهما كنفس واحدة ، أحدهما تستقر فيه الحيوانات

المنوية فى أُنْثَيَيْهِ ، والآخرُ تَستودع فيه هذه الحيوانات بتلقيحها للبويضة فينشأ النسل .

بل أقولُ أبعدَ من ذلك : إنّ النفسَ الواحدةَ هى البويضة الملقَّحة ، فقوله : ﴿ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [الأنعام : 98] أىْ من بويضة ملقحة بالنطفة أى أنشأكم من علقة ، وهى نفس واحدة ، وقد بيّنا كيف تحمل النطفةُ صفات الأب وتحمل البويضةُ صفاتِ الأم، ويحمل كل منهما الصفات الجسمية والعقلية والنفسية للأب أو للأم ، فبالتلقيح والتزاوج بين الخليتين يحصل اندماجُ الصفات وتَوَزُّعُها بطريقة خاصة من حيثُ ينشأ الإنسان وهو حاملٌ لصفات الأب والأم من طَوْرِ العَلَقَةِ .

وقد يكونُ المستقرُّ هو كُلًّا من الأُنثيين والمبيضين ، والمستودع هو الرحم ، أو يكونُ المستقرُّ الأُنثيين بالتغليب ؛ لأنّ الظاهر أمامَ عامة الناس أنّ الإنسانَ هو الذى يتخيرُ لنطفته وينظرُ أين يضعُها ، وأن المرأةَ - أو الرحمَ - هو المستودَعُ .

فالآية الكريمة بذلك تتحمل كلَّ هذه المعانى ، وإننى - على ضوء ما بينتُ - لأفضل تفسير الآية الكريمة على هذا النحو . قال تعـالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِيَ أَنشَأَكُم ﴾ [الأنعام : 98] أىْ أنّ الله تعالى أنشأكم أيها الناس وخلقكم ﴿ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ أى من خلية واحدة حيّة ذاتِ حياة واحدة ونفس واحدة أى من علقة أى من بويضة ملقَّحة بالحيوان المنوى ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ ﴾ أى فتستقرون أول الأمر فى الأُنْثَيَيْنِ نُطفًا ، وقوله : ﴿ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ أى ثم تستودعون فى البويضة فتغدو بذلك البويضةُ مستودعًا لكم ، وذلك بواسطة تلقيحها بالنطفة فتصبح علقة .

وهذه الآيةُ الكريمةُ تَذْكُرُ طورَ العلقة فى صورة واضحة جلية وتصفها وصفًا دقيقًا ، **ودليل ذلك** :

أولًا : أنّ العلقة هى خلية واحدة ذاتُ نفس واحدة أو حياة واحدة تحتوى على صفاتِ الخليتين المتزاوجتين ، وهذا ثابت علميًّا ومشاهد عمليًّا ويفسر قوله تعالى : ﴿ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ .

ثانيًا : أنّ الخَلْقَ المباشرَ للإنسان هو من طورِ العلقَة ، فإنّ طور الطين قبل ذلك ، وبعيدٌ عنه ، وكذلك طور النطفة ، وقد بيَّنا هذا آنفًا ، قال تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ [العلق : 1 ، 2] ، وهذا كقوله جلَّ شأنه : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [الأنعام : 98] أى من علقة .

قال تعالى : ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ ﴾ أى وضحناها ، وذكرنا أطوار الخلق بصور مختلفة مرتبطة ببعضها ، فصلها الله تعالى : ﴿ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ أى يعلمون .

قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت : 43] .

قوله تعالى : ﴿ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾ :

قال تعالى : ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [الزمر : 6] .

قال السادةُ المفسرونَ : الظلماتُ الثلاثُ ، هى : البطن ، والرحم ، والمشيمة ، **وقال بعضهم** : الصُّلْب ، والرحم ، والبطن ، ولكننى أعتقد أنّ الظلماتِ الثلاثَ هى : الأُنثيان (الخصيتان) والمبيضان ، والرحم ، ولما كانت النطفةُ الملقَّحةُ أو البويضةُ المستقبلة للنطفة لا تخرج إلَّا من خصية واحدة أو من مبيض واحد ، ويندثر الباقى ، فتكون الظلماتُ الثلاثُ هى : الخصية ، والمبيض ، والرحم ، فالحيوان المنوى يكون فى خصية الرجل ، وتعتبر خصيته ظلمة ، وبويضة الأنثى تنشأ فى المبيض ، ويعتبر المبيض ظلمة ، فإذا اجتمعا ليكوّنا الجنين صارا إلى الرحم ليتم الخلق حتى الولادة ، فيعتبر بذلك الرحم الظلمة الثالثة ، ولقد شرحتُ هذه الظلمات شرحًا وافيًا فى هذا المبحث فلا أرى داعيًا إلى إعادة ذلك فى هذا المقام .

ولقد دعانى إلى هذا التفسير ما أراه من الارتباط الوثيق بين جميع آيات الكتاب الكريم التى تناولت خلق الإنسان وتطوراته ، وأظُنُّنى بيّنتُ تمامًا

فيما سبق كيف أنّ الله تعالى ذكر النطفة فى الرجل وعدّها أحدَ تطوراتِ الخلقِ ، وكيف ذكر البويضة فى الأنثى ، وأشار إليها إشارات صريحة ، وأرى أنه لا يمكننا إغفال الخصية ، وقد ذكر الله تعالى كما قلنا أنّ النطفة تنشأ فيها ، وعَدّ النطفةَ طورًا من تطورات الخلق ، فلذلك لزم أن تكون الظلمة الأولى هى التى يتكوَّن فيها هذا الطورُ ، وتكون بذلك الظلمة الثانية المبيض ، والرحم الظلمة الثالثة ، فقوله تعالى : ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ ﴾ [الزمر : 6] أى يخلقكم من طريق التزاوُج ، وتلقيح النطفة للبويضة ، ويتم هذا فى جهاز المرأة ، فتكونون بذلك فى طَوْر العلقة ، وهكذا يخلقكم الله تعالى فى بطون أمهاتكم ، وكذلك يخلقكم ﴿ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَـٰتٍ ثَلَـٰثٍ ﴾ [الزمر : 6] فتكونون أولًا نطفة فى آبائكم ، وتكونون كذلك فى ظلمة ثانية فى مبيض المرأة ؛ لأن للمرأة نصيبًا فى تكوين الجنين .

فالمبيض بذلك هو الظلمة الثالثة ، فإذا جاء طور العلقة نشأت فى الأحوال العادية فى رحم المرأة ، فيكون الرحم بذلك الظلمة الثالثة ، وتشبه هذه الآية قوله تعالى : ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ [الأنعام : 98] كما بيَّنا .

قوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾ [الطارق : 7] :

قال تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾ (*) [الطارق : 5 - 7] .

والماءُ الدافقُ هو السائل المنوىّ الذى يحتوى على الحيوانات المنويّةِ

(*) سئلت عن رأيى فى تفسير هذه الآية الكريمة عام 1354هـ (1936م) إذ أرسل إلىّ أحد الأفاضل بتونس خطابًا يقول فيه بعد الديباجة : والمراد تفسير الآية ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ [الطارق : 5] وقد خضنا فى هذه الآية ليالى رمضان ، وراجعنا بعض كتب التفسير فلم يشف منا الغليل ، والمائع المنوى كما هو مقرر علميًّا يتكون بالأنثيين ، والآية كأنها تحدد خروجه من بين الصلب والترائب ، وأنا على يقين أن جوابكم سيأتينا بحول الله كافيًا شافيًا ولكم الشكر سلفًا منا ومن تونس شقيقة بلادكم العزيزة ، والسلام من كاتبه مقدر خدماتكم حقَّ قَدْرِها الفقير إلى ربه يوسف المحجوب المترجم بالمجلس العربى بسوسة التونسية (الإمضاء) وذكر بعد ذلك ملحوظة فقال : كأن للصلب والترائب دورًا خاصًّا فى تكوين المائع المنوى مع أنه يصطنع فى الأنثيين ، ولماذا خص الله الصلب والترائب بالذكر دون أجزاء البدن الأخرى ؟ . (الإمضاء) . =

الحيةِ ، وسُمِّى دافقًا لأنه يُصَبُّ عند الملامسة بواسطةِ الانقباضات الخاصة التى تدفعُ بها القناةُ الناقلةُ والحويصلةُ المنويةُ هذا السائلَ المحتوى على الحيواناتِ الحية ، وهو قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴾ [القيامة : 37] .

ويقول القاموسُ المحيطُ[1] : دَفَقَهُ يَدْفُقُهُ وَيَدْفِقُهُ صَبَّهُ ، وهذا ما يجعل الماء الدافق خاصًّا بالذَّكَر وحده دون الأنثى ؛ إذ ليس للمرأة ماء يصب ويتدفق بشدة كماء الرجل ، بل إن ماء المرأة إفراز يسيل لمجرد تليين الجهاز التناسلى وترطيبه مثل سيلان اللعاب والعرق .

وبذلك يكون قوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾ [الطارق : 7] أىْ يخرج مِن بين صُلْب الرجل وترائبه ، ولا دخل هنا لصُلْب المرأة وترائبها مطلقًا كما قدَّمنا .

والصُّلْبُ هو السلسلة الفَقْرية من لدن الكاهل إلى العجُز ، والكاهل مقدَّم أعلى الظهر مما يلى العنق ، والعجز هو العصعص أى عظام الذنب ، والترائب هى عظام الصدر .

ولقد رأينا عند الكلام عن النطفة أنّها تتكوّن حقيقةً فى القنا المنوية فى الأُنثيين ، ولا تتكوّن فى الصلب ، ولا تتكوّن كذلك من الترائب ، فقوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾ ليس معناه أنه يخرج منهما ، ولكن معناه أنه يخرج بينهما ، أى يخرج من مكان يقع بينهما ، وهذا من عظيم أسرار الإسلام فى الطبّ ، **ولبيان ذلك أقول :**

إنّ أوّلَ ظهور الخِصية فى الجنين يبدأ كضخامة على طول السطح الأوسط (لحيدولف) وهو عبارة عن حدبة تتكون من تزايد قنوى ولف فى

= ولقد ذكرت هذا الخطاب مثالًا لتعطش المسلمين إلى العلم واهتمامهم بتفهم كتاب الله وعدم جمود عقولهم أو تقليدهم أو تسليمهم بما لا تقبله عقولهم وتمحيص الآراء ولو كانت من كبار المفسرين ، ولقد ذكرت الرد على هذا الاستفتاء بالعدد 22 من مجلة « هدى الإسلام » فى عامها الثانى الصادر فى 11 محرم سنة 1354هـ 3 أبريل سنة 1936م ، وإنى أنقل هنا ما كتبت لصلته بموضوع خلق الإنسان .

(1) انظر : « القاموس المحيط » : (دفق) .

العدد ، وهذه الضخامة تسمى (الغدد التناسلية) التى تتكون بنشاط البشرة المخاطية الذرية التى تختص بتكوين الأعضاء التناسلية فى الذَّكَر والأنثى .

ومكانُ الغدةِ التناسلية يكُون فى أول الأمر فى الفراغ البطنىّ على جانبَىْ المساريقا على الجهة الأمامية لجِسم ولف ، وكلما زاد حجم الغدة التناسلية والمحافظ فوق الكلى ، قَلَّ حجمُ جسم وُلف شيئًا فشيئًا ، فتحل محله الكُلْيَةُ الحقيقية ما عدا جزءًا صغيرًا من رأسه يدخل فى تركيب الأعضاء التناسلية ، وهذا المكان الذى تتكوَّن فيه الخصيتان يقع تمامًا بين الصلب والترائب ، حيث يبدأ تكوين الأعضاء التناسلية التى يتكون فيها السائل المنوى والحيوانات المنوية .

فالآيةُ الكريمةُ تُرشدنا بذلك إلى أصل تكوين الغدد التناسلية فى الإنسان وتدلنا على مكان وجودها الأَوَّلِىّ فيه ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ وليتأمل وليفكر وليبحث ﴿ مِمَّ خُلِقَ ﴾ أىْ من أىِّ شىء خلقه ربه ﴿ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾ أىْ من حيوان منوىّ يُمْنَى مع السائل المنوىّ ، ويَنْصَبُّ معه بشدّة ليصل إلى الجهاز الداخلىّ التناسلى للمرأة بتأثير الانقباضات الخاصة كما قدمنا ، والمرادُ به كما ذكرنا آنفًا ماءُ الرجل وحده ﴿ يَخْرُجُ ﴾ أى باعتبار نشأته الأولى وأصل وجوده فى الجنين ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ﴾ [الأنعام : 2] والخطاب لنسل آدم وليس النسلُ الحالىُّ طينًا ، ولكنّه من طين باعتبار ما كان فى الأصل ، **وكقولك** : كنت صديقًا للدكتور فلان رحمه الله ، وهو ليس بالدكتور بعد أن توفاه الله ، ولكنّ كلامَك صحيحٌ لغة ؛ لأنه دكتور باعتبار ما كان أثناء حياته ، وكذلك الإنسان يخرج باعتبار ما كان (مِن) أى من مكان يقع ﴿ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾ أى بين عظام السلسلة الفقرية وعظام الصدر .

وإنك لتجد خصيتى الجنين ، حوالى آخر الشهر الثانى لوجوده فى الرحم ، خلف الكلية ، مُغَلَّفتين بثنية من البريتون فى مكان يقع بين عظام السلسلة الفقرية والضلعين الحادى عشر والثانى عشر .

ولأمر ما تَتْرُكُ الغدةُ التناسليةُ موضعَها الأصليَّ ، وتَتَدَلَّى لتأخذَ مكانَها العاديَّ فى الصَّفَنِ « جلد الخصيتين » فى الشهر التاسع للحمل ، وأما فى نهاية الشهر الثالث فتجد الخصيتين على العضلة الحرقفية ، وفى الشهر السادس تجدهما فى الأربة « خن الوَرك » وفى الشهر الثامن تجدهما فى القناة الأربية حتى تأخذَ موضعَها المشارَ إليه .

وتقعُ الكُليتان فى المكان الصُّلْبِيّ « القطنى » من الجسم وتجدهما عن يمين الصلب ويساره بين الفقرة الظهرية الثانية عشرة ، والفقرة الثالثة الصلبية ، وخلفهما الضلع الثانى عشر والزوائد المستعرضة للفقرتين الثانيتين الصلبتين ، والكلية اليمنى تقع فى الغالب أسفل بقليل من اليسرى .

ولعلَّ هنالك صلةً متينةً بَيْنَ نشوءِ الغُدة التناسلية أعلى الكُليتين وبيْنَ نشوء المحافظ فوقَ الكُلى التى لها تأثير كبير على الناحية الجنسية .

والمحافظ فوقَ الكُلَى تتكوَّنُ من جزءين مهمين ، الجزء الخارجيّ ويُسمّى القشرة ، والجزء الداخليّ منها ويُسمّى اللبَّ ، وسأبرهن هنا على وجود العلاقة المتينة بين المحافظ بقسميها وبين الأعضاء التناسلية(*) ، وأرى أنْ أبيِّنَ هذه الصلة بشىء من التفصيل كما يلى :

الجزء الخارجيّ من المحافظ ويُسمّى القشرةَ ، وينشأ من الجسم « الوولفيّ » الذى تنبت منه أعضاءُ التناسل ، فالقشرةُ بذلك من أصل الميزودرم الذى تنشأ منه إيبيثليوما القنا المنوية ، والرحم وأعضاء الذَّكَر التناسلية ، وتدخل فى ذلك الخصيتان وقنواتهما ، وإيبيثليوما الحويصلة البروستاتية والمبايض وحويصلات جراف ، وقناة فالوب ، والرحم ، والجزء الأعلى من المهبل .

والقشرة لها إفرازٌ داخليٌّ له تأثير عظيم على الأعضاء التناسلية ويتبينُ ذلك إذا أُصيبت القشرةُ بالتضخم أو الأورام فى الأولاد ؛ إذ يصحب ذلك

(*) توجد كذلك غدتان فى الجسم لهما علاقة وثيقة بأعضاء التناسل هما : الغدة الدرقية ، وهى فى الجهة الأمامية من العنق فى أسفل الحنجرة ، والغدة النخامية وتقع فى السرج التركى أسفل الجمجمة ، وتحت المخ ، ويمكن الرجوع إلى تأثير إفرازهما فى كتب علم وظائف الأعضاء .

بدور النمو وتبكيره ، وازدياد فى تقدم الحالة الجنسية مع السمن المفرط والشذوذ فى توزيع الشعر ، فيبدو الولدُ الذى فى سنِّ عشر سنوات وكأنه فى سن الثامنة عشرة ، ليس فقط من حيثُ الطولُ والوزنُ ونموُّ العضلات ، بل كذلك فى عمق الصوت ، ونمو الشعر فى الشفة العليا والإبط والعانة ، وتقدُّم الأعضاء التناسلية ، ويصبحُ ناضجًا من هذه الناحية ، وتغدو ميولُه ميولَ شاب فى الثامنة عشرة ، لا فى سن العاشرة .

وقد وُجِدَتْ أولادٌ فى سنِّ السنتين ، ولهما أعضاءٌ تناسلية كاملة النمو .

وعندما يزيد إفراز هذا الجزء فى الكبار من الرجال يزيدون فى السمن المفرط ، وفى النساء يقف الحيض وينمو شعرهن نمو شعر الرجال .

وعند استئصال الأورام التى تصيب القشرة قد يرجع الشعر لحالته الطبيعية ، وتعود الأعضاء التناسلية لحالتها الطبيعية كذلك .

وعدمُ كفاية إفراز القشرة فى الرجال يُحْدِثُ عِنَّةً واسترخاءَ القضيبِ ، ونقصًا فى التغذية الجنسية .

ولُبّ المحَافظ فوق الكُلى تنشأ من الخلايا التى تنفصل من بقايا المجموعة أو العُقَدِ العصبيةِ السِّمبثاويَّةِ المجاورة والملاصقة لها ، فهى على ذلك من أصلٍ اكتودرميّ .

والمجموعةُ العصبيةُ السِّمبثاويَّةُ لها تأثيرٌ مهم على الأعضاء التناسلية ؛ إذ إنها تتفرع إلى ثلاث ضفائرَ : هى الضَّفِيرَةُ القلبية ، والبطنية ، والحوضية .

والضَّفيرة البطنية تنقسم إلى أخرى أقل منها ، كضَفيرة المحافظ فوقَ الكُلى ، وضفيرة الخصيتين (أو المبيضين) والحاجزيّة والطحاليّة والكبديّة والمعديّة اليسرى والكُلوية والمساريقية العليا ، والبطنيّة الأورطيّة والمساريقى الداخلية ، وضفيرة المحافظ فوق الكُلى تتكوّن من فروع الضَّفِيرة البطنية المُتَّخَذَةِ من العُقَدة البطنيّة ، ومن الأعصاب الحاجزية والحشوية ، وتتكوّن عقدةٌ عند نقطة اتصال العصب الأخيرة ، والضفيرة تُغذى المحافظ فوق الكُلى ، وتنتشر خاصةً فى جزئها اللُّبِّى (جراى ص 1150) .

وضَفيرةُ الخِصْيتين مُتَّخَذَةٌ من الضَّفيرة الكُلوية وتستقبل فروعًا من الضَّفيرة الأورطية ، وتصحب فى سريانها الشِّرْيان الخصوى إلى الخصيتين .

وفى المرأةِ تنشأُ الضَّفيرةُ المِبْيَضِّيةُ العصبيةُ من الضَّفيرةِ الكُلوية ، وتَصْحَبُ الشِّرْيان المبيضىّ ، وتُغذى المِبيضَ وجسمَ الرحم (جراى ص 1151) .

والضَّفِيرةُ الثالثةُ من ضفائر العُقد السمبثاوية هى الضَّفيرة الحوضية ، وتنقسمُ إلى ضَفائرَ أُخرى كالضَّفيرةِ الشَّرَجيَّةِ الوُسْطَى ، والضَّفِيرةِ المثانيةِ التى تُعطى فروعًا إلى الحُويصلات المنويّة والقنوات الناقلة للمَنِىّ ، والفروع التى تصْحب هذه القنواتِ الأخيرةَ تتحد عند الحبل المنوىّ مع الفروعِ التى تأتى من الضَّفيرة الخصويةِ .

والضَّفيرةُ الثالثةُ من الضَّفيرة الحوضية تُسمى الضَّفيرةَ البُرُوسْتَاتِيّةَ ، وتُعطى البروستاتا والحويصلةَ المنويةَ وأغشيةَ القضيب .

والضَّفيرةُ المهبليةُ تُعطى المهبلَ ، والرَّحمية تُعطى الرحمَ وتتحد مع الضَّفِيرة المِبيْضيّةِ (جراى ص 1152 ، 1153) .

تَتَبَيَّنُ لك بذلك الصلةُ المتينةُ بينَ هذه الأعضاء التى تنشأ فى مكان واحد ، فالأعضاءُ التناسليةُ التى تنشأ بين الصلب والترائب مع المحافظ فوق الكُلى والعُقد السّمبثاوية لها علاقة عظمى مع الأخيرين واتصال وثيق بينهما .

وهذه الحكمةُ هى التى تؤخذُ من معنى قوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾ أىْ إنَّ الإنسان خلق من مكان يقع بين الصلب والترائب .

★★★

طَوْرُ المُضْغَةِ

قال تعالى : ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾ [المؤمنون : 14] وأرى طورَ المُضغة فى حياة الجنين هو ذلِك الطور الذى تتحوّلُ فيه البويضةُ الملقَّحةُ إلى حالة تصبح فيها مكونة من ثلاث طبقات : الطبقة الخارجية ، والطبقة الوسطى ، والطبقة الداخلية .

وأرى فى هذا المقام أنْ أكتُبَ كلمة مختصرة عن تحوُّل العلقة إلى مضغة ، فإنه بمجرد اندماج خليتى الذَّكر والأنثى وتكوينهما خلية واحدة ، يبدأ النشاطُ على هذه الخلية الأخيرة فتنقسم انقسامًا ذاتيًا إلى خليتين متساويتى الحجم تقريبًا ، وتنقسم كل خلية من هاتين إلى خليتين أُخريين ، فتصير الخلية الأولى أربعَ خلايا تنقسم كلٌّ منها فتغدو ستة عشر ، وهكذا يسير الانقسام حتى يتجمعَ فى البويضة عددٌ كبير أو كتلة من الخلايا ، وتسمى البويضة فى هذه الحالة « التوتية » لوجه شبه بينها وبين ثمرة التوت .

يظهرُ بعدَ ذلك تحولٌ فى هذه الكتلة فتترتب إلى طبقتين : طبقةٍ خارجيةٍ وأخرى داخليةٍ ، والطبقةُ الخارجيةُ تُرَتِّبُ نفسَها على محور دائرة البويضة ، ولا تدخل فى تكوين الجنين بل تلعبُ دورًا مهمًّا فى توسع البويضة فى الغشاء المخاطى المبطن للرحم ، وفى تكوين المشيمة ، والطبقة الداخلية هى التى ينشأ منها الجنينُ ويتَّصل بالطبقة الخارجية عند بقعة واحدة تُسمى البقعة الجرثومية .

بعد ذلك تكوّن الطبقةُ الداخلية غشاء يُسمّى (بلاستودرم) أو (أدمة الجرثومة) لا يلبث أنْ ينقسم إلى ثلاث طبقات من الخلايا : طبقة خارجية وتُسمّى « اكتودرم » ، وطبقة داخلية تُسمى « اندودرم » ، وأخرى بينهما تُسمى « ميزودرم » .

وكلُّ طبقة من هذه الطبقات مستقلةٌ عن أختها تمامَ الاستقلال ، ولكلّ منها نسيجٌ خاص بذاته ، تنشأ منه أعضاء خاصة وأنسجة معينة من أنسجة الجنين ، وهذا الطور على ما نعتقد يُسمّى بالمضغة ، ولقد دعانا إلى تعيين هذا

الطور وتحديده قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الحج : 5] .

فقوله تعالى : ﴿ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ صفة للمضغة ، وتوضيح لحالتها وتحديد لها ، قال تعالى : ﴿ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ ﴾ أى لنبين لكم طور المضغة وغيرها .

فالمضغةُ مخلقةٌ لتكوّن الثلاث الطبقات التى تعتبر أصل الأعضاء المختلفة فى الجسم الإنسانى ، والمحتوية على عناصرها ، فهى نَواة أنسجة الجسم وأجزاء البدن .

فإنّه من « الأكتودرم » تنشأ معظم الأنسجة الإيبيثليومية فى الجسم الإنسانىّ ؛ وكذلك تنشأ منها أنسجةُ الجهاز العصبى ، والغُدّةُ الصَّنُوبريَّةُ ولُب المحافظ فوقَ الكُلى ، ومعظمُ الغدةِ النخاميةِ .

ومن « الإندودرم » تتكوّن إيبيثليـومات الجهاز الهضمى ماعدا الفم وجميع غدد هذا الجهاز ، وإيبيثليومات قناة استاخيو من الطَّبْلة إلى البُلْعُوم والتجويفُ الطبلىّ للأذن والحنجرة والقصبة الهوائية وشعبتاها ، والخلوات الهوائية والمثانة ، ومجرى بول المرأة ، وأعلى المهبل ، وأعلى مجرى بول الرجل وغدده .

وتنمو من « الإندوردم » كذلك الغُدة الدرقيةُ والبقايا الجرثوميةُ للغُدة التيموسية .

وتنمو من الميزوردم كلّ الأنسجة الضام ، وخلايا الدم والليمف ، والطِّحال والغُددُ الليمفاوية ، وقشرةُ المحافظ فوقَ الكُلى ، والفارشة الداخلية للقلب ، والأوعية الدموية والليمفاوية والأغشيةَ المصلية ، وجميع عضلات الجسم ، وإيبيثليومات القنوات الحاملة للبول ، والحالبان ، وحوض الكُليتين ، والأعضاء التناسلية للرجل والمرأة .

فبذلك تجد أن هذه الأغشية الثلاثَ هى بذور أعضاء الجسم المختلفة ،

وكأنى بالمضغة مخلقة لوجود هذه العناصر والأنسجة والأعضاء فى مادتها ، تنمو منها شيئًا فشيئًا ، وكأنى بالمضغة ساعتئذ كحبة الفول حين توضع فى الماء أو فى الأرض المبللة ، فتنفرج فلقتاها عن المنطقة الجنينية ، وعن ظهور غشاءين أحدهما يمثل الجذر ، والثانى يمثل الجذع والفروع والأوراق والثمار .

فحبةُ الفول لا تستطيع أنْ تُسميها شجرة ، ولكنّك تستطيع أن تُسميّها نباتًا ، أو بذرة منبتة ؛ لأنّ أجزاءها ابتدأت فى الوضوح ، فالبذرة بذلك مخلقة كالمضغة لوجود الأصول ، وغير مخلقة لعدم ظهورها ووضوحها .

ولقد دعانى إلى تسمية هذا الطور بالمضغة كذلك أنَّه أهم طور من أطوار الجنين فى الرحم بعد العلقة ، فالعلقة الحمل ، وتلقيح البويضة ، والمضغة ابتداء ظهور الأنسجة المختلفة للجسم الإنسانىّ .

ولا يَفُوتنى هنا أن أذْكُرَ حكمةَ وضع (ثُمَّ) هذا الموضعَ فى هذه الآية الكريمة بعد العلقة ، وهى للترتيب مع التراخى ، بدلًا من الفاء التى تدل على الترتيب مع التعقيب ؛ فذلك لأنّ الله تعالى حين ذكر أنّ المضغة مخلقة وغيرُ مخلقة ، أراد تفصيلها ووصفها ، وأراد عدَّها طورًا مهمًّا فى تطورات الخلق ، وأنّها لا تنشأ طفرةً واحدة ، بل أراد أنّ العلقة لا تبلغ طور المضغة المخلقة وغير المخلقة إلّا بعد أن تَعْتَرِيها تغيراتٌ عديدة ، وتطورات ثانوية مختلفة ، فلا يؤدى المعنى تمامًا إذا قلنا : ثم من علقة فمضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ، فقوله تعالى فى وصف المضغة : ﴿ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ [الحج : 5] وقوله تعالى بعدها : ﴿ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ يقتضى وضع (ثُمَّ) ، وأما إذا حُذف هذا الوصفُ فتستطيع وضع الفاء ، وهذا مَثَلٌ من أمثلة البلاغة فى القرآن الكريم ، والدقة فى التعبير فى آيات الكتاب الذى يقول تعالى عنه : ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود : 1] وقوله جلَّ شأنه ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت : 3] .

وهكذا لا نجدُ حرفًا فى القرآن الكريم ليس له معنى ، وهكذا نجد الحرفَ فى القرآن الكريم يشير إلى أدقِّ الأغراض وأسمى المعانى ، مما لا يدركُه من لم يتذوقْ كتاب الله ، ولم يتدبرْ ألفاظَه ومعانيه .

طَوْرُ العِظَامِ واللَّحْمِ

قال تعالى : ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ﴾ .
[المؤمنون : 14]

ولقد ثبت فعلًا فى علم الأجنّةِ أنّ العِظام تنشأ بعد طور المُضغة مباشرةً ، فإنّ « النوتوكورد » أو الحبل الأصلىّ الظهرىّ هو المحور الأوَّلىّ لعظام الجنين الذى تتكون حوله أجزاء العمود الفقرى ، ولمعرفة تفاصيل نشوء العظام ، يُرجع فى ذلك إلى كتب علم الأجنّة ، وما أردنا هنا إلّا إثباتَ معجزة القرآن الكريم الخالد فى تقريره نشوءَ العظام قبل اللحم .

تنشأُ عظامُ الجنين فلا تلبث أن تنشأ حولَها العضلاتُ واللحمُ ، وتظهر أجزاءُ الجسم الجنينىّ شيئًا فشيئًا حتى يصير خَلقًا آخر بولادته ، وهو قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون : 14] .

خَلْقُ الزَّوجين الذَّكَرِ والأُنْثى مِن نُطفة إذا تُمنَى

قال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾ [النجم : 45 ، 46] ولقد ثبتَ فى علم الطب أن بُويضة الأُنثى ليس لها دخل فى تكوين الذكر أو الأنثى ، بل إن الحيوان المنوى نفسه (النطفة) هو وحده الذى يُحدد نوع المولود سواء كان ذكرًا أو أُنثى .

★ ★ ★

المبحث الثالث
المَحِيضُ

قال تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة : 222] .

إنّ بلاغَة القرآن الكريم لا تزالُ من أكبر معجزاته الخالدة التى حيّرت عقول البلغاء ، وأفحمت جهابذةَ الخطباء ، وأعجزت فطاحلَ الكُتاب والشعراء . نزل القرآنُ الكريم والعرب لا يُشَقُّ لهم فى البلاغة غبارٌ ، فتحداهم بقوله : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ [البقرة : 23] فعجزوا ولجأوا إلى الطعن والنِّزال ، حين خَذَلهم المقالُ ، واستعانوا ببذاءة اللسان ، حين خانهم البيانُ ، فلزمتهم الحُجّة كما لزمتِ المصريين حين خذلت سحرةَ فرعونَ .

انظُرْ إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ [البقرة : 179] كيف أن اللفظ اليسير قد حوى المعنى الكبير ، ثم انظر إلى آية المحيض فى جزالة لفظها وسلامة تركيبها ، كم تحوى من معانٍ سامية تنظر إليها من أى جهة فتبهر بصرك ، وتأخذ عليك عقلك ، فلرَجُل اللغة فيها مقالات ، وللفقيه جولات ، وللطبيب فيها عجائبُ وحالاتٌ .

وأُقْسِمُ لا أَصِلُ إلى قوله : ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى ﴾ حتى أقفَ مشدوهًا وقد أسرّنى بديعُ النَّظْم ، وأخذنى جلالُ المعنى ، وسحرتنى دقةُ البيان . إن لفظ « أذى » هذا اللفظ المتواضع فى هذه الآية المعجِزة ، سوف نرى كم يَضُمُّ من المعانى ، وكم يحوى من الأغراض .

ووالله لقد حاولتُ أنْ أجدَ كلمةً تستطيع أنْ تقومَ مَقَامها أو تحملَ حملها فأعيانى البحثُ ، وسنرى كيف أن أمثال « إثم » و « نجس » و « ضرر » . . . إلخ لا تفسر المعنى الطبى الذى تؤديه كلمة (أذًى) ، وسنرى كيف أن هذه الكلمةَ فى هذه الآية درة من دررها ومعجزة من معجزاتها .

حُكْمُ المَحيض عندَ اليهودِ :

إنّ وطءَ الحائض يُحرّمه الدين الإسرائيلى [1] تحريمًا باتًا ، وقد جاء فى كتبهم : (ولا تقترب إلى امرأة فى نجاسة طمثها لتكشف عورتها) لاويين 17 - 19 ، بل لم يقتصر الحكم على تحريم الوطء فقط ، بل تعداه إلى الحكم على نجاسة كل ما تمسه الحائض من فراش أو متاع أو ثياب ، بل كل من لمسها من الناس يصير كذلك نجسًا ، ويحكم بنجاسة من لامس الحائض سبعة أيام يصير أثناءها منجسًا لكل من مسه من الأشياء أو مسه من الناس مما هو مفصل فى سفر اللاويين بالإصحاح الخامس عشر حيث يقول : (وإذا كانت امرأة لها سيل وكان سيلها دمًا فى لحمها فسبعة أيام تكون فى طمثها ، وكل من مسها يكون نجسًا ، وكل من مس فراشها يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجسًا إلى المساء ، وإن اضطجع معها رجل فكان طمثها عليه يكون نجسًا سبعة أيام ، وكلّ فرش يضطجع عليه يكون نجسًا) وهذا هو حُكْمُ الإسرائيليين .

حُكْمُه عندَ المَسيحيين :

أما المسيحيُّون فإنجيلُهم لا يَنْقُضُ هذا الحكمَ ، بل ينصُّ على أنّ جميعَ أحكام التوراة واجبٌ العملُ بها ، فقد جاء فى كتابهم أنّ عيسى عليه السلام صرّح بأنّه ما جاء لينقض الناموس الإسرائيلى بل ليكمله كما جاء فى إنجيلهم على لسان المسيح عليه السلام : (لا تظنوا أنّى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ما جئت لأنقض ، بل لأكمل ، فإنّى الحق أقول لكم إلى أنْ تزول السماء

---

(1) يقصد شريعة اليهود فالدين واحد هو الإسلام ، قال تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران : 85] ، ويقول عليه الصلاة والسلام : « الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد » . انظر : « صحيح البخارى » كتاب أحاديث الأنبياء ، رقم 3443 .

والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكمل الكلّ) (متى 5 - 17 ، 18) ، بالرغم من ذلك فإنّ المسيحيين عمومًا لا يرون فى وطء الحائض إثمًا .

حُرْمةُ وطءِ الحائضِ فى الإسلام :

وللخطورة التى تترتّبُ على وَطْءِ الحائضِ أجمعَ المسلمون على اعتباره محرَّمًا عملًا بالآية الشريفة ، ولو اعتقد مسلم حِلَّه كان كافرًا ، وإنّى أعلم أن كثيرًا من المسلمين لا يعرفون منِ الإسلام إلّا اسمه ، لا يتورَّعون عن مخالفة أوامر الله تعالى ، بل تراهم يقلّدون غير المسلمين تقليدًا أعمى لا سبيل فيه للتَّرَوِّى ، ولا للعقل فيه مجال ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ [النساء : 143] بل يريدون أن يحوروا كلام الله تعالى على حسب أهوائهم المضلَّة ، ويفسروه كما تَتَرَاءى لعقولهم الطائشةِ .

والحمد لله أن هذه الفئة القليلة هتك الله سترها ، ووقى المسلمين شرها ، وإلَّا فما حُكْمُك على دعىّ فى العلم يحسب أن نهايةَ المعرفة تركُ الدِّين ، والتنفيرُ من أحكامه ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [البقرة : 206] .

والإسلامُ يرى أنّ من باشرَ امرأتَهُ بالجماع فى المحيض وكان ناسيًا ، أو غير عالم بوجود الحيض ، لا إثمَ عليه ولا كفارةَ ، أما إذا كان متعمدًا فقد ارتكب معصية ، نصّ الشافعى على أنها كبيرة ووجبت عليه التوبة .

قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ [آل عمران : 135 ، 136] .

تَوْجيهُ النّهى للرجالِ :

والحكمةُ العظيمةُ فى توجيهه سبحانه وتعالى النَّهىَ إلى الذّكُور دون

الإناث ، مع اشتراكهما جميعًا فى كل ما يترتب على هذا الفعل من الوَيْلات وفيما يجره من الأذى والأهوال ، هى لما عُرف عن النساء من ضعف الإرادة وقلة الحيلة وخور العزيمة ، ولكون هذا الأمر يكاد يكونُ فى أيدى الرجال دونهن ، ولكون امتناع أحد الطرفين هو فى ذاته الامتثال إلى التحريم والإذعان له . والحكمة كلها فى تكليف أقوى الجنسين وأقدرهما على ضبط النفس ومقاومتها ، والتغلب على العاطفة الجنسية وعدم الاستسلام لها ، قال تعالى : ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ [النساء : 34] .

دَوْرَةُ الحَيْض :

وليس يَهُمُّنا هنا البحثُ فى فسيولوجيا الحيض ، بل يكفى أنْ نذكر أن الطمث حالة طبيعية تمر بدورتها بناتُ حواءَ عامة وهذه الدورة تقبل فى كل شهر قمرى ، حيث تستغرق عادة من ثلاثة أيام إلى أربعة عشر يومًا . ويبتدئ الحيض من السنة الثالثة عشرة إلى الرابعة عشرة من سِنِىّ الحياة ، وذلك فى بلادنا المعتدلة الحرارة ، ويستمر الحال هكذا مدة ثلاثين سنة إلى خمس وثلاثين ، ومعنى ذلك أن حياة المرأة التناسلية تنتهى حين تبلغ الأنثى سن الخامسة والأربعين أو الخمسين .

آلامُ الحَيْض :

ودورةُ الحيض رَغمَ كونها طبيعيةً ، فإنها تسبب للنساء آلامًا شتى فإنهن يجدن عادة زمن الحيض انحرافًا فى مزاجهن ، ويشعرن بتعب عام فى أجسامهن ، ويقاسين فى بعض الأحيان آلامًا شديدة فى أصلابهن ، ويعانين حدة فى طبعهن ، إلى غير ذلك من الآلام التى تعتبر فى ذاتها أعراضًا للطمث ، والطمث رغم أننا لا نستطيع أن نسميه مرضًا بالاصطلاح العلمى ، فإنه حالة لا تقلّ عن المرض خطورة من حيث الآلام التى قد تحدثها ، والضعف الجسمانى الذى يترتب عليها ، والأمراض التى تكون الأنثى أثناءها عُرضة لها ، وهذه الحالة أشبه بالحمل ، قال تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾ [لقمان : 14] أى ضعفًا على ضعف كلما كَبِرَ حجمُ

الجنين ، ولكن الحيض فوقَ ما يسببه من الضعف يسبب للأنثى متاعب قد تبلغ حدًّا لا يطاق ، وآلامًا لا تحتمل ، خلاف ما تتعرض له من المضاعفات التى سنذكر أمثلة لها .

كثيرًا ما تتضاعفُ أعراضُ الحيض السالفةُ الذكرِ ، وتشتد وطأتُها حتى تعانى منها المرأة آلامًا مبرحة ، وتعبًا شديدًا ، يزيد فى أيامه الأولى ، وقد تشعر الحائض بمغص شديد تصحبه عادة أعراض « هستيرية » قد تنتهى بالإغماء ، وإنى أشير إلى هذه الحالة ؛ لأنَّ المرأة هى المخلوقُ الوحيد الذى يقاسى كل هذا العناء ، وينوء وحدَه تحت أهوال هذا العبء ، ولعلَّ عُسْرَ الطمث أكثر الأمراض شيوعًا بين بنات حواء وأشدها ملازمة لهن ، ولعل الواجب يقتضى اعتزال الحائض لما تعانيه وتكتمه أو تبديه مما بينت من الآلامِ هَيِّنِها وشديدِها ، هذا الأمر هو بعض ما حَوَتْهُ كلمةُ « أذى » من المعانىَ المتشعبة ، بل هناك قذارةُ الدم ورداءة الموضع مما يدعو الرجل المهذَّب أنْ يكون عفيفًا لا يستعبده هواه ولا تُذِلُّه نفسهُ .

عُرْضَةُ الحائضِ للأمراضِ :

إنّ الجهاز التناسلىّ للمرأة هو فى الواقع أهم أعضائها ، وإنّنا نستطيع أن نقرر أنّ الحالة الطبيعية لها هى الحمل والرضاع ، والحيض يمتنع أثناء هذين الزمنين لاحتياج الجسم إلى المدَّخر من المواد الغذائية ، وفيما عدا ذلك يأتى الطَّمْثُ حتى يتوازنَ نظام الوارد والمنصرف ، فإذا حصل أىّ خلل فى الجهاز التناسلى كالالتهابات مثلًا اختلفت دورة الحيض ، وترتب على ذلك عُسْرُ الطمث وهو ما أشرنا إليه ، وسنرى فيما يلى كيف أنّ الوطءَ فى الحيض من الوسائل القوية فى إحداثه .

إنّ المرأةَ أيامَ الحيضِ معرّضةٌ لكثير من العلل التى تؤثر تأثيرًا ليس قاصرًا علىِ صحتها العامة فقط بل على حياتها التناسلية ، ولا يفوتنى أنْ أذكر أنّ اضطرابات الحيض ، أو البرد أثناء دورة الطمث ، أو الإفراط فى الشهوات لَمِنْ أقوى الأسباب المهيِّئةِ لالتهابات المِبيض التى تكون أقربَ نتيجةٍ

مباشرةٍ لها هى العقمُ ، ولو علمت بالأمراض الخطِرة التى تتعرض لها الأنثى من الوطء فى الحيض لرحمت نفسك ورحمتها ، ولأمنت شرًّا يُصيبك ويُصيبها ، ولعلَّ مباشرة المرأة بالجماع أثناء الطمث من أكبر الكبائر ؛ لأنَّ الضرر لو كان عائدًا على الرجل وحده لهان الأمر **ولقلنا** : أحمق يريد بنفسه ضررًا ، ولكنّها هى نَفْسُها التى سوف تُقاسِى الألَمَ الأكبرَ ، وتُعانى العذابَ الطويلَ ، ولا يغيب عن البال أنّ الضرر لا يقتصر على الرجل والمرأة وحدهما ، بل هو على الهيئة الاجتماعية أشدُّ ويلًا وأعظمُ مصيبةً ، فحسبُك أنه يسبب قلة النسل حتى إذا ما فشا بين الناس قطعه بالكلية ، وعندها تكون الطامةُ الكبرى على المجتمع الإنسانى .

الوَسَطُ المِهْبَلِيُّ وتَغيُّرُهُ بالحيضِ :

إنّه فى الأحوال العاديةِ أثناءَ الصحة يفرزُ المهبلُ إفرازًا خاصًّا لتليينه ، وهذا الإفراز حمضى فى تفاعله ، وسبب ذلك يرجع إلى احتوائه على حامِض اللبنيك ، ويحتوى هذا الإفراز كذلك على جراثيمَ باسليةٍ عديدةٍ تُسمّى « باسلات المهبل » وبجانب ذلك يعيشُ نوعٌ من الكائنات الحية الفطرية لا يسبب مرضًا ، ويُسمّى هذا الفطرُ « مونيليا كانديدا » ، وهذا الأخير لا يُمكنه التكاثرُ مطلقًا إلّا فى وجودِ باسلات المِهْبَلِ .

ومما هو جدير بالذكر أن هذا الإفرازَ بما يحتويه يمنعُ نموَّ الجراثيمِ الرِّمِّيَّةِ والصديديَّةِ .

وإذا تغيَّرَ هـذا الإفرازُ وأصبح قلويًا أو متعادلًا انعدمت فيه باسلاتُ المهبل والمونيليا جميعًا ، وحَلَّت محلَّهما جراثيمُ أخرى فتاكةٌ كالجراثيم العفنة والإستافيلوككس (مكروبات البذور العنبية) والإستربتوككس (البذور السبيحة) وفى بعض الحالات الجونوككس ، وكل هذه جراثيم فتاكةٌ تُحدث آفاتٍ مِهْبلية ورَحِميّة ، بل قد يمتد ضررُها إلىَ جميعِ الجهاز التناسلىّ .

ولكى نُقَرِّبَ إلى الأذهان ماهيةَ هذه الجراثيم نضرب مثلًا بالإستربتوككس ، وهو جُرثومة مستديرةُ الشكلِ أو بيضيّة ، يبلغ طولُها

من سبعة من العشْرة من الميكرونات إلى ميكرون واحد ، وتتصل هذه الجراثيم بعضها ببعض على هيئة سلاسلَ مختلفةِ الطولِ ، وهذه الجراثيمُ تتحمل الحرارة القوية حتى درجة 54 سنتجراد ، والإستربتوككس هو العاملُ المعفِّنُ فى بعض الالتهابات البوقية كالعفن النفاسى مثلًا حيثُ وُجِدَ فى القيح بين الخلايا البشرية ، ولقد وجد أنّ الإستافيلوككس يعمل عمل الإستربتوككس فى هذه الحالةِ ، ولقد وُجِدَ معه كثيرًا ، ولو أنّ وجودَه فى القيح يُعَدُّ نادرًا .

ولقد عَثرَ كلٌّ من « شيفر » و« منجه » على الإستربتوككس فى المبيض مسببًا التهابًا مِبيضيًّا حادًّا ، ومما هو جدير بالذِّكر أنّ قيحَ الالتهابات المبيضيّة المتقيحة لا يحتوى إلّا على هذه الجراثيم .

إنَّ الإفرازَ المِهبلى العادىَّ له فعلُ مُطَهِّرٍ شديدِ المفعولِ ، وهذا الفعلُ يعودُ إلى وجود حامضِ اللبنيك الذى تُنتجه الباسلاتُ المِهبلية فتكُون جميعُ أنواع الالتهابات ناجمةً عن هجوم البكتريا وإصابتها للمبهل ، والأسبابُ المُهيئة لهذه الالتهابات هى أيةُ حالة تؤثر فى الإفراز فتجعله قلويًّا أو متعادلًا ، والحالات التى تحدث ذلك أهمها وجود الدم الذى يحول الوسَطَ الحامِضىَّ إلى القلوية أو التعادل ، ووجود الدم يَحْدُثُ طَبيعيًّا أثناء الحيض .

ويدعو كذلك إلى تحويل الوسَط الحامضىّ إلى القلوى أىُّ مهيج آلىّ للغشاء المخاطىّ كوجود أشياء غريقة فى المهبل أو الوطء أثناء الطمث .

أَذَى وَطْء المرأةِ أثناءَ الحيضِ :

ن هنا يتضحُ لك أنّ الحيضَ والوطءَ أثناءه هو أهمُّ الأسبابِ المُهيئة لالتهاب المهبل ، وهذا أكثرُ أنواع التهاب المهبل شيوعًا ، وفيه تكبر البابلى ، وتأخذ فى الازدياد فى الحجم حتى ينتهى الأمر بتلف الغشاء المخاطى لها ، وينجم عن ذلك نموُّ نتوءاتٍ على جميع سطح المهبل ، وعند هذه الحالةِ يُسمّى الالتهابُ اسمًا خاصًّا ، وهذه الالتهاباتُ تُحْدِثُ آلامًا شديدةً فى الحوض مع الشعور بثقل فيه ، وفى الوقت نفسِه يظهر رشحٌ وترتفعُ درجةُ حرارة الأعضاء التناسلية ، ويَحْتَقِنُ الغشاءُ المخاطىُّ ، وفى الأحوالِ الحادَّةِ تجدُ المصابةُ آلامًا

مُبَرِّحَةٌ ، وتعانى ورمًا شديدًا ، ويلتهب الجهازُ التناسليُّ ويحدثُ رشحٌ مِدِّيٌّ شديدٌ ، وترتفعُ درجةُ الحرارةِ وتزدادُ ضرباتُ القلبِ وتظهرُ أعراضٌ أخرى كثيرةٌ ناشئة عن امتصاص الجسم لموادَّ سامةٍ .

وأريدُ أن ألفتَ النظر إلى مرضٍ غايةٍ فى الخطورة ينشأُ عن الالتهاب المِهبلىّ ، هذا المرض يسميه الطب (فجينسمص) ، ويكفى أن تعرف أنه يسبب العقم .

ولا شكَّ أن الالتهابَ المِهبلى هو من أكبر العوامل المسبِّبة للالتهاب الذى يصيبُ الغشاءَ المخاطىَّ للمثانة ، فيظهرُ فيها التهابٌ شديدٌ ، وتمتاز إذ ذاك بصلابتها وتشعرُ المريضةُ بالميل إلى التبول مع قلة ما يَنْزِلُ منه ، ويصبحُ البولُ شديدَ الكُدْرَةِ مصحوبًا بقيح ومِدَّة وبعض الزُّلَال ، وفى الأحوال الحادّة جدًّا يكون مصحوبًا بدماءٍ ، وعندَ فحص البَوْل بالمجهر تجدُ فيه كثيرًا من البكتريا ، وفى الأحوال المزمنة تشاهدُ تقرُّحات فى الغشاء المخاطىّ للمَثانة .

إنّ الجِماعَ هو من وسائل حملِ البكتريا إلى داخل المِهبل ، وهذا الأمرُ لم يُعْرَفْ فى الطبّ إلَّا حديثًا ، وقد علمنا كيف أنّ الوسَط المِهبلىّ أثناءَ الحيض جَدُّ صالح لنموها ، فالجراثيمُ الصديديّةُ التى توجد فى الالتهابات الحادّة المختلفة ، وفى أحوال التقيُّح والتى تكون مصحوبةً دائمًا بالمِدّة لا تعيش مُطلقًا إلا فى الوسط القلوىّ ، ولقد وُجِدَ بالتجارِب أنّك إذا أدخلت بعضَ أنواعِ هذه الجراثيمِ فى المِهبل السليم لا تلبثُ أن تموتَ فى ساعاتٍ قليلةٍ .

وأنواعُ البكتريا التى يُنتظرُ أن تُصيبَ المِهبل هى :

الجونوككس ، الإستافيلوككس ، الإستربتوككس ، الباسلس كلاى كميونس ، وأنواع مختلفة من الدبلوككس والبكتريا السابروفيتك ، باسلات الدفتريد .

وهناكَ كذلك أصنافٌ مختلفةٌ من الفِطْرِ تُصيبُ المِهبل وتسبب مرضًا يُسمَّى (ميكونك فجينيتس) ، وأهمُّ أنواعِ هذه الفطرياتِ هى أونيديم البيكاتز ولبتوثركس فجينالز .

وأريدُ أنْ أقولَ هنا : إن الحيضَ والوطء أثناءه هو من أهم الأسباب المُهيئة لتعفُّنِ الرحم ، الذى فضلًا عن أنه يسبب العقمَ ، فهو من أشدّ الأمراض إيلامًا للمرأة حيث تقاسى منه آلامًا فى الحوض لا تطاق ، فضلًا عن ارتفاع درجة الحرارة والمضاعفات الأخرى الخطِرة التى تكُون نتيجة ذلك التعفنِ ، ولعلَّ أهمَّها إصابة مُلْحَقَات الرحم .

مَنابعُ العَدْوَى :

والرجلُ إما أنْ يكونَ هو الناقلَ للعدْوى إلى الحائضِ ، وهو الأكثرُ وقوعًا ، ثم يظهر المرضُ لوجود الوسَطِ الصالح لنمو الجراثيم المذكورة ، أو تصلُ هى إليه من الحائض حينَ تكونُ العَدْوَى ذاتيةً ، وذلك لِوُجُودِ بَكتريا مرضيّة فى المهبل والرحم السليمين فى حالة خُمول ، وهذا الخمولُ لا يلبث أن يتحوّلَ إلى نشاطٍ إذا وُجِدَ الوَسَطُ الصالحُ لنموِّ الجراثيم وتكاثرِها ، وكلُّ ذلك متوفِّر طبعًا أثناءَ الحيض من حيث يُصابُ الرجلُ .

ومنابعُ العَدْوى كثيرةٌ بالرغم من أنّ بعضَ الناس قد يَظُنّ خلافَ ذلك ، وتلك المنابعُ تشملُ الفتحة التناسلية وجميعَ الأعضاء التى تَحِفُّ بها كالاسْتِ والعجان ، وذلك سببه إفراز العرق والدهن من غدد كُلٍّ منها ، وهو ما يؤدى إلى تجمع الجراثيم وامتدادها وسهولة غزوها للأعضاء التناسلية ، أما الأوساطُ الآلَيَةُ ، فَأَوَّلُها الجماعُ ، ثم تأتى بعدَه الملابسُ والمناشفُ وغيرها ، بل الهواءُ والغبارُ وكلُّ ما ذهب مذهبَهما وسائلُ لإيصالِ الجراثيم .

الأذى الذى يُصِيبُ الرَّجلَ :

من ذلك يتضحُ جليًّا أنّ المِهبلَ أثناءَ المحيض عُرْضَةٌ لكل ما ذكرتُ من الجراثيم المُعْدِيَةِ التى تُصيب الرجلَ فتحدث عنده التهاباتٍ مختلفةً فى أعضائه التناسلية ، إذ تمتد الجراثيمُ إلى داخل القناة البولية ، بل قد تُصيب المثانةَ والحالبينِ ، بل قد يمتد الالتهابُ حتى يصيبَ غدة كوبر والبروستاتا والحويصلتين المنويتين والخِصيتين والبَرْبَخ .

إنّ الجِماعَ فى المحيض يُنذر الرجل بخطرٍ داهم ، هو فى غنى عنه وعن مُضاعفاته ، لو عفَّتْ نفسُه وَوَعى أمرَ ربه ، فليّست إصابةُ القناة البولية بالأمر الهين ، أو الخَطَبِ اليسير ، بل هذه الإصابة هى التى تجرُّ عليه ما لا طاقة له به من الآلام والمضاعفات ، إذا ما ولجت هذه القناةَ أحدثت التهابًا شديدًا ، ويتعذَّر معه التبولُ الذى يُحدث فى بعض الأحيان آلامًا لا تُطاق ، ومتاعبَ لا تُحتمل ، وهذا الالتهابُ يصحبه عادةً إفرازٌ مِدِّىٌّ شديدٌ ، يلَوث عند اشتداد الحالة بالدماء ، ولا يخفى أنّ ذلك يكُون مصحوبًا كذلك بأعراض عامة مختلفة فى جميع أجزاء الجسم ، كالحُمّى والقُشَعْرِيرَةِ ، وذلك بجانب ما يطرأ من الضعف العام والانحطاط فى جميع الأعضاء ، أما إذا امتدّ الالتهابُ إلى المجرى الخلفىّ ، فهناك تكونُ الطامةُ الكبرى حيث يكثر القيح الذى تتخلله خيوطُ من الدماء ، ويَصْعُبُ التبولُ ، وتتضاعفُ مع ذلك الآلامُ ، ويشتدّ الضعفُ ، وتقلُّ الشهيةُ للطعام ، ويسيرُ هذا الحالُ بجانب الحمى ، وسرعة ضربات القلب وإجهاده . . . إلخ ، ولأسباب شتى يُزْمِنُ المرضُ ، وتصحبُه مضاعفاتٌ عامة فى غاية الحِدّة والخطورة ، فمن ذلك التهابُ الحَشَفَةِ والقُلْفَةِ ، مما قد يؤدى إلى حدوث الغنغرينة فيهما ، وذلك يكُونُ خاصةً فى حالةِ الانكماشِ أو الاختناقِ ، مما يَدْعُو إلى وجوب القيام بعملية البتر ، حتى لا يتسمم سائرُ البدنِ .

وإذا علِمْتَ أن مَجْرى البول ملتصق الجدران حتى أنه لا يظهر بمظهر القناة إلّا إذا سَرَت فيه أجسام غريبة كالبول مثلًا ، إذا علمت ذلك سهلت عليك معرفةُ كيفية امتداد الجراثيم المرضية إلى سائر الجهاز التناسلىّ .

وفى المجرى البولىّ تُوجَد فتحتان لقناتَىْ غُدّة (كوبر) من حيثُ تصابُ الغدة المذكورة ، فَتَحْدُثُ الآلامُ الشديدةُ سواء كان ذلك عند التبول أو التبرز ، ويُحِسّ المصابُ بألم كبير عند العجان وهو الموضع الذى بين الخِصيتين والشَّرَج ، وقد ينتهى الأمرُ بتقرُّح الغُدة وامتلائها بالقيح .

وتُوجدُ فتحاتٌ كثيرةٌ لغُدد البروستاتا فى الجزء البروستاتى من القناة البولية ، وعند إصابة هذه الغُدد تتشَّنجُ المثانةُ ، ويختل فعلها فتشتد الآلامُ ،

ويصيرُ البولُ مصحوبًا بِمدَّة ودماء ، وقد ينتهى الأمرُ بتقيح البروستاتا مما يستدعى تدخلَ الجرّاح ، وهذه العمليةُ من الخطورة بمكان ، ولا يخفى أن حالة المريض إذ ذاك يُرثى لها وتَعْتَرِيه الحمّى ، وعند ذلك يختلُّ نظامُ القلب .

وعند إصابة الحُويصلتين المنويتين يشتدّ الألم فى العجان ، ويتضاعف هذا الألمُ عند التبول أو التغوط كما يَحْدُثُ نفسُ الأمر عند المشى أو عند مجرد الجلوسِ .

وعند امتداد الإصابة إلى البربخ والخِصيتين يُعانى المصابُ آلامًا متشعبةً ، إذا قد يُصاب البربخ بالورم حتى يبلغ حجمُه حجمَ بيضة الدجاجة ، وقد ينسدُّ الحبل المنوىُّ ، وقَدْ يستمر انسداده مدى الحياة ، وفى هذه الحالة يتألم المريض عند الوقوف ، وقد تعتريه نوباتٌ هستيرية . كل هذه الحالات لا ينجو من إحداها من ركب رأسه وأتى هذا العمل الشائن الذى حكم الشرع بضرره وخطورته ، وحَذّر من وَيْلاته ومصائبه ، ونهى عن إلقاء النفس بينَ مخالبه .

ولقد عَرَفَ الطب هذا الخطرَ الداهم للبشر ، واهتدى إلى أصل أمراضه وعلله ، وقد أشرت إلى ذلك إشارة أظن أنها كافية لإعطاء المرء فكرة عامة صحيحة عن مَبلغ الأذى الذى ينجُم عن الوطء فى المحيض .

ليس عدمُ إصابة رجل وطئ امرأته مرةً وهى حائضٌ دليلًا على عدم وُجود الأذى ، والعاقل هو الذى يتجنّب الشيء الذى يتحتم وصول الضرر إليه منه ، ولكنّ كثيرًا مِن الناس لِضَعْفِ عقولهم واستهتارهم لا يبالون بالضرر حتى يصيبهم ﴿ وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف : 146] وكيف يتعامى الإنسانُ عن آيات ربه ويتغافل عنها ، ولقد نبهه إلى سبيل الأمراض والعلل ، وحذّره من الوقوع فى حبائل الرذيلة والفساد ، وأمره بالمحافظة على جسمه ، وحثه على تهذيب نفسه وتطهيرها من أدران القبائح والمساوئ حتى يُصبحَ رجلًا كاملًا صحيح الجسم والنفس ، سعيدًا فى الدنيا وسعيدًا فى الآخرة ، وهل ترى السعادة فى الدنيا غير سلامة الجسم وطهارة الروح وصفاء النفس ، الأمر الذى يدعو إليه الدِّينُ

الإسلاميُّ ، قال تعالى : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [النساء : 134] .

إنّ الالتهاب البسيطَ فى القناة البولية هو الذى يُسبب كُلَّ هذه المضاعفات التى ذكرتُها ، وكيف لا ، وهذا الالتهابُ سببه الجراثيم الفتّاكة التى سمّيتها آنفًا ؛ وليس ببعيد أنْ يمتدَّ الالتهابُ فى الحالبين وقاعدة الكُليتين حيث يمتنع نزول البول فى الحالة الأولى فيترتب التسمم الدموى (يوريميا) ، أما فى الحالة الثانية فالموت هو أقرب النتائج لها .

وإنّ إصابة البربخ فضلًا عن كونها تنشأ عن امتداد الإصابة من القناة البولية فهى نتيجة مباشرة كذلك للجِماع فى المحيض ، ويجب ألا يغيب عن البال أنّ كثيرًا جدًّا من أحوال العُقم تتسبب عن هذه الإصابة التى تنذر العالم بشر مستطير ، وتُهدد كِيانه بخطر داهِم .

مما تقدّم يستطيعُ القارئُ اللبيبُ أن يُلِمّ بالأذى المتشعب الذى عناه سبحانه وتعالى لقوله : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى ﴾ [البقرة : 222] ذلك الأذى الذى يُحمّل بنى آدمَ رجالًا ونساءً ما لا طاقة لهم به من الآلام والأمراض ، بل ذلك الأذى الذى يترتب عليه عقمُ المرأةِ وعقمُ الرجل جميعًا ، وهو ما يهدد العالم بالفناء والزوال .

وإنى لأظنّ أنه جَدّ كافٍ للمرء أن يَذْكُرَ الله له ضررَ الشيء ليتحاشاه ويتجنبه ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء : 87] وكيف لا يكون فاسقًا من يعصى أمرَ ربه ويسلكُ سبيلَ الغِواية الذى حذّره منه بعد أنْ تبينَ له ضررهُ وشاهدَ بعينَىّ رأسه خطورتَه ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ [البقرة : 99] .

المنعُ وتقويةُ الإرادةِ :

ولا يخفى أنّ مِن حِكَم تحريم المباشرة أثناءَ الطمث تعويدَ الرَّجُل على الصبر على بُعد المرأة مدَّةً من الزمن ، إذ إن الرجل كثيرًا ما تدعوه أعماله الخاصة إلى السفر والتغيب عن أهله مُددًا مختلفة ، ففى التحريم رحمةٌ به وتقوية

لعزيمته ، ولعلّ ذلك كحكمة الصيام فى تدريب المرء على الصبر وعلى الجوع واحتمال قلة الطعام أو عدمه فى سفره وترْحاله ، وما قد يلاقيه فى أثناء صيامه ، والمنع فى الحالتين تعويد للجسم على احتمال الطوارئ حتى لا يُفاجأ البدن بما لم يتدرب عليه ، ولا تؤخذ النفس على غِرّة منها .

وَطءُ الحيضِ لا إنباتَ فيه :

هنالك نقطةٌ أخرى أُريد الإشارةَ إليها إشارةً لا تتعدى الحصر ، ولو أنّ لها أهمية خُلقية كبيرة ، وهى أنّ الوطء فى ذاته لم يَخْلُقْه سبحانه وتعالى لمجرد الشهوة البهيمية ، بل خلَقه لغاية هى أسمى بكثير من ذلك ألا وهى النسلُ وحفظُ كِيان العالَم والعملُ على عدم فنائه وبواره . وكلُّنا يعلَم - فضلًا عما تقدّم - أنّ الوطء فى المحيض لا يُعقب ولا يُحدث حملًا مطلقًا ، بل هو كوضع الشيء فى غير موضعه ، وكبذْرِ البذور فى أرضٍ قاحلةٍ جرداءَ لا تُنبت زرعًا ولا تأتى بثمر ، وحسْبُك قوله تعالى : ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ [البقرة : 223] والحرث مكان الإنبات ، وليس فى وقت الحيض تلقيح أو نسل ، ولا يظن أحد أنّ هذا وحده سبب كاف للنهى عن هذا الفعل ، بل هو كما ذكرت تُعطيه مَظهرَ الحيوانية وعدمَ التعفُّف وقلة العقل لِمَا بينْتُه من آلام المحيض وقذارة الدم وأضرار الوطء أثناء الطمث .



المبحث الرابع
الزِّنا وأضراره

قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : 32] .

وسنتكلم عن أضرار الزّنا من الناحية الطبية لترى ما تجرّه هذه الفاحشةُ على مرتكبيها من المصائب التى لا يزالُ العالم يَرْزَخُ تحتَ عبئها ، والتى تنخر فى عظام الإنسانية كما ينخر السوس فى مادة الخشب .

الزُّهْرِىُّ

ومن هذه المصائب الزُّهرِىُّ ، وحينَ أتكلمُ عن الزُّهْرِىِّ إنما أتكلمُ عن ثالثِ مرضٍ فى العالم منوطٍ به إزهاقُ النفوس وتضييعُ الأرواح ، وأوَّلُ مرض لا يُريح المصاب بالموت حتى يتركه بحال يفتِّتُ الأكبادَ ، ويُذيب الأفئدةَ ، ممثِّلًا به شرَّ تمثيل .

هذا الداءُ ينتشر فى العالم انتشار فاحشة الزنا ، وتجد الإصابة به فى لُندن وحدها حوالى 10% أى أن عددَ المصابين يبلغُ ستمائة ألف شخص ، وفى برلين 12% ، وفى عاصمة فرنسا 15% ، ولقد وُجد أنه فى جوتنبرج التى يبلغ عدد سكانها 138130 نفس يبلغُ عدد المصابين 47000 شخص ، **وقال العلّامةُ بنكسن** : أنه فى ألمانيا بأجمعها تجد فى كل خمسة رجال رجلين مصابين بهذا الداء ، وفى الولايات المتحدة الأمريكيةَ 3000 شخص يقضى عليهم هذا الداءُ سنويًّا .

أما فى مصرَ فلقد وُجد أنه فى سنة 1931م تردد على أربع عشرة عيادة

سرية 250 ألف زان مريض بالزُّهْرِىّ ، والمعروفُ أنّ عددَ المصابين فى القطر المصرى لا يقل عددهُم عن المليونين ، ولا يغيبُ عن البال أن المصابين الذين لا تبلغ إصابتهم إلى الجهات المختصة لا يعلم عددهم غيرُ الله تعالى .

هذا المرضُ يُعْدِى بمجردِ اللمس عن طريق الزنا ، أو بمجرد تَقبيل المُصَاب لغيره أو ملامسته ، وتُسَبِّبه جرثومةٌ خاصة تُسمّى (الإسبروشيت باليدا) ، وتستطيعُ أن تَلْمس حقيقةَ هذا المرضِ إذا علمتَ أنه لا يترك جزءًا من أجزاء الجسم حتى يترك فيه آثاره ، ولا يدع فيه جهازًا حتى يُعطّل عمله ويفسد وظيفته ، وسوف ترى حين نتكلم عن الزُّهْرىّ الوراثىّ أنّ الإصابة تنتقلُ إلى نسل المصابِين ، وستعلمُ كيف يَحْمِلُ الزناةُ إلى ذُريتهم أخبث الهدايا وأشنع الأمراض .

إن ظهورَ القُرحة التآكلية أو التقرحية فى موضع الإصابة ما هو إلّا الإنذار الخطيرُ بغزو الجراثيم لجميع أجزاء الجسم عن طريق الأوعية الدموية والليمفاوية جميعًا ، ومن ثَمَّ يحمرّ الجلدُ ويأخذ الاحمرارُ شكلَ دوائرَ ورديَّةٍ لا تلبثُ أن تأخذَ شكلًا خاصًّا يتحول إلى ما يُسمّى بالزُّهْرياتِ الحُبيبية بجميع أشكالها وأنواعها ، أو تتحولُ إلى حُويصلات زُهْرية ، فزهريات مللية ، والزهريات الحبيبية لا تلبث أنْ تتقيحَ سريعًا حتى تكوُنَ الرّبيا الزُّهْرية .

ويظهرُ كلُّ ذلك مع تضخُّم لا يلبث أنْ يعُمَّ غُددَ الجسم الليمفاوية التى تتقيح سريعًا إذا ما وصلتها الجراثيمُ العُنقدية والسبحية .

وتصيبُ جلودَ المرضى بالزُّهْرِىِّ مظاهرُ مشوهةٌ لهذا الداء العُضال تَعُمّ جميعَ سطحِ الجسم : كالطفح الزهرى الحُبيبىّ والثُّعبانىّ والنكسىّ والعقدىّ وكالصلع والبهق الزهريين ، وذلك بجانب إصابة الأظافر وجعْلِها مشوهةً هشةً سهلةَ الكسرِ مثقوبة القاعدةِ ، وكذلك الأنسجةُ المحيطةُ بها لا تنجو من الالتهاب الداحسِ الزهرى ، بل هنالك القروحُ العميقةُ والأورامُ الصمغيةُ التى تتغلغلُ فى الجلدِ حتى تكشفَ عن العظامِ وأربطةِ العضلاتِ ، وتنتشرُ فى السطح الوحشىّ للساقين وخلفَ الفخذينِ والإليتين وخلفَ السَّاعدَيْنِ والمَرْفِقين والسطح الوحشىّ للرُّكْبتين والسطح الخارجىّ للكَتِف وخلفَ

اليدين وفى السطح الأعلى للقدمين وفى فَرْوة الرأسِ ، فتتلف العضلاتُ وتتفتّتُ العظامُ وتتساقطُ شَظاياها وتتآكلُ أجزاؤها ، ويُصابُ سمحاقها ونسيجها الداخلى ، وتغزو الجراثيمُ مفاصلها فتصيبُها بالورمِ والاستسقاء ، ويلتهبُ غشاؤها الزلالىّ .

والعينُ يصيبها الزهرىُّ ويُهلكها بجراثيمه ، ولقد وُجِدَ فى لندنَ عاصمةِ بلاد الإنجليز أن نسبة العمى بالزُّهْرِىّ تبلغ 3,5 فى المائة من مجموع الإصابات بهذا الداء ، وأما عن الإصابة فى الأذن فيكفى أنْ تعرفَ أن 25% من المصابين تفقد آذانُهم وظائفها ويُصابون بالصمم .

والزُّهْرِىُّ يُصيب أجزاءَ الفم بإصابات بالغة ، فترى اللسانَ وقد ظهرت فيه القروحُ الزُّهرية واللطخُ المخاطيةُ حتى ينتهى الأمرُ بتضخُّمه وانكماشه ، وضمور نسيجه وتشققه ، وانتشار القروح الزُّهرية والأورام الصَّمْغية فيه ، ولَوْزَةُ الحلق تتعرض للورم الصمغىّ ، وكذلك البلعومُ تَظهرُ فيها التقرحاتُ الزهريةُ التى قد تعوق التنفسَ والبلعَ على وجه خاص لالتحام البلعوم بالحَنَكِ الرِّخْو ، ويلتهبُ سِمْحاقُ الأخيرِ ، ويُصاب بالقروح الزُّهريةِ ، وينتهى الأمرُ بحدوث فجوةٍ مُتَّسعة فى حنك المريض .

وتَمتدُّ الإصابةُ من الفم إلى المرىء فيتعرضُ للإصابة بالقروح والانسداد والشلل ، ومنه إلى المَعِدَة فتتقرحُ وتنتشر فيها الصموخُ الزُّهريةُ ، وتتعـرضُ للنزف الدموىّ والانسداد فى إحدى فُتحتَيْها ، وتصلُ الإصابةُ من المعدة إلى جميع أجزاء الأمعاء الدقيقة والغليظة والمستقيم وفُتحة الشَّرَجِ مما يعرِّض المريضَ لأشدِّ الأخطار وأسوأ النتائج .

والجهازان البَوْلِىّ والتناسلىّ يتعرَّضان للتلف والدمار ، فيعطل عمل الكُليتين بإصابتها بالقروح والأورام الصمغية ، وكذلك المثانة وجميع أجزاء الخِصيتين والمبيضين ، وسائر أجزاء الجهازَيْنِ .

ويغزو الزُّهْرِىُّ الجهازَ التنفسىَّ كذلك ، فَتُصاب الشُّعَبُ الهوائيةُ بالتقرحات المُزْمِنة ، والأورام الصمغية ، التى تمتدّ إلى الرئتين فَتُعَطِّلُ عملها ، ويتسببُ عن ذلك الموتُ .

وتُصيبُ جراثيمُ الزُّهريِّ الدورةَ الليمفاويةَ ، وتُعطل عملَها بما ينجمُ من التهاب قنواتها ، وانتفاخها ، وتضخم الغُدد التى قد تـتقيحُ عند وصول الجراثيم إليها ، بل إنّ إصابة الجهاز الدوريّ لمما يُورد الزناةَ شَرَّ موارد الدمار والهلاك ؛ إذ تلتهبُ أهمُّ شرايين الجسم وأوردته ، ويتصلبُ نسيجُها ، وتتليَّفُ أجزاؤه التى قد تُصاب كذلك بالأورام الصمغية ، وإنّك لتجدُ مُعظمَ ذَوِى الأمراضِ القلبيةِ المزمنةِ وموتى الفُجاءة ضَحية هذا الداءِ العُضَالِ .

وتُصيبُ الجراثيمُ كذلك الغُددَ اللاقنويةَ بتلك الأورام الصمغيةِ ، وهذه الغددُ كالبروستاتا ، والمبايض ، والغدة النخامية ، والغدد التى فوق الكُليتين ، والغُدة الدرقية وغيرها . ويطول بنا شرحُ الضرر الناجم عن إصابة هذه الغدد لما لها من بعيد الأثر فى جسم الإنسان ، وكبير سيطرتها عليه ، وخطورة شأنها فى تقويم وظائفه ، وحفظ كيانه .

أما ما يفعله الزّهْرىُّ فى الجهاز العصبىّ ، ويُحْدثه فى سائر أجزائه ، ويسببه فى جميع خلاياه من تعطيل وظائفها بضمور نسيجها أو تلفه وتحلله ؛ كما يَحْصُل فى مرض الشلل العام للمجانين فهو مما لا يستطيع القيام بمثله داءٌ كهذا فى شدَّةِ بطشه بضحاياه وبعيدِ تغلغله فى أدق نوايا وجودِهم ، وعظيمِ أثَرِهِ فى القضاء عليهم .

وحَسْبُكَ أنْ تعلمَ أنّ الزهرىَّ يفتك بمخ الزانى فتكًا ذريعًا ، فتلتهب سحاياه خاصة جزء (الأم الحنون) ، وتُصاب كذلك أوعيتُه الدمويةُ التى تضيقُ حتى ينتهى الأمرُ بإفسادها ، ومنع الغذاء عن الأجزاء التى تغذيها بالدماء ، وحينئذ تَحْدُثُ الأعراضُ التى ستأتى الإشارةُ إليها ، بل هنالك الأنزفةُ المخيةُ الناشئةُ عن انفجار الأوعية الدموية .

والأورامُ الصمغيةُ لا تتركُ المخَّ حتى تبليه وتعطلَ عمله ، وهو أهم مركز فى جميع أجزاء البدنِ على الإطلاقِ .

وإصابةُ المخّ فى أبسط أشكالها تُحْدِثُ الصُّداع الدائمَ ، والقىءَ والنوباتِ العصبيةَ التى قد تتكررُّ مرات فى اليوم الواحد ، وشلل العضلات المحركة للعين

والتهابَ عصب الإبصار ، ويُصاب الجسمُ بعضُه أو كلُّه كذلك بالشلل ، الذى يُوَصِّل الزانى إلى القبر بعدَ أنْ يُذيقَه أشدَّ الآلامِ .

وقدْ تَحْدُثُ الإصابةُ فى لسان المصابِ ، ويصابُ بالبَكَم ، بل هنالك بجانب ما تقدَّم أعراضٌ أُخرى تُعتبر أبسطَها جميعًا ، رغم عِظَم خطرها ، كالذهول والهَذَيان ، وفَقْدِ الذَّاكرةِ التى تنتهى بالجنونِ .

وتختلفُ أعراضُ زُهْرِىِّ المُخّ باختلاف مواضع امتداد الإصابةِ ؛ فإذا أُصيبَ عَصَبُ الشَّمِّ مثلًا فقدت هــذه الحاسة ؛ وإذا أُصيبَ عَصَبُ البصر كان فقده وذهابه ، وهكذا .

ويُفَاجِئُ الشللُ النصفىُّ الزُّهْرِىُّ المصابينَ به على حين غِرّة منهم ، وهذا الشللُ النصفى قد يَحْدُثُ مثلُه فى النصفِ الآخَر ، فيعمّ الجسمَ ويحلُّ الموتُ .

وتلتهبُ سَحايا النخاع فيتصلبُ العمودُ الفَقْرىُّ ، وتَصْحَبُ ذلك تغيراتٌ خاصة فى وظائفِ أعصاب الحركة والتغذية والإحساس بجانب ما يتعرض له المريضُ من الشلل العام .

وأما إذا التهب النخـاعُ الشوكى فتشل الأطـراف السفـلى ، ويفقد إحساسها ، ويَحدُث الموتُ حينئذ لأسباب شتى كخُرَّاجات الظهر ، والتهابات الكُليتين وغيرها .

وهنالك مرض غاية فى الخطورة لا أملك إلَّا أنْ أشيرَ إليه ، ويسببه الزُّهْرىُّ (وهو الشلل العام للمجانين) ، وأهمُّ أعراضه : بلاهةُ المصابين به ، وتظهر متجسمة فى أعمالهم وتفكيرهم ، وتكون مصحوبة عادة بهذيان العظمة ، أو الهذيان الاضطهادى ، ويصابُ المريض كذلك بالرعشة فى يديه وفى لسانه ، وتزدادُ حَساسية انعكاس الركبتين ، وتختلفُ فُتحتا حَدَقَتَىْ العين ويضطربُ انتظامُهما .

والزُّهْرِىُّ يسببُ مرضًا آخرَ يُسمّى (الخراع) ، ويحدث آلامًا روماتزمية حادة ، وأعراضًا أخرى تشبه المغصَ الكُلوى والآلامَ العصبية بين الأضلاع ، والتهاب العصب الوركى .

ويُحدث المرضُ أزماتٍ شديدةً أهمها : الأزمةُ المَعدِية التى تمثل أعراضَ التهاب الزائدة الدودية ، وتقرح المعدة ، وانسداد الأمعاء .

ويُصَابُ المريضُ بالأزمة الحنجرية التى تعوقُ التنفسَ وقد تُشِلُّ بعضَ عضلات الحنجرة ، فيتعذرُ التنفسُ الذى قد يسببُ الموتَ .

ويَفْقِدُ المصابُ بهذا الداء الحساسيةَ التى تصل من عضلات الجسم فأربطته ومفاصله إلى المخّ ، فتختلج حركةُ المريض ، ويفقدُ شيئًا كبيرًا من توازنه .

ومن أعراضِ هذا المرض زوالُ إحساس المريض من بُقَع جلدية خاصة فى الجسم كزوال الإحساس فى الجزء الجلدى المحيط بالضلع الثانى ، وكذلك زوال إحساس الأنف والجبهة . . . إلخ .

وهكذا ترى الزُّهْرِىَّ لا يتركُ موضعًا فى الجسم إلَّا ويغزوه ، ويُعطل عمله ؛ لذلك اعتبر ممثلًا خطرًا لمعظم أمراض العالم ، وإنّ الأعراضَ التى تُحدثها جراثيمُه مشابهةٌ إلى حدٍّ بعيد أمراضَ الجسم جميعًا ، فهنالك إحداثُه لما يُشبه خُرّاجات الكبد لإصابتها بأورامه الصمغية وتقيحها ، وتعرض نسيجها للتشمع ، والكباد الزهرى بالبريتون والطُّحال ، وسائر محتويات الجسم ، وبقية أعضائه ، مما لا نستطيعُ فى هذه العُجالة حصرَه وإتمامَ بيانه ، وذلك بجانب شتى الحميات التى يبلى بها مرضاه ، حتى يتركهم غيرَ قادرينَ على الحركة ، فيعانونَ منها ما يشبهُ إلى حدّ بعيدٍ أعراضَ حُمى الملاريا والحُمى التيفوديَّة ، وكأنى بالزانى المريض بهذا المرض الذى بينّا بعض أعراضه ، وأشرنا إلى مقدار تغلغُله فى جسمه ﴿ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝١٦ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ [إبراهيم : 16 ، 17] .

الزُّهْرِىُّ الوِرَاثِىُّ :

ولعلَّ أقبحَ الهدايا التى يُقدمها الزانى إلى ذُريته التعسةِ ويُبْليهم بها هى

الزهريُّ الوراثيُّ ، وإن خطره على النسل ليهدد العالمَ بشرٍّ مما تهدده به الحروبُ الذريّةُ ، وينذره بأشد ما تنذره به البراكينُ الملتهبةُ ، والزلازلُ المهلكةُ ، والنكباتُ العظمى التى لا تبقى ولا تذر ، وإنك لتجد 40% من وفيات الأطفال فى السنة الأولى من سِنِيِّ حياتهم راجعةً إلى الزُّهْرِيّ الوراثيّ وتجد 60% من حالات الإجهاض المتكرر فى العائلات المصابة بهذا الداء راجعة إليه .

وتجدُ فى كلّ مائة طفل مولود بزهْرىّ وراثىّ تسعين يموتون ، وتجد 20% من الحوامل على وجه العموم مصابات به ، وتجد ثلاثة عشر لقيطًا مصابين بالزهرىّ الوراثىّ فى كلّ مائة لقيط ، بل نستطيعُ أنْ نقولَ : إن 99% من أولاد المصابين تموت ، إما أجنّة أو بعد الولادة ؛ وذلك مما يبين لنا إلى أىِّ مدًى بلغ هَدْمُ الزنا للأُسَرِ وفتكه بالذرية والنسل .

والزُّهْرِيُّ : إما أن يَلْحقَ الجنين قبلَ تمام نموّه ، فيلفظهُ الرحمُ فى أىِّ طور من أطوار نموه فيه ، وتشاهد حينئذ فى المشيمة تغيُّرَ حالها ، وكبرَ حجمها ، وسماكةَ أغشيتها وصلابَتَها ، وتَرى التهابَ الحبل السُّرى واحمراره وضخامتَه ، وتجد اختناقَ الكبد أو استحالتَها والتصاقَها بالبرويتون ، وترى تضاعفَ حجم الطِّحال بنسبة كبيرة بجانب تقرح المِعِدة والأمعاءِ وسائرِ أجزاءِ الجسمِ الأُخرى .

هذا إذا لم يُلْفَظْ الجنينُ فى الأسبوع الأول أو فى العشَرَةِ الأيامِ الأُولَى مشوَّهًا ممسوخًا ممزقًا شَرَّ مُمَزَّقٍ بصورة بشِعة ومَنْظر قبيح .

أما إذا وُلد الجنينُ فإنه لا يُرى بالحالة العادية التى يكون عليها الأصحاء بل تراه صغيرَ الجسم ، مشوَّهَ الخلقِ ، فقيرَ الدم ، ذاهبَ اللون ، هزيلَ الجسم ، مجعَّدَ الجلدِ ، مُعَرَّضًا للموتِ السريع بعد العذابِ الأليم .

ولو خرج الطفلُ وعليه أماراتُ الصحة ، فليس معنى ذلك سلامتَه من العلةِ الفتاكةِ ، بل لا تمرُّ به أسابيعُ قليلةٌ حتى يلحقه الضعفُ والهزالُ ، ويتعطلَ نموُّه ، ويصبحَ معرَّضًا لشتى الإصابات كارتباكات الجهاز الهضمى والتنفسى ، وتشقق الجلد ، وجدع الأنف ، ثم يستمرُّ فى النحافة والذبول

شيئًا فشيئًا ، وتتضخمُ كبده ، ويكبر طِحالُه ، ويتغيرُ خلقه تغيرًا واضحًا ، وتلتهب غددُه الليمفاويةُ ، وتصابُ عظامُ جمجمته وأصابعهِ وذراعَيْه وساقَيْه ، وتلتهبُ مفاصلُه ، وتلينُ عظامه ، وتستسقى رأسُه ، ويضيقُ تنفسُه ، ويصابُ جهازهُ العصبىُّ ، ويتعرضُ للتشنجات العصبية ، والصَّرع والشلل النخاعى ، والشللِ النصفى ، وإصابةِ الحواس ، والضمورِ العضلى ، وانعدامِ الفعل المنعكس ، والالتهابِ السَّحاقِىّ ، وإصابةِ أجزاء العينين وأعضائها ، والشللِ العام للمجانين ، ويظهرُ التشوهُ فى الأسنان ، وتلتهبُ الأذنُ الوسطى ، وتتقيح ، وتُصابُ أجزاء الدورة الدموية ، وذلك بجانب الإصابات الجلدية التى تشبه ما يَحْدُثُ فى الزهرىِّ المكتَسَبِ ، ويتليفُ البنكرياسُ ، وتظهرُ الأورامُ الصمغية فى الغُدد الصماءِ ، إلى غير ذلك مما يضيقُ عن ذكره المقَامُ .

وتَلحقُ عوارضُ الزهرىِّ الوراثىِّ الذرية فى أىِّ سنّ ، وكثيرًا ما كان هذا الداءُ سببًا فى إصابة النسل بالبله والعته ، والعبط والجنون ، وهو ما يُعَدّ أبسطَ المسائل فى إصابة النسل ، ويُعتبر أكثرَها حُدوثًا .

السَّيلاَنُ

والسَّيلانُ من الأمراض الفتّاكة التى تُسببها كذلك هذه الفاحشةُ ، ويسببُ الداءَ جرثومةٌ خاصةٌ تُسمّى بالجونوككس ، ولكى تعرفَ مقدارَ انتشار هذا المرض فى الهيئة الاجتماعية ومبلغَ تغلغله فى أفرادها يكفيك أن أَذكرَ مثلًا من ذلك من إحصائيات لندن أن 60 % من عدد أفرادها البالغين مصابون بهذا الداء ، ويتراوحُ عددُ المصابين فى باريس من 75 % إلى 90 % وفى برلين من 60 % إلى 70 % ، وفى نيويورك تجد فى كل مائة شخص ثمانين مصابين بالسّيلان ، هذا فى أرقى البلاد حضارةً ، وأرسخِها قدمًا فى علم الطب ، وأكبرِها ادعاء للمَدَنِيّة والرُّقى .

وليس مرضُ السيلان بالعلة الهيّنة السهلة التى لا تسترعى الانتباه ، بل هو من أكبر المعضلات الاجتماعية الخطيرة التى حار فى علاجها الأطباءُ

والسّاسَةُ والمشرِّعون ، فهو مرضٌ فتّاك ، يترِكُ المصابَ به فى حالة من الألم والمرض ، يعطلُ حركتَه ، ويشلُّ تفكيرَه ، ويجعلُه فى المجتمع عضوًا أشلَّ لا فائدةَ فيه ولا نفعَ منه ، وذلك فوق ما تُبتلى به النساء فيجعلهن مستودعًا خَطِرًا للعَدوى ، وأداةً لتشويه النّسل ، والقضاء على الذرية .

إصابةُ المرأة :

ولقد ثبتَ أنّ كلَّ امرأة اتصلت برجل مصاب بهذا الداء لابد أن تُصاب هى الأخرى به لاستعدادها لقَبول العَدوى ، ولقابلية جهازها التناسلىّ لاستقبال جراثيمه المَرَضِيّة ، فتفتك به ، وتُعطل وظيفته ؛ إذا لم تفقدها تمامًا .

ويصابُ مجرى بول المرأة بهذه الجراثيم فيلتهبُ ويحمرُّ ، وتتضخم حافتاه ، ويظهر القيحُ السيلانى الكريه الرائحة من فُتحته ، وكثيرًا ما يُزْمِنُ المرضُ فى هذا المكان حين تختفى جراثيمُه فى بقع نسيجية فى غشائه ، ويحدث تليف فى غدد (ليتر) فتضيق فُتحة مَجرى البول ، وقد يَمْتد التليفُ إلى المجرى نفسه كذلك ، وتصيب جراثيمُ المرض قناتىْ (سكين) اللتين تظهر فُتحتاهما على جانبَىْ مجرى البول ، وكثيرًا ما تكونَ إصابةُ هذه القناة سببًا فى انتكاس (*) المرض وإزمانه .

والعَدوى تمتدّ من قناة المجرى البولىّ إلى المثانة ، فتتعطل وظيفةُ الجهاز البولىّ ، وتشعر المريضةُ بألم كبير فوقَ عانتها ، وميلٍ إلى التبول الكثير مع الألم فى كلِّ مرة ، ونزول نقط دموية إثْرَ تلك الإصابةَ .

ويُعْدِى السَّيَلانُ غُدَدَ (بارثولين) وتقعُ كُلُّ غُدّةٍ خلْفَ النصفِ الخلفىّ للشَّفْرِ الأعظمِ ، ولها قناةٌ طويلةٌ ملتويةٌ على نفسِها تفتحُ على السطح الداخلىّ للشَّفْرِ الأصغرَ ، فتلتهبُ وتتضخمُ وتتقيحُ ، وقد تنسدّ قناتُها ، ويتكوّنُ خُرّاجٌ ، لا يلبثُ أنْ يكوّن ناسورًا ، ويُزْمِنُ المرضُ ، وتصبحُ الغُدّةُ سببًا

(*) أى عَوْدتُه مرةً أخرى .

لمضاعفات سَيلانية أُخرى ، كالتهاب المِهبل السيلانى مثلًا ، وعندما يلتهبُ المهبلُ يظهرُ القيحُ فيزيل الطبقةَ العليا لغشائه ، ويتركُ تقرُّحاتٍ مغطاةً للإفرازات الالتهابية ، أو يُصاب بالالتهابِ الحُبيبى أو الالتهابِ الغشائىّ .

والرَّحمُ ، وهو موطنُ الجنين وقرارُه المَكِينُ ، يُصاب كذلك بالسيلان ، ويلتهبُ عُنقه ، إذ يتسربُ الجونوكوك إلى غشائه الداخلىّ ، ويخترقه ويختبئ فى الغُدد والقنوات التى توجد فى الطبقة تحتَ الغشائية والعضلية فيه ، حيث يُزْمِنُ المرضُ ، وتكثرُ الإفرازاتُ الالتهابية ، وتشتدّ الآلامُ فى الظهر ، وفى العمود الفَقْرىّ ، وترتبك دورةُ المحيض مع الألم المبرِّح أثناءه ، وترى العنق الرحمىّ ، وقد تضخم واشتد التهابه ، واحتقنت أنسجته ، وسالت إفرازاته ، وتسلخت خلاياه ، وانسدت غددُ نابوثيان فيه .

ويلتهبُ الغشاء المتبطن بجسم الرحم تبعًا لذلك أو بعد وصول الجراثيم إلى البُوقين والمبيضين ، فتزدادُ الآلامُ فى أعلى العانة وفى الظهر ، ويظهر الصديدُ الدموىّ ، وتتضاعف الآلامُ المبرِّحة إثر نزول الطَّمْثِ ، ويسيلُ النزيفُ الدموىّ بشكل سيئ الإنذار ، وتلتهب عضلات الرحم ، وفى الحامل تصاب عينا الطفل عند الولادة بالسيلان الصديدىّ ، فيذهبُ بصرُه وتتلف عيناه .

وعند إصابة الرحم تختلّ حركةُ أعصابه الموضعيّة فتتقلصُ عضلاته تقلُّصًا عكسيًّا ، يسببُ نقلَ جراثيم المرض إلى فُوهة البوق الرحمية التى قد تصاب كذلك بانتقال الجونوكوك مباشرةً بواسطة الدورة الليمفاوية فى الجسم ، فتشعر المريضة بالقُشَعْرِيْرَةِ ، وترتفعُ درجةُ حرارتها ، وتشتد بها الحمى ، وتَظهر الآلامُ فى أسفل البطن حول الجزء المصاب ، حيثُ تَظهرُ الأورامُ عند البوقين اللذين كثيرًا ما تُسدّ فُتحتاهما البطنيتان ، فتلتصقان ببعضهما وبالأنسجة المجاورةِ ، ويكثرُ الرشحُ والتجمّعُ الخلوىّ ، ويتضخمُ البوقُ ، وينسدّ مجراه ، وقد يترك فى مكان الانسداد أكياسًا دَمويَّةً أو مائيّةً أو قيحيَّةً .

والمبيضانِ يُصابان إثرَ إصابة البوقَيْنِ ، وينتهى بهما الحالُ إلى فَقْدِ وظيفتهما وتَلَفِهما ، وعند ذلك يحصلُ العقمُ .

وقلَّما يحصلُ الحملُ عندما يكُون المرضُ حادًا ، وذلك لإهلاك الإفرازات الصديديّة وإعاقتها للحيوانات المنوية ، ويَتَعَيَّنُ عدم حُصوله مطلقًا عند إصابة المِبيضينِ أو عُنُقِ الرَّحم إصابةً لا تُمَكِّنُ الحيواناتِ المنوية من الدخول فى الرحم .

ولو حَصل الحملُ فى المرة الأولى عند اتّصالِ الرَّجلِ المصاب بالمرأة ، وظهرت الأمراضُ الحادّة بعدَ الإخصاب ، فلا تصل الجراثيمُ إلى الجزء الأعلى من الجهاز التناسلىّ ، ولكنّه عند النِّفاس يَجِدُ الجونوكوك مرتعًا خصبًا ، فينمو ويتكاثرُ تكاثرًا غريبًا ، ويأخذ فى غزو جميع الجهاز التناسلىّ حتى يقضى عليه ، وعندئذ لا يَتَأَتّى للمرأة الحملُ البتةَ ، ولا تنالُ فى حياتها غير ذلك المولود الذى نالته فى ذلك اليوم المشئوم ، وهذه الحالةُ يُسميّها بعضهم (عقم الطفل الواحد) لعدم تَمكُّن المرأةِ من الحصول على غيره بسبب الإصابة بهذا الداء العُضال .

وبجانب ذلك فقد وجد أنّ أكثرَ من 70% منِ هذه الحالات تُصاب فيها عينا الطفل عندَ الولادة بمروره على العنق المصاب أو الأكياس المهبليّة الموبوءة ، فتصاب القرنيةُ ، ويذهب غشاؤها ويكثرُ رشحُها ، وترى خُرّاجات كثيرة على شكل نقط كثيفة فى سطحها ، وكثيرًا ما يظهر فيها رشحٌ ينتهى بقُرحة تودى بها إلى آخر ما تصاب به سائر أجزاء العينينِ .

ولا تَقْتصرُ إصابةُ المرأة على الجهاز التناسلىّ فحسب ، بل كثيرًا ما تغزو الجراثيمُ الجزءَ الحوضىَّ من الغشاء البريتونىّ وتنتشرُ الإصابةُ فيه ، بل قد يلتهبُ الغشاءُ البريتونىّ جميعُه ، وإنه يكاد يكون من المُعضلات علاجُ المرأة المصابة بالسَّيلان أو الجزم بخلاصها من هذا المرض الذى يتغلغلُ هذا التغلغلَ الغريبَ فى جميع جهازها التناسلىّ ، ويكمُن فى تعاريجه ، ويختفى بين طِيّات أجزائه ، وخذ مثلًا من ذلك انفجار الأكياس الِصديديّة المبعثرة على المبيض ، أو فى الأجزاء المجاورة له .

ويجبُ ألا يغيبَ عن البال أن المصابةَ بالسَّيلان كثيرًا ما يُظَنُّ أنّها تخلصت من وبائه ، وهى فى الحقيقة حاملةٌ لجراثيمه تُصيب من يتصلُ بها ،

ولو تزوجت تُعدى زوجَها ؛ وذلك لظهور المرض عليها ثانيًا ، وبرجوع النشاطِ إلى الجراثيم الكامنةِ التي قد كان يعوقُ ظهورَهما أيُّ سببٍ من الأسباب كاختبائها فى إحدى الغُدد كما قدّمنا ، أو تسترها تحتَ غشاء استحالة نسيجية . . . إلخ .

وإنِّى أستطيعُ أن أقولَ : إن إصابة المرأة بالسَّيلان وَبالٌ عليها وعلى أولادها وعلى زوجها وعلى الهيئة الاجتماعية بأسْرِها ، والمصيبةُ العظمى أنّه ليس من المستطاع أن يحكم أحدٌ فَنيًّا على مُصابة بالسَّيلان أنها شُفيت منه . وحَسْبُك كذلك أنْ تَعلم أنّ الطبَّ لم يَتَوَصَّل إلى الآن إلى العثور على علاج نَوعيٍّ لهذا المرضِ .

إصَابةُ الرَّجُلِ :

ويُصيبُ السَّيلانُ الرجلَ إصابات بالغةً ؛ إذ تلتهبُ عنده كذلك فُتحةُ البول ويشتدّ احمرارُها ، وتُصابُ حَوَافُّها بالورم ، فتنقلب على نفسها ، وقد تتآكلُ أطرافُها ، ثم يمتدّ الورمُ فى عُضو التناسل فيعوقُ التبولَ ، ويشعر المصابُ بالآلام المبرِّحة أثناءه ، وتفتك الجراثيمُ بالغشاء الداخليّ للمجرى البوليّ ويشتدّ تكاثرُ الصديد ، ثم ينتهى الأمرُ بضيقِ المجرى وتعذّرِ البولِ أو امتناعِه مطلقًا ؛ وذلك لِتَكَوُّنِ أليافٍ خاصة نتيجة الالتهابات فى الطبقة تحتَ الغشائية للمَجْرى .

وكثيرًا ما تصحبُ الدماءُ السَّيلانَ المِدّيّ ، وتنسدّ القنواتُ المُحاذِية للمجرى البوليّ ، ويشعرُ المصابُ بألم شديد ككى النار عند خروج البول ، وقد يمتدّ الألمُ إلى الشَّرج والعجان والفخذين .

والالتهاب الناشئُ عن هذا المرضِ يسببُ انتصابًا مؤلمًا يتكرر كثيرًا ، وقد يؤدى هذا إلى انفجار الأوعية الدمويّة المحتقنة فى العضو المذكور .

وتسبب جراثيمُ السيلان التهابَ غُدد (ليتر) وهى التى توجد على جانبَىْ المجرى على سطحه الأعلى ، وتُفْرز إفرازًا خاصًا عند الانتصاب ، والجونوكوك حينَ يصلُ إلى هذه الغددِ يستولى عليها استيلاءً كُليًّا حتى يصعبَ

التغلبُ عليه بطرق العلاج العاديَّة ، وكذلك الحالُ عند عَدوى جيوب مرجانى بهذه الجراثيم ، وهذه الجيوبُ توجد على جوانب المَجْرى وفى سطحه الأعلى ، وحين إصابتها تنسدّ فُتحاتها ويتكون فيها كيس يضمُّ هذه الجراثيمَ ويحميها من تأثير العقاقير التى تُستعمَلُ للعلاجِ .

وتلتهبُ كذلك قنواتُ كوبر التى تظهرُ فتحاتُها على السطح الأسفل للمجرى فى الجزء الأسفل من البُصيلة فيشعر المريضُ بثقل فى العجان تصحبه آلامٌ لا تُطاقُ ، وذلك بجانب تعرضِ هذه القنواتِ للانسداد ، ، وتلف باقى أجزائها ، وتُصاب البروستاتا كذلك بالسيلان إصابةً شديدةً فتلتهبُ ويزدادُ حجمُها ، وتتكوّن الإفرازاتُ الالتهابيةُ فى جيوبها فتنسدّ وتكوّن خُرّاجًا لا سبيلَ إلى التخلص منه إلَّا بعمليةٍ جراحيّةٍ ، ويكفيك أن تعلم أنه فى حالة إزمان المرضِ لا يُرجى الشفاء ، وكثيرًا ما يستمرّ علاجُ هذه الحالةِ سنواتٍ عديدةً قبلَ الحصول على نتيجةٍ طفيفةٍ ، وذلك إذا لم تحصُل المضاعفاتُ السيلانيةُ الأُخرى .

وإصابةُ البروستاتا خطرٌ كبير على الزانى عامةً ، وعلى جهازه التناسلىّ خاصةً ؛ إذ تفقدُ البروستاتا وظائفها التى لا يستطيعُ الجهازُ القيامَ بعمله دونها ، وذلك أنّها تساعدُ الخِصية على إخراج إفرازاتها الداخليةِ ، وأنّ عصيرها ذاتَه له شأنٌ كبير فى تغذية الجسم ، وهى تفرزُ بجانب ذلك سائلًا خاصًا يدخل فى تركيب السائل المنوىّ ، وفى الوقت عينِه يبطّنُ هذا السائلُ الغشاءَ المخاطىَّ لمَجْرى البول بمادة لَزِجة تُسَهِّلُ خروجَ المنىّ منه . . . إلخ .

وكثيرًا ما يصيبُ السيلانُ (البربخ) حتى يُتلفه ، ويُحْدِثَ قيلة مائية حادّة ، وينتشرُ فيه الورمُ فيمتدّ الألم فى الجهاز التناسلىّ ، وتتضاعفُ الآلامُ ؛ ويُصاب الزانى بعد ذلك بالعقم ، وذلك بجانب انتقالِ العَدْوى إلى الزوجةِ والبغايا ، والأقرباء ، والمصاحبِين بطريق الملامسة واللمس ، وغيره من عوامل الانتقال .

ولعلَّ إصابةَ الحُويصلات المنويّة من أشدّ الإصابات خطرًا فى تجديد عَدْوى المومسات إذ تختبئ فيها الجراثيم ، وتبقى بعد ذلك مستعدة لعدوى

الزوجة ، وكثيرًا ما تتقيحُ الحويصلةُ المنويةُ حتى لا يُرجى لها علاج ، ويُلزمُ الحالُ شقَّ القناة الناقلة للمنىّ أو شقَّ الحُويصلةِ عينِها أو استئصالها والتخلصَ منها ، برغم ما يترتب على ذلك من شتّى الأخطار .

وكثيرًا ما يسببُ السيلانِ التهابَ الغلفةِ فتضيقُ فُتحتها حتى لا يتيسرُ شدُّها إلى أعلى الحشفة لزيادة ورمها ، ولا يخفى ما يعانيه الزانى فى هذه الحالة من عسر التبول ، وما يشعر به من الألم الشديدِ ، وتختنقُ الغلفةُ كذلك فتطبقُ على الحشفة من أعلى حتى يتعذَّرَ إرجاعُها إلى موضعها الطبيعى .

وليست الإصابةُ بالسيلانِ مقصورة على الجهاز التناسلىّ فحسبُ بل إنّ الإصابة تمتدّ إلى المثانةِ فى الذَّكر والأُنثى على السواء وخاصة عند العنق ، فيشعرُ المريضُ بثقْلٍ شديد عند التبول مع قلة ما ينزل من البول مع كثرة الميل إليه حتى إن المريضَ لا يتبولُ إلَّا نُقطًا قليلةً يَشْعُر أثناءَها بآلامٍ شديدةٍ فى المجرى وفوقَ المثانةِ وفى العجان وحولَ الصَّفَنِ .

وكثيرًا ما تصلُ الجراثيـمُ السيلانيةُ إلى الدورة الدموية أو الدورة الليمفاوية فتصيبُ حَوْضَ الكُلية أو حوض الكُليتين جميعًا مع أغشيتها المحاطة بالحوض ، بل قد تصاب كذلك الكُليتان بالالتهاباتِ السيلانية فترتفع درجة حرارة الزانى وتعتريه القشعريرة ، ويعانى الآلام الظهرية الشديدةَ وكثيرًا ما تمتدّ الإصابةُ إلى الحوض والكُليتين فتصيبهما جميعًا ، وحسبُك انسدادُ الحالبَيْنِ ، واحتباسُ البول ، والتسممُ اليوريمى ، والموتُ بعدَ الألم المبرِّح .

والطامّةُ الكُبْرى هى عند وصول الجراثيم إلى مفاصل الجسم فتتعطل حركتُها ، ويصعبُ تحريكُ أجزائها ، ويمتدّ فيها الورمُ ، وينتشرُ الالتهاب حتى تُصابَ بالتصلب والتشوه الذى يبقى فيها مَدى الحياة ، وناهيكَ بالآلام المبرّحة التى تفوقُ الآلامَ الروماتيزميةَ شدَّةً وفظاعةً ، والروماتزمُ السّيلانىُّ يصيبُ المفاصلَ جميعًا ، وخاصةً مفاصلِ القدم والرُّكبة والرُّسغ ، وأصابع اليدينِ والقدمين ، حيثُ تتكوَّنُ السوائلُ الالتهَابيةُ ، بل قد تصابُ المفاصلُ بهذا المرض دونَ حدوثِ أىِّ أثر ظاهر فى الأجزاء المصابة مع وجودِ الجراثيمِ وتغلغلها فى جميع نواحيها .

ويسبّبُ السيلانُ طفحًا جلديًا خاصًا بالمريض يشبه إلى حدّ بعيد الأثرَ الذى تُحدثه الحمى القرموزية ، بل قد تتعرض الأعصابُ كذلك لجراثيم هذا الداء فيختل نظامُها ، وتصيبُ المجموعةَ العصبيةَ أعراضُ الالتهاباتِ السحائية وغيرها .

ولعلّ من مصائبِ السيلان العديدة إصابتَه للغشاء المبطّن للقلب أو إتلافه للتامور ، بل كثيرًا ما يُصاب عضلُ القلب نفسهُ بالسيلان ، وكذلك صماماته خاصة اليسرى منها ، بل قد تمتدُّ الإصابةُ إلى الأورطة أو غيرها ، مما يؤدى إلى تعرض الزانى للموت .

كل ما قدمتُ ما هو إلّا صورةٌ مصغَّرة لما يُحدثه السيلان فى أجسام الزناة ، ويَعمله من العبث بأرواحهم الدنيئة التى انحطت بنفسها إلى هذه البؤرةِ الخبيثةِ وتلوثت بأوحالِ الفِسْقِ والفسادِ .

القُرْحَةُ الرِّخْوَةُ

والزّنا فوقَ ما يسببُ من الزّهْرىّ والزهرى الوراثى والسيلان يُعرضُ الأشرارَ كذلك للإصابة بالقرحة الرِّخوة التى تسببها جراثيمُ خاصةٌ تسمى (باسلات دكرى) ويكثر ظهورها فى جسم القضيب ، أو فى الصّفن ، أو العانة ، أو عند فُتحة الغلفة ، أو عند تلاقى الحشفة بجسم القضيب ، أو فى الثَّنية تحتَ الحشفة .

وفى الإناثِ يكثرُ وجُودها فى الشَّفْرَيْنِ والشوكة والبُطين والفخذَين وقربَ فُتحة الشرَج .

والقرحةُ سريعةُ العَدْوى ، ويوجد منها نوعان هما القُرحة الرخوة المرتفعة ، والقُرحة الرِّخوة الثعبانية ، وتختلف هذه القرحة عن قرحة الزهْرى بكونها قابلةً للتعدد فى نفس المريضِ بمجرد العدوى الذاتية أو الامتداد ، وحسبك أنها كثيرًا ما تُسبب الاختناقَ أو الانكماشَ كما يَحْصُلُ فى السّيلان . وهذا بجانب تعرض المصاب للغنغرينا والخرَّاجات والأنزفة الدموية .

وتَقَيّح الغُدد الليمفاوية وقنواتها وإتلافها التام للعضو المصاب بها إلى غير ذلك من مختلف الإصابات .

القُرْحَةُ الأَكَّالَةُ

والقُرْحةُ الأكّالةُ من الأمراضِ الخطِرة التى يُحدثها الزّنا كذلك ، وتمتاز هذه القرحةُ كما يدلُّ اسمُها بشدّة تأثيرها ، وإتلافها المستمرّ للأنسجة التى حولها مع عدم رضوخها للعلاج ، وحسبُك عملُها على تآكل أعضاء التناسل ، وإحداثُها للأنزفة الدمويّة والغنغرينا وتَسَمّم الدم ، وتهتّك الأنسجة المختلفة كالعضل والعظم إلى غير ذلك من سائرِ الأجزاءِ .

أَمْرَاضٌ أُخْرى

وهنالك أمراضٌ أخرى لا يُستهان بها يُصاب بها الزناةُ ، ولا نرى بأسًا من الإشارة إليها هنا : كجَرَبِ التناسُل مثلًا ، وكسنط التناسل الذى يكثر فى فُتحة مَجْرى البول ، وفى فُتحة الغلفة ، وأسفلَ القضيب ، وحولَ فُتحة المهبل ، وفى فُتحة مَجْرى البول عند الأنثى ، وكهربس التناسل الذى يُحدث حكة شديدة والتهابًا مؤلمًا ، قد يؤدى إلى التقيّح والتقرّح فى الأعضاء التناسلية ، وكالورم الجلدىّ الرِّخو المُعدى الذى يصيب جلد الخصية ، والقضيب ، والشفرين ، والذى قد يمتدّ فيأخذ مكانًا كبيرًا ، وترى الحُبيبات المتقرّحة مستعدة للإصابات الثانوية الأخرى .

وإنّ قملَ العانة من الأمراض المنتشرة كذلك بين الزناة انتشارًا كبيرًا ، وقد يمتدّ هذا القملُ من العانة إلى الإبطين ، وشعر الصدر ، والزنا هو العامل الأساسى فى نقل هذا المرض القذر بينَ الزناة الملوَّثينَ .

ولعلَّ فيما قدَّمْتُ مَثَلًا لبعض ما عَناه تعالى فى قوله عن الزّنا : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء : 32] .

المبحث الخامس
نِكاحُ الزَّانِى والزَّانيةِ

قال تعالى : ﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور : 3] .

والآيةُ الكريمةُ بما حَوَتْ من فلسفةٍ بعيدةِ الأثر ، وبما تناولت من بحث اجتماعىّ ، معجزَّة من معجزات القرآن الخالد الذى لا يخرجُ عن المعقول ، والذى أقرت به واعترفت بمعجزاته كبار العقول . القرآن الكريم الذى أنزله الله تعالى نورًا وكتابًا مبينًا ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .
[المائدة 16]

النِّكاحُ بمعنى الزَّواجِ :

والنكاحُ فى الآية الكريمة الزواجُ ، وهو عينُ ما تدلُّ عليه الكلمةُ فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم ﴾ [النساء : 22] وقوله : ﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ ﴾ [النور : 32] ولم يأتِ النكاحُ فى القرآن الكريم إلَّا بمعنى الزواج ولا يمكن أنْ يأتى بمعنى الزنا ، وسنبحث المعنى الحقيقى للآية الكريمة ، وستَعْلم العِلَّةَ فى تحريم مثل هذا النِّكاحِ ، وسترى أوجهَ الشَّبَه بينَ الزانية والمشركة فى التحريم .

أخلاقُ الزَّانيةِ ونفسيَّتُها :

فالزانيةُ مخلوقةٌ شاذَّةٌ ، وشذوذها لا يتفقُ مَع طبيعة الرَّجل العادىّ ، من الناحية العقلية والنفسية والجنسية والأخلاقية ، فهى مسلوبة الشرف والعَفاف ، ظاهِرةُ اللؤم والنفاق ، تُرضى كلَّ طارق ، وتَدَّعى حُبَّ كلِّ زانٍ ،

تبتسم ابتسامة مِلؤها النفاقُ والخِدَاعُ ، وتَقْبَل عن نفس سقيمة عليلة وروح خادعة غاشة ، ألقت بُرْقُعَ الحياء ، ولَبِست أثوابَ الخبث والخديعة ، لا كرامةَ لها ، ولا قِوام لأخلاقها ، لها عقيدةٌ فاسدة ، ورأى ضالٌّ ، فلا تصلح أنْ تكُونَ شريكةَ رجُل مسلم مهذَّبِ النَّفْس قويم الأخلاقِ حسنِ الطباع ، ولقد قال تعالى : ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [النور : 26] .

عِلَّةُ البِغَاء :

والزِّنا يرجعُ إلى الأخلاقِ الفاسدةِ التى تملك حواسَّ المرء وتسيطر على أعصابه ، فهو شذوذٌ عن الطبيعة وانحلال فى الأخلاق ، واستسلام للمِزاج الشهوانىّ الفاسد ، وإذا أردنا بحث السبب الأصلىِّ فى ذلك وجدناه البُعْدَ عن التربية الدينيّة الصحيحة ، واستهتارَ الحكومات بأمر الدِّين ، وعدم تطبيق الشرع الإسلامىّ الذى يحتوى على السعادةِ الحقَّة للبشر ، فإنّ ما فيه من التعاليم الخُلقية ، والرياضات النفسية ، والعبادات العملية ، كفيلٌ بأن يُطهر القلوب ، ويهذبَ الأخلاق ، ويقوّم النفوس ، ويضمن وجودَ الوسَطِ الصالحِ الذى يُزيل الأثر الوراثىّ الذى ربما يكون قد تسربَ إلى النسل ، ويقوىَ الروح المعنويّة فى الأفراد ، ولا يَدَعْ مجالًا لتفشىِّ العِهْرِ والفسادِ فى الأرض ، ولو عملت الأممُ الإسلاميةُ بتشريعها لما وَجَدْتَ هذا الانحلال الخُلقىَّ الشديدَ ، ولما كنتَ ترى الخمورَ يتجرّعها الناسُ جَهْرَةً ، ولما وَجَدْتَ من يُسمونهم بالمسلمات والمسلمين وغيرهم يرتكبون أكبرَ الجرائم ، ويأتون أفسقَ الأمورِ تحتَ حمايةِ الحكومة ، وبتصريح خاصٍّ منها .

إنّك تجدُ معظمَ الزناة رجالًا ونساء من الأوساط الجاهلة بالدِّين ، ومن الشبان والشابات المُسْتَهْتِراتِ المغرَمَاتِ أوَّلَ الأمر بالحُبّ الخيالىّ ، تحتَ تأثير ما يقرأنَ من الروايات الداعِرة ، وما يُشاهِدْنَ فى دُورِ الخَيَالَةِ من المناظر الغَرامية ، التى يَعملُ المؤلِّف على إبراز مُمَثِّليها فى دَوْرِ الأبطالِ الكبار ، ويقعُ كذلك فى أحبالِ الرذيلةِ الإناثُ المعروفاتُ بقلَّة العزم وحُبّ الكسل ،

والميلِ إلى الخداع والغِشّ والنفاقِ ، وتراهم كذلك كالزُّناة من الشبان الذين يميلون إلى عدم الاكتراث بالنظم الأدبية العامة ، ويَدَّعون أنّ لهم رأيًا خاصًّا فى حياة اللهو والدَّعارة ، ويعتقدون أنهم رجالٌ بأعضائهم التناسلية ، لا بالعقل والدِّين والأخلاق ، ولو عُنى بمثل هؤلاء ، وساهمت الحكومةُ فى تربيتهم من نشأتهم التربية الدينية الحقة ، وعدم تيسير سُبل الفساد لهم ، وعملت على إقامة الحدّ الإسلامىّ عليهم ، لأنجتهم من الوقوعِ فى هذه الحيوانيّةِ الحمقاء .

وأما الهستريا والاغتلامُ وبعضُ الأمراض النفسية الجنسيةِ التى نجدها فى كثير من الزّناة ، فإنها لم تكن أَصْلَ الزنا ، بل إنّ هناك استعدادًا فى بعض الأفرادِ لمثل هذه العاهات ، فإذا ما وَلَجُوا بابَ الفسق اشتدَّ ظهورُ هذه الأمراضِ ، ولذلك خُيّل لبعض الباحثينَ أن هذه الأمراض سببٌ للوقوع فى أَسْرِ الزنا ، والحقيقةُ أن الزنا يثير الأمراض النفسية فيمن عنده استعداد لها ، ويوقع غيرهم حَتْمًا بعدَ ذلك فى شرِّها .

ويَدَّعِى بعضُ الباحثينَ أن الفقرَ كثيرًا ما يكُونُ فى سُقوط المرأة ، فهل هو سببٌ فى سقوطِ الرجل كذلك ؟! إن الفقرَ لا يمكن أن يقومَ بهدم الشَّرف والأخلاقِ ، فإنّنا قد نجدُ الشرفَ فى العائلات الفقيرة أَوْفَرَ منه فى الأُسرِ الغنيةِ ، وقد نجد عِزَّةَ النفس عندَ الفقراء أَوْفَرَ منها عند الأغنياء ، ولقد وجدنا كُلَّ الأنبياءِ والرُّسلِ ، ورأينا مُعظمَ متبعيهم من الفقراء .

وعلى كُلِّ حال فإنَّ الدِّين يَكْفينا كُلَّ هذه المقارنات ، فالرجلُ المتدَيِّنُ الذى يعبد الله تعالى لا يقعُ فى فاحشة الزنا ، سواءٌ كان عنده مالُ قارونَ أو كان أفقرَ الناس .

أَنْوَاعُ الزَّانياتِ :

وإنّك تجدُ حقيقةً عددًا كبيرًا من الزانياتِ فى درجةٍ كبيرة من الفقر ، وهؤلاءِ يُؤَلِّفْنَ طبقةَ العاهراتِ العموميات للجنود غير المسلمين والبحَّارة والسُّوقَة ، والمصيبَةُ الكُبرى أنّ الجنودَ المسلمين فى البلاد الشرقيةِ يقلِّدون الجنودَ الأجانبَ فى ارتكابِ هذه الجرائمِ مع أخواتهم من المسلمات .

وهنالك فصيلةٌ أُخرى من الزَّانيات ليس لها تصريحٌ رسميٌّ من الحكومة ، وهى فصيلةُ العاهرات اللاتى يمارسن هذه الصناعةَ فى الخفاء ، ويقعُ فى هذا القسم بعضُ صاحبات الحِرَفِ الحُرَّة ، كالتمثيل فى المسارح ودُور الخَيَالَةِ ، وكبناتِ الحوانيت والخادمات فى المقاهى والمطاعم والفنادق ومحَالّ حياكةِ الملابس والمَحلَّات التَّجارية ، وما شاكل ذلك من الحرف والصناعات الأخرى التى تمهد سبيل الاتصال بضعاف العقول ومرضى النفوس مِن الذكور ، ويقول فرويل فى كتابه ص 310 : إن 80 % من مومسات مدينة باريس (*) يمارسن مع الدّعارة حِرَفًا أُخرى .

وهناك كذلك من المومسات مُوسِرَات (**) ويرتكِبْنَ جريمةَ الزنا من وقت لآخرَ ، كُلّما أُتيحت لَهنَّ الفُرصة ، وذلك لشذوذِ العاطفةِ الجنسية ولقبح الوراثةِ ، وفئةُ الحظايا والخليلات لا يختلفن فى أخلاقهنَّ عن الأُخريات فى شىء ، وهنالك فى بعضِ النساءِ ذواتِ المالِ امرأةٌ تتخذُ عشيقًا لها شابًّا حَسَنَ البِزَّةِ ، مليحَ الوجه ، وتُنفقُ عليه من مالها ، ويكونُ هذا الاختيارُ فى الغالب ليس لأنها تعتبره رجلًا ، بل هو شذوذ فى طبعها ، وحسبُها أنْ يكون هذا المختارُ لها طائعًا ، ولهوًا تلهو به بعضَ الوقت ، والدليلُ على ذلك أنّ مِثلَ هذه المرأةِ قد تميلُ إلى لُوطىّ منعكسِ الشعور ، ولا يغيبُ عن الذهن أنّ المرأةَ الساقطة لا يقعُ اختيارُها مطلقًا إلَّا على الرجلِ الساقط مثلها .

وتجدُ لمعظم البغايا فريقًا من المختارين يتخذونهن لحاجتهن الشخصيةِ وللقيادة ، ويُنفقنْ عليهم من كسبهن من حياتهنّ الساقطة ، إذ تَعْتَقِدُ المومس أن هذا المختارَ هو الذى يوافقها ، والواقعُ أن هذا الزانى المختار أشد نفاقًا ، وأمعن تضليلًا لها ، وأبعد ادعاء لخداعها ، ومحاولة التلون بطبعها ليوافق مزاجها الفاسد ، أو تراه خلاف ذلك مصابًا هو الآخر بشذوذ العاطفة الجنسية ، أو مصابًا بأحد أمراضها .

(*) ويقول فى ص 308 : إن عدد المومسات فى برلين 30000 ، وفى باريس 40000 ، وفى لندن 60000 .

(**) يذكر فرويل ص 312 : أن من الموسرات من لهن ثروات طائلة بل منهن من يملكن ألقابًا اجتماعية محترمة كبعض الكونتيسات والبرنسيسات ، ويعرف عنهن أنهن عاهرات .

وذكر فرويل أنّ بعض الآباء يستغلون بناتهم بتسليمهن لبعض الأغنياء ليكسبوا من ورائهن مالًا ، وليس هذا الضربُ من الناس نادرًا ، ولكننا رأينا أمثلة منه كثيرة ، ولا نزال نقرأ فى الصحف عن مثل هذه المخلوقات .

الأَثَرُ الوراثىُّ للزنا :

وهنالك عنصرٌ وِراثىٌّ فى معظم الزُّناة يرجعُ سببُه إلى أثر وراثىّ سيئ مُنْحَدِر من أخلاق فاسدة ضعيفة ، ومستمدٌّ من أمزجة شهوانية مُبْتذلة ، فالبويضة تحملُ فيما تحمل من صفات ذلك المِزاجَ الشاذَّ ، وكذلك الرجلُ تتلوث نطفته بذلك الطبع فيه ، فيُصاب من النسل من يُصاب بهذا الخُلُقِ الإجرامىّ ، ولا يفوتنى أنْ أذكرَ أن البيئة الطيبة والتعليم الإسلامىّ الصحيح يُنَجيَانِ النسلَ حتمًا مما عساه يتسللُ ويندسُّ فى الذُّرية من العاهات النفسية الوراثية .

ذِكْرُ وِراثةِ البِغَاء فى القرآنِ :

ولقد جاءَ فى القرآن الكريم ذِكْرٌ لوراثةِ البِغاءِ ، تلك الوراثة التى أثبتَ العلمُ الحديثُ وجودَها ، جاء ذِكْرُ ذلك فى قوله تعالى حكاية عن مريم وولدها عليهما السلام : ﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ [مريم : 27 ، 28] .

صُعُوبةُ إقلاعِ المومِس عن الزِّنا :

وإنّه من الصعب استقامةُ الزانيةِ ، وصلاحُ أَخلاقها ، وذلك بعدَ أنْ تَلَوَّثت رُوحُها ، وضعُفت نفسُها ، وسقطت فى تلك البؤرةِ ، ويستوى فى الحالتين كونُ هذا السقوط ناشئًا من الطبع الوراثىّ أو التطبع ، الذى صار بعدَ ذلك خُلُقًا مكتسبًا يُنْقَلُ لوارثيه ، ويَتَعيَّنُ تأثيرُه فى النسل .

فلن تستطيعَ الزانيةُ النهوضَ من عَثْرتها ، ولا تملكُ القيامَ بعد كَبْوتها لِتَملُّكِ المِزاج الشهوانىّ عليها ، ولانطباع صورةِ الحياةِ الجنسيةِ على مُخها ،

وَلِبُعْد أَثَرِ الاستهتار الجنسىّ فى مجموعة أعصابها ، ولتملُّكِ العملية الجنسية على خيالها ، وإعدام الشهوة البهيميّة كُلَّ العواطف الأُخرى فيها .

والزانيةُ تَنْزِعُ بنفسها إلى هذه العادةِ ولَو خُيِّلَ إلينا أَنَّهَا تركتْها أو قاومتْ تأثيرَها فى نفسها ، ولن تفارقَها تلك اللوثةُ الوضعيةُ ، ولن يبرحَها هذا الطبعُ الشاذُّ ، ويَصْدُقُ فيها قَولُ الشاعر :

إذا طَمَثتْ قَادَتْ ، وإنْ طَهُرَتْ زَنتْ فتلك لتَزْنى دائماً وَتَقُودُ

لولا أنّ الزانيةَ لا تَسْتَنْكِفُ من ارتكاب الجريمة أثناءَ الطَّمث .

والزانيةُ إنْ كانت قبيحة المنظر مشوهة الخلقة لا ترجو العثورَ على من يضاجعها ، ولو أنّ الطيورَ تقع على أشكالها ، أو بلغت سنًّا يَنْفِرُ منها الزناةُ ، ويبعد عنها أشباهها ، فهى تلجأ إلى القيادة لتُشبع إلى حدٍّ ما تلك الغريزة التى تأصلت فى نفسها ، وتغلغلت فى رُوحها ، ولتُرضى الخُلُق السيئ الذى جُبلت عليه ، وتأثرت به أعصابُها كلَّ التأثر .

الزُّناةُ مِن الذّكور هم كالمومسات مِن الإناث :

ولا تختلفُ أخلاقُ الزّانى عن أخلاقِ الزانية فى شىء ، فالزانى أخلاقُه كأخلاق البَغِىّ ونفسه كنفسها تمامًا ، فلا يختلفُ الذّكر من البشر الذى يتردد على مَحالّ الدعارة عن الأُنثى التى تتردّد من حين لآخر على نفس هذه المحالِ ، وهذا يُفسّر لك السقوطَ الخُلقىَّ الشديدَ الذى تشاهده فى بعض الذكور من الشبان والرجال فى هذا العصر ، وتسمع عنه فى سائر العصور ، فتجد الزانى من هؤلاء ، وقد انطبعت صورة الحياة الجنسية الشاذة على مُخَيِّلَتِهِ ، وتمركزت عقليته فى أعضائه التناسلية ، فتجد أن أحاديثَ هؤلاءِ السِّفْلَةِ لا تجدُ مجالًا إلَّا فى ذِكْرِ العملية الجنسية ولا تجد لهؤلاء الأوشابِ(*) موضعًا للافتخار إلَّا بمصاحبة المومسات والفاجرات ، ويزهو الواحدُ منهم بمرافقته للبغايا ، وتراه من ضيق عقليته وحقارتها أن يزعم أنه مَحطُّ أنظارِ الزانيات ، ولا يدرى

(*) الأوشاب : جمع وِشْب ، أىْ الأوباش والأخلاط من الناس . انظر : « الوسيط » (و ش ب) .

أن الزانية لا تُفرّق بين الذكور ولا تُعْنَى إلَّا بمن تعيش على حساب ضعفه العقلىّ ، وسقوطه النفسى الشديد . قال تعالى : ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [التوبة : 67] .

ولقد مررْتُ فى طريقى فى الحياة بأمثال هؤلاء وراقبتُهم كما يراقب الباحثُ المدقِقُ القرودَ والذئاب والأفاعى وغيرها من الحيوانات الحقيرة فى أقفاصها فى حدائق الحيوانات ، ولا أجد حرجًا أن أراقبَ القرود وهى فى محبسها يَعْبث ذكورها بإناثها وهى لا تُلقى بالًا إلى المتفرجين من العقلاء ، وتَحْسَبُ نفسَها أنّها على حياة الفطرة ، وأنّها لا تأتى منكرًا ، بل إنّها تُلبى نداءَ الطبيعة ، وتبل الظمأ الحيوانىَّ الحقيرَ .

تجدُ الزّانى مِن هؤلاء ولا تستطيعُ أنْ تأخذ منه كلمة الشرف ، ولا يمكن أن تأمن له جانبًا إلَّا إذا أمنتَ جانب الحية السامة الرَّقْطاء : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ ﴾ [المنافقون : 4] قال تعالى عن أمثالهم : ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان : 44] ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة : 7] ، ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ (*) (**) [البقرة : 9 - 16] .

(*) **أى إذا قيل لهم** : آمنوا بالله ورسوله وانقادوا لله ولرسوله كما يفعل المؤمنون الحقيقيون ، وكما ينقاد لربهم ولرسولهم المسلمون .

(**) **معنى ذلك** : وصفهم بالجبن والنفاق ، والتلون والخداع ، وعدم الثبات على الحق .

وما الزَّانى إلَّا حيوانٌ منحلُّ الخُلُق ، سقيمُ النفس ، خبيثُ الطبع ، لئيمٌ مخادعٌ ، تحسَبه إنسانًا إذا قابلته ، وتخاله رجلًا إذا لمحته ، ولكنّك تخاطبه وتحادثه فينكشف لك عن حيوان دنىء حقير ، تَفْضُلُهُ الأنعامُ بما فيها من الصفات النافعة ، ختم الله على قلبه فلا يسمع إلَّا لحنَ الخبث ، ولا تتلقى أذنه إلَّا نداءَ الفحش والفجور ، ولا يرى إلَّا القبيح ، فإذا صادف ناظريه الشيءُ الحسنُ ، انعكس على مرآة عقله السقيم فيراه عليلًا شائنًا ، يسير فى الحياة مخادعًا يحاول أنْ يظهر بمظهر سائر الرجال ، ويعمل جهده فى إخفاء سريرته فتفضحه سيرتُه ، فيبدو أمام الناس عاريًا من الفضائل ، مجردًا من الصفات الإنسانيةِ السامية ، إذا نصحتَه وأنت ترجو إصلاحَه نبَذ نصيحتَك نَبْذَ النوّاة ، وتعجَّب منك كيف لا ترى بمرآته العمياء ، وتفهم كما يفهم عقلهُ العليل ، وإذا طلبتَ منه الانقياد إلى تعاليم الله واتباع الدين الحق ، أخذته العِزّةُ بالإثم ، وكبر عليه أن يسيرَ على طريق متبعى الدِّينِ ؛ لأنهم كما يرى عقلُه الضعيفُ سفهاءُ ، والزانى - بجانب ذلك - كله نفاقٌ ؛ فإذا وجد أنه من مصلحته أن يَدّعى الصلاح أظهر الانقياد للفضيلة ، وقد يتحمس بعض الشيء لها ؛ فإذا خلا إلى شياطينه صارحهم بِطَوِيَّتِهِ ومال إليهم بكُليّته .

نِفاقُ الزُّناةِ :

يَخْدَعُ الزانى الزانيةَ ، وتَخدعُ الزانيةُ الزانى ، يدّعى الزانى أنه يغرم بالزانية ، وتدعى الزانية أن الزانى بها هو حبيبُها ووحيدُها ، وإذا كان الزانى مصابًا بمرض من الأمراض النفسية الجنسية كمرض استعمال الشدّة للتنبيه التناسلى مثلًا ، ادعت الزانيةُ أنها تحبُّ الرجلَ الذى من هذا الضرب ، وتجاريه فى ذلك ، فيحسَبُ نفسَه بطلًا من الأبطال ، ويخالُ نفسَه رجلًا تخضعُ له النساء ، وقد تكون الزانيةُ مصابةً بنفس الداء ، فيدّعى الزانى أنه يستهين بكل شىء فى سبيل إرضائها ، ويقول ما يقوله المَرْضَى بمرض التذلُّل للمرأة للتنبيه التناسلى (ضرب الحبيب مثل أكل الزبيب) ، وهكذا يتآخى النفاقُ ، وتتآخى العللُ النفسية الجنسية ، وتتفق الطباع الشاذّة ، وتتآلف قلوب الزناة ، وقد بلغت بهم الدرجة إلى أن اعتبروا السيئ حَسنًا ، ورأوا الحَسن قبيحًا ، قال

تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف : 179] .

أراد الله تعالى أن يجعل كثيرًا من الإنس كذلك ، وشاء ذلك كما شاء أن يخلقَ القردة قردة ، والأنعام أنعامًا ، والذئاب ذئابًا ، والحشرات حشرات .

فمن وَجَدَ أن الله تعالى قد خلقه زانيًا فليعلم أن الله أراد له العذاب والتحقير ، ومن وجد رحمة الله هدته إلى طريق الرُّشد شكر الله وحمده أن جعله بعيدًا عن سبيل الغِواية والضلال .

أَمراضُ الزُّناةِ النّفسيّة :

والزنا يُحدِث فى مقترفيه أمراضًا نفسية شاذّة ، وعِللًا جنسية مهلكة ، وذلك لتأثير هذه الجريمة على المجموعة العصبية ، ولانحراف المراكز العليا عن وظيفتها الطبيعية حتى يغدو المرءُ بممارسة هذه العادةِ إنسانًا غيرَ طبيعى ، ويغدو من الناحية الجنسيّة عليلًا شاذًّا ، وأمثالُ هذه الأمراض الجنسية النفسية التى تحيط بالزناة ، وتُفقدُهم رجولتهم : أمراض العنف واحتمال الأذى والعشق الخيالى ، والنفور الجنسى ، وانعكاس الشعور ، وتحقير المرأة ، والاستعراض ، وغيرها من العلل الشاذة ، بل إن الأغرب من ذلك أن الزنا يوقع مرتكبيه فى مرض أشدّ منه خطورة ألا وهو اللواط ، إذ يبلغ الحال بالزانى أن تضطرب أعصابه ، ويختلّ مركز الشعور الجنسىّ فى مخه ، ويزداد فسادُ مِزاجِه فيصبح لائطًا ، وثبت أنّ الذى يُصاب بداء اللواط سواء عنده فَعل أو فُعِل به ، فيغدو الزانى بما ذكرت ، وهو وباء وشر مستطير .

وَسَطُ الزُّناةِ :

ولكى تعلمَ شيئًا عن خُلُق الزانى انظرْ إلَى الوسَط الذى يعيش فيه ، ولستُ أعنى بذلِك أهلَه ، فقد يكون لا يَمُتّ إليهم بغير صلة القرابة ، بل أعنى الوسَط الذى يعيش فيه بروحه الفاسدة ونفسه الدنيئة ، وانظر إلى

البيوت السافلة التى يتردد عليها ، ودور الملاهى التى يرتادها ، وانظر إلى أصحابه الذين يلتصق بهم ويصاحبهم ، تجد الجميع يُكَوِّنون بيئةً خاصة بالفساد ، ويؤلِّفون وسَطًا فاسدًا موبوءًا ، وترى هؤلاء وكأنهم يعيشون بمعزِل عن العالم(*) وبمعزِل عن الصواب والرُّشد ، ولا تجد فرقًا بين هؤلاء وبين المجانين الذين يعيشون فى وادٍ وباقى الخَلْق فى وادٍ ، ولولا أن الله تعالى خلقهم على صورة الإنسان لحسِبْتَهم قرودًا ، بل لخِلتهم رممًا وأوساخًا .

الزُّناةُ والخمرُ :

وهنالك شرطٌ أساسىٌّ فى الزناة ، وصفةٌ تُلازِمُهم أبدًا هى : شرب الخمور ، ولذلك أحيلك على مبحث الخمر ؛ لترى كيف ينغمس الزانى فى جميع الشرور ، ويقترفُ كلَّ المفاسد ، ويأتى شتى الآثام .

الزِّنا والزَّواج :

وإنّى ليأخُذُنى العَجَبُ حينَ أرى عُقولًا لا تستطيعُ أنْ تفرِّقَ بين الزواج والعملية التناسلية ، وتحسب أن الزواج لا فرقَ بينه وبين الزنا إلّا فى أمر صورى هو العقد الشرعى ! ولقد جهل هؤلاء أن الزواجَ هو نَواةُ المجتمع وأصلُ وجوده ، وهو القانون الطبيعىّ الذى يسير العالم على نظامه ، والسُّنةُ الكونيةُ التى تجعل للحياة قيمة وتقديرًا ، وأنه هو الحنانُ الحقيقىُّ والحبُّ الصحيحُ ، وهو التعاون فى الحياة والاشتراك لبناء الأسرة وعمار العالم .

غايةُ الإسلام مِن تحريمِ نكاحِ الزُّناة :

والدِّينُ الإسلامىُّ لم يُرِدْ للمُسلم أن يُلْقَى بين أنياب الزانية ، أو المسلمة أنْ تقعَ فى يد الزانى وتحت تأثير روحه الدنيئة ، وأن تشاركه تلك النفس السقيمة ، وأن تعاشرَ ذلك الجسم الملوث بشتى الجراثيم ، والموبوء بمختلف العلل والأمراض .

(*) لعل هذا الانعزال يفهم من قوله عليه الصلاة والسلام : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن » رواه البخارى (2475) ، فهو منعزل عن المؤمنين بعيد عنهم حين ارتكاب الفاحشة .

والدينُ الإسلاميُّ فى كلّ أحكامه وأوامره ، وفى كل محرَّماته ونواهيه ، لا يريدُ غيرَ إسعاد البشر ، والسموَّ بالعالم إلى المستوى الأعلى الذى يريدُ الله أن يبلغَه الجنسُ البشرى ، والذى ذكره تعالى فى قوله : ﴿ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [الصف : 8] .

يريدُ الإسلامُ للناس سعادةَ الدنيا ، وهى التى تَعنى حقًّا سعادةَ الآخرة كذلك ، قال تعالى : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [النساء : 134] ﴿ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : 72] .

الزُّناةُ ينبوعٌ لأخطرِ الأمراضِ :

وكيف يَسْعَدُ الزّناةُ فى دنياهم وهم ينبوعٌ لأخطر الأمراض وأشدِّها فتكًا بهم ، وأكثرها تغلغلًا فى جميع أعضائهم ، ولعلّ الزُّهرىَّ والسّيلان من الأمراض التناسلية ، التى تجعل وحدها الزناةَ شرًّا مستطيرًا ، يجبُ اقتلاعُه من العالم وخلْعُه من الأرض[1] .

أَولادُ الزُّناةِ :

وكيف تَسْعَدُ إنسانيةٌ فيها مثلُ هؤلاء الزناة ينقلُون أمراضَهم النفسيةَ إلى نسلهم ، وينقلُون مع هذه الأمراض النفسيةِ أمراضَ الزهرىّ الوراثىّ ، بل كيف تسعدُ عائلةٌ تلد أطفالًا مشوهى الخُلُقِ والخَلْقِ ، بسبب الالتهابات التى تصيب الأعضاء التناسلية ، والعلل التى تطرأ عليها .

وَجْهُ الشَّبه بين الزُّناة والمشركينَ :

والمسلمُ المتأدبُ بأدب القرآن الكريم ، لا يمكن أن يعيشَ مع زانية لا تفكّرُ تفكيرَه ، ولا يستطيعُ أن يعاشر امرأة لا تحيا حياته المستقيمة ، ولا يستطيع الارتباطَ برابطة الزواج مع كائنة لا تشعر شعوره ، وهو يعلم أن

---

(1) ليس هذا الضررُ موقوفًا على الحياة الدنيا ، بل يتعدّاها إلى الدار الآخرة أيضًا .

الله تعالى قال عن الزواج : ﴿ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم : 21] ، فأين المودة التى تحصل بين المسلم والزانية ؟ وأين نفس الزانية من تلك النفس التى تسكن إليها نفس المؤمن الصحيح الإيمان ؟ إن المسلم الذى لا يستطيع نكاح الزانية كما بينا من فساد نفسها ، وشذوذ عاطفتها ، لا يمكن كذلك أن يعيش مع مشركة لا تعتقد اعتقاده ، ولا تؤمن إيمانه ، ولا ترى فى الحياة ما يراه ، لا تُحرّم ما يحرّمه عليه دينه من الفسق والفجور ، ولا تعترف بالمبادئ الإنسانية السامية ، التى ينصّ عليها الإسلام ، لها عقيدتها الضالة ، واعتقاداتها الباطلة ، ولها التفكير البعيد عن تفكيره ، والعقل الذى لا يمتّ إلى عقله بصلة ، ولذلك قال تعالى : ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [البقرة : 221] .



المبحث السادس

اللِّوَاطُ وأَضْرارُه

جاء ذِكْرُ اللواطِ فى القرآن الكريم فى كثير من المواضع ، فأشار إليه تعالى فى سور : العنكبوت ، والأعراف ، وهود ، والنمل ، والقمر ، والذاريات والشعراء ، وذلك للتغليظ على مرتكبى هذه الفاحشة ، ولتنبيه البشر إلى تلك اللَّوْثة التى تنحدر بالمرء إلى أحطِّ درجات السقوط والانحلال . والدّين الإسلامىّ دَأْبُهُ فى ذلك دَأْبُهُ فى كلّ ما يحرّم ، يريد تطهيرَ الأرواح من خُبْثِ الأهواء وتنجيتَها من فاسد العادات ، وتحذيرَها من سلوك طريق الشرور ، وصونَها من التلوّث بأوحال المعاصى والآثام .

قَوْمُ لُوْطٍ :

وكان أهلُ (سدوم) وهى إحدى قرى (فِلَسْطِين) بجوار البحر الميّت أَوَّلَ من انحدروا إلى بؤر الفساد والفجور ، وانغمسوا فى حَمْأَةِ الفسق ، وأَتَوْا أكبرَ الفواحش ، واقترفوا أعظم الآثام .

ولقد أرسلَ الله تعالى فيهم لوطًا يحذِّرهم من مَغَبَّةِ أعمالهم ، ولينذرَهم من سوء عاقبتهم : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ [الشعراء : 161 - 169] .

وحكى عنهم تعالى كذلك فى قوله : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً

مِن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ [الأعراف : 80 - 84] .

وانظر إلى بعيدِ تطرُّفِهم ، وكبير تبجُّحهم ، وعظيم استهتارهم بقواعد الذوق ، ومقدارِ تباعدهم عن كريم الخُلق ، وشديدِ انحرافهم عن طريق الآداب ، إن ذلك ليتمثل فى تهجمهم على ضيف لوط عليه السلام قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ﴿٧٨﴾ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ﴾ [هود : 77 - 83] .

عِلةُ إهلاكِ قَوْمِ لُوطٍ :

وما أهلك الله قومَ لُوط إلَّا بعد أن حَكمــوا هم على أنفسهم بذلك بإتيانهم ﴿ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ ﴾ وتَرْكِهم ما خلَـق لهم ربُّهم من أزواجهم ، ولتركهم سبيلَ الإنسال ، وهو مما يحتم انقراضهم فى جيل واحد ، وقد قال تعالى : ﴿ نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ ﴾ [البقرة : 223] وهل سواهم مكانُ إنبات ؟

أهلك الله قومَ لوط وأفناهم : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ﴾ [هود : 117] بل هم الذين حكموا على أنفسهم بالفناء ،

وأرادوا لأنفسهم الزوال والانقراض ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت : 40] .

عَدَمُ المَيل للمرأةِ :

يبلغُ الأمرُ باللائط ألا يميلَ للنساءِ ، وقد يصل به الحالُ إلى أنه لا يملكُ مباشرة امرأة ما .

إنّ المرأةَ التى تقعُ فى يد مثل هؤلاء كزوجة ، لهى ضحيةٌ معذَّبةٌ لا تلاقى أىَّ نوع من العطف ، ولا تفوز بأىِّ لون من ألوان الصداقة ، ولا تنالُ غيرَ التحقير والامتهان ، ولا تجدُ سِوى التركِ والهِجْرَانِ ، لا تستطيع الحصول على تلك العاطفةِ الساميةِ التى تَصِلُ الزوجين ، وتؤلّف بينهما ، بل هى عاجزة عن الحصول على النسل محكوم عليها بعدم التعقيب .

من هذا يتبينُ لنا أحدُ الأخطار الكبيرة التى تصيب المجتمع بانتشار هذا الداء بين أفراده ، وتحكم عادته فيهم ، وسوف نرى مبلغ أثر هذه الفاحشة فى الجهاز التناسلىّ للرجل ، وكبير تعطيله لحركته ، وعظيم إتلافه لوظيفته .

الانعكاسُ النَّفسىُّ :

وإنَّ عادةَ اللِّواط لَتَغْزُو النفسَ ، وتؤثرُ فى الأعصاب تأثيرًا خاصًا ، أحَدُ نتائجه الإصابةُ (بالانعكاس النفسىّ) فى خلق الفرد فيشعر فى صميم فؤاده أنه ما خُلق ليكون رجلًا ، وينقلب به الشعور إلى شذوذ ، ويصاب به كل من لا يرعوى عن غَيِّهِ ولا يحاولُ تثبيت فؤاده بالدِّين ، وتعويد نفسه على طاعة الخالق والائتمار بأوامره ، واجتناب نواهيه .

ينعكسُ شعورُ اللائط انعكاسًا غريبًا ، فيشعرُ بميل إلى بنى جنسه ، وتتجه أفكاره الخبيثة إلى أعضائهم التناسلية ، ومن هذا تستطيع أن تتبين العلةَ الحقيقيةَ فى إسراف بعض الساقطين فى التَزيُّن ، وتقليدهم النساء فى وضع المساحيق المختلفة على وجوههم ، ومحاولتهم الظهور بمظهر الجمال بتحمير أصداغهم وتزجيج حواجبهم ، وتثنيهم فى مِشيتهم إلى غير ذلك مما

نشاهده جميعًا فى كل مكان ، وتقع عليه أبصارُنا فى كثير من الأحيان ، ولقد أثبتتْ كتبُ الطبّ كثيرًا من الوقائع الغريبة التى تتعلق بهذا الشذوذ ، أُضْرِبُ صفحًا عن ذكرها .

إِضْعافُ القُوى النفسيّة الطَبيعيّة :

ولا يقتصر الأمرُ على إصابة اللائط بالانعكاس النفسىّ ، بل هنالك ما تسببه هذه الفاحشةُ من إضعاف القوى النفسية الطبيعية فى الشخص كذلك ، وما تُحدثه من جعله عُرضة للإصابة بأمراض عصبيّة شاذّة ، وعلل نفسية شائنة ، وتُفقده لذةَ الحياة ، وتَسْلُبُهُ صفةَ الإنسانية والرجولة ، فتحيى فيه لوثاتٍ وراثيةً خاصةً ، وتَظْهَرُ عليه آفاتٌ عصبيةٌ كامنة تُبديها هذه الفاحشةُ ، وتدعو إلى تسلطها ، ومثل هذه الآفاتِ العصبيةِ النفسيةِ الأمراضُ الساديةُ والماسوشيةُ والفيتشزم وغيرها .

التأثيرُ على المُخِّ :

واللِّواطُ بجانب ذلك يُسبب اختلالًا كبيرًا فى توازُن عقلِ المرء ، وارتباكًا عامًا فى تفكيره ، وركودًا غريبًا فى تصوراته ، وبلاهة واضحة فى عقله ، وضعفًا شديدًا فى إرادته .

وإن ذلك ليرجعُ لقلة الإفرازات الداخلية التى تُفرزها الغُدّةُ الدرقيةُ والغددُ فوقَ الكلى وغيرُها ، مما يتأثر باللواط تأثيرًا مباشرًا ، فيضطرب عملُها وتختلّ وظائفُها .

وإنّك لتجدُ هنالك علاقةً وثيقةً بين النيورستاتيا واللّواط ، وارتباطًا غريبًا بينهما ، فيصابُ اللائطُ بالبله والعبط وشرود الفكر ، وضياع العقل والرشاد .

السُّوَيداءُ :

واللِّواطُ إما أن يكونَ سببًا فى ظهور مرض السويداء أو يغدو عاملًا قويًّا

على إظهاره وبعثه ، ولقد وُجد أن هذه الفاحشةَ وسيلةٌ شديدةُ التأثيرِ على هذا الداءِ من حيثُ مضاعفتُها له ، وزيادةُ تعقيدها لأغراضه ، ويرجع ذلك للشذوذ الوظيفيّ لهذه الفاحشة الـمُنْكَرَة وسوء تأثيرها على أعصاب الجسم .

عَدَمُ كِفَايةِ اللِّواطِ :

واللِّواط علةٌ شاذّة ، وطريقةٌ غيرُ كافية لإشباع العاطفة الجنسية ، وذلك لأنها بعيدة الأصل عن الملامسة الطبيعية لا تقوم بإرضاء المجموع العصبى ، شديدةُ الوطأة على الجهاز العضليّ ، سيئةُ التأثير على سائر أجزاء البدن .

وإذا نظرنا إلى فسيولوجيا الجماع والوظيفة الطبيعية التى تؤديها الأعضاءُ التناسليةُ وقتَ المباشرة ، ثم قارنَّا ذلك بما يَحْدُثُ فى اللواط ، وجدنا الفرقَ بعيدًا ، والبونَ بين الحالتين شائعًا ، ناهيك بعدم صلاحية الموضع وفَقْدِ ملاءمته للوضع الشاذ .

ارتخاءُ عضلاتِ المستقيم وتَمَزُّقُهُ :

وإنَّك إذا نظرت إلى اللواط من ناحية أخرى وَجدْتَهُ سببًا فى تمزق المستقيم وهتك أنسجته ، وارتخاء عضلاته ، وسقوط بعض أجزائه ، وفقد السيطرة على المواد البرازية ، وعدم استطاعة القبض عليها ، ولذلك تجد الفاسقينَ دائمى التلوثِ بهذه المواد المتعفنة بحيث تخرج منهم بغير إرادة أو شعور .

عَلاقةُ اللواطِ بالأخلاقِ :

واللواطُ لُوثةٌ أخلاقيّة ومرضٌ نفسيّ خطير فتجد جميعَ من يَتَّصفون به سيئي الخُلق ، فاسدى الطباع ، لا يكادون يُميزون بين الفضائل والرذائل ، ضعيفى الإرادة ، ليس لهم وِجْدانٌ يُؤَنِّبهم ولا ضميرٌ يَرْدَعُهُمْ ، لا يتحرّج أحدهم ولا يردعه رادع نفسيّ عن السطو على الأطفال والصغار واستعمال العنف والشدة لإشباع عاطفته الفاسدة ، والتجرؤ على ارتكاب الجرائم التى نسمع عنها كثيرًا ، ونطالع أخبارها فى الجرائد السَّيارة وفى غيرها ، ونجد تفاصيل حوادثها فى المحاكم ، وفى كُتب الطبّ .

اللِّواطُ وعَلاقتهُ بالصِّحة العامَّةِ :

واللِّواط فوقَ ما ذكرتُ يُصيب مقترفيه بضيقِ الصدر ويَرْزؤهُمْ[1] بخفقَان القلب ، ويتركهم بحال من الضعف العام يُعرضهم للإصابة بشتى الأمراض ، ويجعلُهم نَهْبة لمختلفِ العلل والأوصاب[2] .

التأثيرُ على أعضاءِ التناسُلِ :

ويُضْعِفُ اللواطُ كذلك مراكزَ الإنزال الرئيسية فى الجسم ، ويعمل على القضاء على الحيوانات المنوية فيه ، ويُؤثر على تركيب مواد المَنِىّ ، ثم ينتهى الأمرُ بعد قليل من الزمن بعدم القدرة على إيجاد النسل والإصابة بالعقم مما يحكم على اللائطين بالانقراض والزوال .

التيفودُ والدسنطاريا :

ونستطيع أن نقول : إن اللواطَ يُسبب بجانب ذلك العدوى بالحمى التيفودية والدسنطاريا وغيرهما من الأمراض الخبيثة ، التى تنتقل بطريق التلوث بالمواد البرازية المزَودة بمختلف الجراثيم المملوءة بشتى أسباب العلل والأمراض .

أمراضُ الزِّنا :

ولا يَخْفى أن الأمراضَ التى ذكرناها فى مبحث الزنا يمكن أن تنتشر كذلك بطريق اللواط ، وتُصيب أصحابَها ، فتفتك بهم فتكًا ذريعًا ، فتُبلى أجسامَهم ، وتَحْصُد أرواحَهم .

مما تقدّم تتبينُ حكمةُ التشريعِ الإسلامىّ فى تحريم اللواط ، وتظهرُ دقةُ أحكامه فى التنكيل بمقترفيه وتخليص العالم من شرورهم .

---

(1) يَرْزَأُهُمْ : يُصيبهم .

(2) الأوصاب : جمع (وَصَب) أى مرض .

المبحث السابع
الخمر وأضراره (*)

قال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ .

[المائدة : 90 ، 91]

(*) الخمر محرَّمة شرعًا ، وقد نزل هذا التحريم على مراحل ثلاثة ، هى :

المرحلة الأولى : التنبيه لما فيها من الإثم الكبير ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾ [البقرة : 219] .

المرحلة الثانية : تحريم شربها قبيل الصلاة ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء : 43] .

المرحلة الثالثة : التحريم التام ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة : 90] .

وروى البخارى عن أنس ﷺ **قال** : « إنى لأسقى أبا طلحة وأبا دجانة وسهيل بن البيضاء خليط بسر وتمر إذ حرمت الخمر ، فقذفتها وأنا ساقيهم وأصغرهم ، وإنا نعدها يومئذ الخمر » البخارى - كتاب الأشربة .

وروى ابن جرير عن أنس بن مالك **قال** : « بينما أنا أدير الكأس على أبى طلحة وأبى عبيدة وأبى دجانة حتى مالت الرءوس من خليط بسر وتمر سمعت مناديًا ينادى : ألا إن الخمر قد حرّمت ، **قال** : فما دخل علينا داخل ولا خرج منا خارج حتى أهرقنا الشراب ، وكسرنا القلال ، وتوضأ بعضنا ، واغتسل بعضنا ، وأصبنا من طيب أم سليم ، ثم خرجنا إلى المسجد ، فإذا رسول الله ﷺ يقرأ : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ ﴾ » . وقد تعجب بعض مفكرى الغرب من سرعة امتثال العرب فى القرن السابع الميلادى للأمر بتحريم الخمر ، رغم أنهم لا يعرفون شيئًا عن ضررها ، ومع ذلك نمى الإسلام فيهم قوة الإرادة بحيث بصق السكارى ما فى أفواههم من خمر وأراقوها على الأرض إلى غير رجعة .

أسلوب الإسلام فى القضاء على عادة شرب الخمر :

الإسلام دين الفطرة ، وقد استطاع بعدة أساليب أن ينهى هذه العادة الضارة ، ومن أساليبه :

1 - الربط الوثيق بين الأحكام الشرعية والجزاء الأخروى ، **يقول** ﷺ : « من شرب الخمر لم يقبل الله صلاته أربعين صباحًا » ، وكذلك « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » البخارى ، كتاب الأشربة .

=

تعريفُ الخمرِ :

والخمرُ هى تلك السوائلُ المعرُوفةُ المُعَدَّةُ بطريق تخمُّر بعض الحبوب أو الفواكه ، وتحوّل النشاء أو السكر التى تحتويه إلى غوْل بوساطة بعض كائنات حية لها قدرةٌ على إفراز موادّ خاصة يُعَدّ وجودها ضروريًّا فى عملية التخمر .

عِلةُ التسميةِ :

وقد سُميت خمرًا لأنها تُخَمِّر العقلَ وتستره أو لأنها تُرِكَتْ حتى أدركت واختمرت أو لأنَّها تُخامر العقل أى تخالطه .

خلايا التخمُّر :

وخلايا التخمُّر كائناتٌ حيَّةٌ مستديرةُ الشّكل يبلغُ قطرُها $\frac{1}{1000}$ من البوصة ، وتتكاثر هذه الخلايا بطريق الإنماص والتبرعم ، فتنفصل البراعمُ لتكوّن خلايا أخرى ، وتتمّ هذه الانقسامات بسرعة فائقةٍ ، وتفرزُ هذه الخلايا موادّ خاصة تُسمى (زيماز) يُقال إنّها العامل الرئيسىّ فى عملية التخمّر ، ويُطلق اسم الانزيمات على المحتويات غير الحية فى خلايا التخمّر

= 2 – تحريم ما يؤدى إلى تسهيل شرب الخمر « لعن رسول الله ﷺ فى الخمر عشرة : عاصرها ، ومعتصرها ، وشاربها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وساقيها ، وبائعها ، وآكل ثمنها ، والمشترى لها ، والمشتراة له » .
انظر : « سنن الترمذى » ، كتاب البيوع .

3 – التنبيه على أضرار الخمر « الخمر أم الفواحش وأكبر الكبائر ، من شربها وقع على أمه وخالته وعمته » .

4 – منع الجلوس مع شارب الخمر ، ولذلك عاقب عمر بن عبد العزيز صائمًا جلس مع قوم يشربون الخمر محتجًا بقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ [النساء : 140] .

5 – منع الدعاية لها والتغنى بها ، ولذلك عاقب سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه أبا محجن الثقفى لتغنيه بها فى شعره .

6 – إقامة الحدّ على شارب الخمر ، عن على بن أبى طالب رضي الله عنه « جلد رسول الله ﷺ أربعين ، وأبو بكر أربعين وعمر ثمانين ، وكلٌّ سُنةٌ ، وهذا أحب إلىّ » **انظر** : مسلم ، كتاب الحدود .

7 – التذكير بالعقوبة الأخروية « مدمن الخمر كعابد الوثن » **انظر** : مسند أحمد ، مسند بنى هاشم « فإن عاد الرابعة – إلى شرب الخمر – كان حقًّا على الله أن يسقيه من طينة الخبال ، **قيل** : وما طينة الخبال ؟ **قال** : صديد أهل النار » .

كالدياستيز الذى يحول النشاء إلى سكر وكاللبيبسين والتربسين فى الجهاز الهضمىّ فى الإنسان .

الغول (الكُحُول) :

والعاملُ الرئيسىّ فى الخمر هو الغولُ ، ويُسمّى كذلك الكُحُول أو الكُحُلّ أو الكُهول أو الكُؤول أو السبرتو ، ولفظ الكؤول يُطلق فى علم الكيمياء على فريق خاص من المواد الكيمائية تحتوى على ذَرَّة من الأكسجين وذرة من الهيدروجين مجتمعتين ، ولأضرب مثلًا لبعض أصناف الكؤول مبينًا تريكيبها الكيمائىّ :

الكؤول ميثيل (ك يد$_3$. أ يد)(*) (والكؤول إثيل (ك$_2$ يد$_5$. أ يد) والكؤول بروبيل (ك$_3$ يد$_7$. أ يد) والكؤول بيوتيل (ك$_4$ يد$_9$. أ يد) والكؤول إميل (ك$_5$ يد$_{11}$. أ يد) والكؤول هكسيل (ك$_6$ يد$_{13}$. أ يد) وغيرها . والخمرُ لا تحتوى على كلٍّ هذه الأنواع من الكؤول . ونوعٌ واحد منها هو الذى يُعَدّ الجزءَ الفعّال فى الخمر ، وهذا النوع من الكؤول إيثيل الآنفُ الذكرِ ؛ فإذا ذكرْنا لفظَ الغول أو الكحول أو الكؤول مجرَّدًا ، عنينا به نوعَ الإيثيل ، فهو المعروفُ فى تجارة الخمر وغيرها ، فيقال المشروبات الكؤولية ، ولا يُفهم منها إلّا الإيثيلية .

والغولُ الإيثيلى مادةٌ سائلة طيّارة ، عديمةُ اللون ، لها مذاقٌ كاوٍ ، وتغلى فى درجة 78 سنتيجراد ، ولها قابلية عظيمة للاشتعال ، ولها قوة مطهِّرةٌ شديدةُ المفعولِ ، ويُستعمَل الغول فى تحضير الصِّبْغات المختلفة المعروفة فى علم الأقرباذين وإذابة بعض العقاقير .

أهَمُّ أنواعِ الخمورِ :

وتُوْجَدُ الخمورُ فى الأسواق بأسماءٍ مختلفة ، وقد تُقَسَّمُ إلى أقسام خاصة

(*) (ك) رمز للذرة من الكربون ، و (يد) رمز للذرة من الهيدروجين ، (أ) رمز لذرة الأكسجين ، والأعداد تبين عدد الذّرات .

باعتبار ما تحويه من النِّسب المئوية من الكحول ، فهنالك مثلًا : البراندى ، والوسكى ، والروم ، والليكير وغيرها ، تبلغ نسبةُ الكحول فيها من 40 إلى 60 فى المائة ، وتبلغ النسبة فى الجين والهولاندس والجنيفا من 33 إلى 40 فى المائة ، وتحتوى بعضُ الأصناف الأخرى مثلُ البورت والشرى والماديرا على 15 إلى 25 فى المائة ، وتحتوى الخمورُ الخفيفةُ ، مثل الكلارت والهوك ، والشمبانيا ، والبرجاندى على 10 إلى 15 فى المائة ، وأنواع البيرة الخفيفة تحتوى على 2 إلى 9 فى المائة مثلُ الإيل والبورتر ، والإستوت ، والميونخ وغيرها ، وهناك أصنافٌ أُخرى تحتوى على نفس النِّسب الأخيرة ، مثل : البوظة ، والقصب المتخمر وغيرها .

كيفَ تُصَنَّعُ الخُمورُ ؟

وسأذكُرُ هنا كلمةً مختصرة عن كيفيّة صُنع الجِعَة وغيرها ، حتى يأخذ القارئ فكرة عن التخمر ومعنى الخمر . ففى مصانع الجِعَة يُبلل الشعيرُ بالماء ، ويُنْشَرُ على سطح كبير ، ويُترك هكذا حتى يبتدئ الإنباتُ ؛ فإذا ما ظهر جزء صغير من فرخ النبات فى بضعة أيام أعدمت حياة النبت بتسخينه فى أَتُونٍ خاص يُعرف بأتون المولت ، والفكرةُ فى الإنبات الحصول على خميرة الدياستاز ، وهى التى توجد فى الأوراق الخضراء للحبوب المنبتة ، والشعير كغيره من الحبوب يحتوى على مقدار كبير من النشاء . تُؤخذ حبوبُ الشعير المُزَرَّعَةُ بعدَ ذلك وتُسمّى بالمولت فتُنْقَعُ فى الماء فى درجة 60 سنتيجراد فيؤثر الدياستاز فى نشاء الحبوب ، فيحوله إلى سُكَّر الشعير ، ويقف تأثير الخميرة فى صنع الجِعَة إلى حد خاصٍ فلا يتحول كلُّ النشاء الموجود ، فيؤخذ بعد ذلك السائل إلى آنية نُحاسية ويغلى بعد إضافة حشيشة الدينار (*) إليه ، ثم يُبَرَّدُ السائلُ بسرعة ويُوضع فى أحواض حجرية وتُضاف إليه خميرةٌ لتحويل السكر إلى كحول ، ويتصاعد حينئذ غازُ ثانى أكسيد الكربون وهو الذى يعطى

(*) **الدينار** : هو نبات معروف تُستعمل أزهاره فى الطبّ وأصوله الفعّالة اللوبولين وعطر حشيشة الدينار ، ويُستعمل فى صناعة البيرة لمنع التخمر الخَلّى فيما بعدُ .

السائل فى هذا الوقت شكلَ الغليان ، واختمار الخمر لغةً : غليانها « القاموس المحيط » ، وليس الغليانُ كما ترى حقيقيًّا إنما هى استعارة لفظية ، ويظهر السائل فى هذا الوقت وكأنه يرغِّى ويُزْبدُ وذلك لتصاعد الغاز نتيجة التفاعل الكيميائىّ كما قدّمنا ، وهذا السائل هو الذى يُسمّى بالبيرة بعد التحول .

وأمّا إذا تحوَّل كلّ النشاء الذى يحتويه الشعيرُ إلى سكّر وتخمّر بعد ذلك ، كان السائل بعد ذلك أغنى بالكحول من السائل الأول ، وإذا قُطِّرَ بعد ذلك لفصل الكحول والماء من المحتويات الأخرى التى يحتوى عليها السائل سُمّى المحلول الناتج بعد ذلك (وسكى) . والبراندى الفرنسى ينتج بنفس الطريقة بتقطير الكحول من الخمر . والروم هو المادة المُقطَّرة من دبس(*) السكر . والچن كالوسكى يصنع من الشعير ويزود بعد ذلك بالعرعر(**) . والخمر اليابانىّ المسمّى ساك يعمل من الأرز المتخمر . والنبيذ يصنع من عصير العنب ويترك ليتخمر فيتحول سكر العنب إلى كحول .

تَحضيرُ الكحولِ النَّقىِّ :

والكحولُ النَّقىُّ يُحضَّر بإضافة المولت إلى الحبوب غير المنبتة أو إلى البطاطس الغنى بالنشاء ، فيتحول النشاء إلى سكر ، وبعد التخمر يُفصل الكحولُ عن بقايا الحبوب ، ويُفصل الماءُ كذلك على قَدْرِ الإمكانِ بتقطيره دَفْعَةً دَفْعَةً فى أوانٍ كبيرةٍ ، وبعد ذلك يُفصل من الماء بوضعه على جير حىّ ، فينتج بذلك الكحول الخالص من الماء أو الكحول البحت .

الغولُ ونجاسةُ الخمرِ :

رأيت فيما تقدّم الفرقَ بين الخمر والغول ؛ إذ يختلف أحدُهما عن الآخَر كلَّ الاختلاف ، فالخمرُ مخلوط على عناصرَ مختلفةٍ وموادَّ عديدةٍ يُمكن فصلُ أحدها عنها بطرق طبيعية بحتة ، ولكنّ الكحول مادة كيمائية لا يُمكن تجزئتُها

(*) الدبس : هو المادة الباقية بعد تبلور السكر من عصير القصب أو العنب .

(**) العرعر : هو شجر معروف يقال له الشيزى أيضًا .

إلَّا بالطرق الكيميائية ، وحينئذ تتحوّل إلى مادة أُخرى مخالفة لمادة الكحول الأصلية ، ولتوضيح ذلك آخذُ مثلًا الكحول إيثيل ؛ فإذا أكسدناه بإزالة ذَرّتين من الهيدروجين تحوَّل إلى الدهيد (ك يد $_3$. ك يد أ) ، فإذا أكسدناه ثانيًا بإضافة ذَرّة من الأكسجين نتج عندنا حامضُ الخل (ك يد $_3$. ك أ أ يد) المعروف .

ونحن نذكُرُ ذلك لنبرهنَ أنّ الكحولَ ليس نجسًا لذاته ، ولا يُعتبر نجِسًا إذا فصل عن الخمر ، فالخمرُ إذا مَسّ الثيابَ لا يُمكن الصلاةُ بها إلَّا إذا تطهرت ، وذلك لما يرجع من خُبث رائحتها ، ولزيادة التحذير من القرب منها ، وأما الكحولُ فلا يُنَجِّسُ الثيابَ مطلقًا ، وهو يدخلُ فى عمل الروائح العطريّة كالكولونيا وغيرها ، ويدخل فى تركيب صبغة اليود والصبغات الأُخرى التى أشرنا إليها ، وليس للكحول الرائحةُ الخبيثةُ التى تمتاز بها الخمور على وجه عام ، بل إنّ رائحته لا بأسَ بها وتُشبه رائحة الإتير إلى حد ما ، وليس له لون مِن ألوان الخمور .

يُضاف إلى ذلك الشرع حين حرّم الخمر إنما عَنِى بذلك المخلوطَ المخمَّرَ المعروفَ ولم يَعْنِ جزءًا منه ، فالخمر تحتوى على الكحول إيثيل كما قدّمنا ، وقد تحتوى كذلك على أنواع أخرى من الكحول البروبيل البيوتيل ، ومثل الكحول إميل (*) وهى أشدّ فى فعلها السُّمِّىّ من الكحول العادى ، وعلى موادَّ حمضيةٍ وأحماض طيّارة وإستر وألدهيد وفرفيورال ، وتحتوى كذلك على ماء وعلى بعض أملاح وعلى مواد أخرى عُضوية من بقايا المادة التى أُعدت للتخمر .

فهل إذا فَصَلْنَا الماء الذى فى الخمر عُدَّ الماءُ نجسًا ؟ وهل إذا فصلنا ما فيها من الأملاح عُدّت نجسةً ؟ وهل الكحول إميل يُعتبر نجِسًا . . . إلخ ؟

أنا أقول بعدم إمكان ذلك مطلقًا : فالماءُ إذا فُصِلَ عن الخمر فلا رائحة له وهو الذى يُطَهِّرُ النجاسات ، وكذلك محتويات الخمر إذا فصلت عن بعضها فكلٌّ منها طاهرٌ شرعًا ، ويدخل فى الكحول النقى .

(*) **الكحول إميل** : يسمى تجاريًا زيت البطاطس ، وهو مسكر بشدة ويخرج من البطاطس لغش الوسكى والكونياك . . . إلخ .

وإنّى أستطيعُ كذلك أن أشبه الخمر والكحول بالميتَة وعظامها وفروتها وجلدها بعد الدباغ ، فالخمر والميتة كلاهما نَجِسٌ ، والكحول وعظام الميتَة وفروتها وجلدها كلها نجِسَةٌ ما دامت متصلةً بأصلها ، ولكنْ إذا فَصَلْتَ الكحول من الخمر فهو طاهر ، وكذلك العظام والفرو والجلود إذا فصلت ودبغت أصبحت طاهرة ، قال تعالى : ﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [النحل : 80] ، وهذا يشمل أحياءها وأمواتها .

فالكحولُ بذلك نجس ما دام فى الخمر ذلك المخلوط النجس ، وأما إذا فُصل عنها فهو طاهر العَيْنِ (*) .

فإذا قيل كيف نحكم بطهارة الكحول وهو المادة الفعّالة فى الخمر ؟

قلت : إنّ الطهارة شيء ، وحرمة الشرب شيء آخر ، فالكؤول النقى طاهر ولكنّ يَحْرُمُ شربُه إذا استُعمل مسكرًا قياسًا على تحريم شرب الخمر ، ويكُون حُكمه فى ذلك حكمَ الحشيش والأفيون والمورفين والكوكايين وغيرها من المخدرات ، فهى طاهرة ولا ينجس لمسُها ولكنْ يحرُم استعمالُها من الداخل قطعًا قياسًا على الخمر ؛ لأنها تخامر العقلَ ، وأضيفُ إلى ذلك أنه لا يُوجد مَنْ يستعمل الكؤول النقى بدلَ الخمر مطلقًا ، فإنّ الذين يريدون أن يَسْكَرُوا يشربون الخمر ولا يشربون الكحول (**) .

ما يُنْسَبُ إلى الخمرِ مِن المنافعِ (***) :

1 - هل الخمرُ غذاءٌ ؟

وهنالك بعضُ منافعَ صحيّة تُنسب للخمر ، فيتوهم بعضهم أن الخمر

(*) الأصل فى هذا هو الحديث الذى رواه أحمد والبزار عن ابن عباس رضى الله عنهما : أتى النبى ﷺ بجبنة فى غزاة ، فقال : « اصنعوا فيها بالسكين واذكروا اسم الله وكلوا » وكذلك روى أبو داود عن ابن عمر رضى الله عنهما : « أتى النبى ﷺ بجبنة فى تبوك من عمل النصارى ، فدعا بسكين فسمى وقطع وأكل » مع أن الصحابة ذكروا له ﷺ أن بهذا الجبن أنفحة نجسة .

(**) يَنْدُرُ أن يشربَ بعضُ الفقراء السكيرون السبرتو الذى يستعمل للوقود فى المنازل .

(***) هذا ما يظن بعض الناس ، وهو خطأ ، بل للخمر مضار كثيرة منها الصحية ، ومنها النفسية ، ومنها الاقتصادية :

=

غذاء ، والخمر بنفسها لا يُمكن أنْ تُغذِّى الجسم مطلقًا ؛ إذ إن الكحول يُمتصّ من المعدة والأمعاء بمجرّد وصوله إليها ، ثم يصل إلى الدورة الدموية

= أولًا : **المضار الصحية** : تصيب الخمر شاربها بعدة أضرار صحية ، منها :

1 - تقرحات الفم .
2 - التهاب البلعوم .
3 - التهاب المرىء .
4 - الفواق (الشقة) .
5 - الحموضة (حرقة المعدة) .
6 - التهابات المعدة الحادة والمزمنة .
7 - قرحة المعدة والاثنى عشر .
8 - سرطان المعدة .
9 - تهيج أغشية الأمعاء الدقيقة والغليظة .
10 - اختلال توازن الجسم .
11 - مرض الكبد الدهنى .
12 - التليف الكبدى .
13 الالتهاب الكبدى .
14 - التهاب البنكرياس الحاد والمزمن .
15 - فقر الدم .
16 - انخفاض ضغط الدم .
17 - ضيق الصدر وسرعة التنفس .
18 - انسداد شرايين القلب أو ضيقها .
19 - العقم أو ضعف القدرة على الإنجاب .
20 - تهتك المخ .
21 - الهلوسة .
22 - فقدان الشهية .
23 - مرض البلاجرا .
24 - ضمور خلايا قشرة المخ .
25- التهاب عصب العين .

ثانيًا : **المضار النفسية** : مضار الخمر النفسية كثيرة ، منها :

1 - نوبة النسيان .
2 - نوبات التسمم المرضى .
3 - نوبات الذهانية الحادة .
4 - الهلس الغولى الحاد .
5 - الاضطراب الذهانى العضوى .
6 - الاضطهاد الغولى .
7 - التدهور الغولى .
8 - الاضطراب العقلى العضوى . (انظر : « فقه الأشربة وحدها » ص : 93 - 95) .

ثالثًا : **أضرار الخمر الاقتصادية** : يُنفق فى بريطانيا كل عام على الخمور ما يبلغ ثلاثة آلاف مليون جنيه استرلينى ، وفى أمريكا ينفق ما يقرب من ثلاثين ألف مليون دولار كل عام ، وفى فرنسا - حسب ما ذكره وزير الاقتصاد « روبير بابوك » يُنفق أكثر من سبعة بلايين دولار .

وذكرت مجلة الإدمان البريطانية أن الخسائر التى نجمت عن المشكلات التى تسببها الخمر بلغت (640) مليون جنيه استرلينى فى عام 1983م وحده ، وأن 69 مليون أخرى أنفقت على المرضى الغوليين فى المشافى (**انظر** : موقع نقابة الأطباء المصرية على الإنتر نت) .w w w. Khaym a. c. m./Cagthia/c. slam. Htm

وفى تقرير صدر عام 1978م لوزارة الصحة الأمريكية قدرت فيه الخسائر الاقتصادية الناجمة عن الخمر فى سائر المجالات الصحية والاجتماعية والصناعية بحوالى 43 مليار دولار فى العام .

فضلًا عن أضرارها الاجتماعية المعروفة .

ثم إلى الجهاز العصبيّ ، فيذوب فى الخلايا العصبية ويجعلها أكثرَ سيولةً ، ويقلِّلُ من نشاطها حتى يَشُلَّها (مايروفارت) .

2 - هل تُنبّه الخمرُ الهضمَ ؟

الخمر لا تنبه الهضمَ كما يَظُنّ كثير من الجهلاء ، بل تهيّجُ الخمر الغشاء المخاطيَّ للمعدة ، وتُغير طبيعةَ العصير المعدى ، وتذكُرُ كتب علم المادة الطبية فى تأثير الكحول علىٰ المعدة أن الكحول لا يسبب إفراز العصارات المعوية النشطة الفعّالة ، ولكنه يساعد على إفراز كمية أكبر قليلًا من الحامض لا غير ، ويَشُلُّ الإفرازَ المعدى ، ويُحدث ضمورًا فى الغدد المعدية ، والخمرُ يؤثِّر على الزلاليات فى المعدة (كاللحوم) فيجمِّدُها ، وكذلك يفعلُ مع الببسين فى العصارة المعدِية ، وتنصحُ كتبُ علم المادة الطبية ، بل تأمر بعدم استعمال الخمر فى حالاَت التهاب المعدة كما قدمنا ، والخمرُ بجانب ذلك يبلغ تأثيرها إلى مدى يجف معه الفم ، وتَعوقُ إفرازَ اللعاب ، وهكذا ترى كيف تُحدث الخمرُ سوءَ الهضم ، وتُسبّب القىءَ والتهوع (*) ، وتُصيب المعدَة بالتَّمدُد وتغير طعم الفم إلى غير ذلك مما تجده فى كتب الطبّ (**) .

3 - هل تُدْفئ الخمرُ وتُزيل البَردَ (***) ؟

(*) **التهوع** : التقيُّؤ .

(**) **فتح الشهية** : يعتقد البعض أنها تفتح الشهية ، وهذا يحدث فى أول الأمر فحسب ؛ لأنها تهيج الأغشية المخاطية من الفم إلى المعدة ، فيزداد إفراز اللعاب والمواد الهاضمة ، لكن سرعان ما يزول هذا التأثير ، وينعكس الأمر ، حيث يؤدى هذا التهيج إلى التهاب الأغشية وضمورها ، ومن ثمّ قلة إفراز الحامض المعدى ، وظهور آثار سوء الهضم وقلة الشهية .

(***) **تدفئة الجسم** : وهذا أيضًا مما شاع خطأً ، إذ كيف تدفئ الجسم وهى التى توسع الأوعية الدموية ولا سيما تحت الجلد ، فينساب الدم ، وهذا لا يسبب دفئًا بل برودة . نعم يحتقن وجه شارب الخمر ، وتحمر وَجْنَتاهُ ، ولكن هذا من أثر زيادة كمية الماء فى الدم ، وليس علامة الدفء . وقد ورد فى هذا حديث شريف هو : عن ديلم بن فيروز الحميرى ﷺ قال : « قلت يا رسول الله : إنا بأرض باردة ونعالج فيها عملًا شديدًا ، وإنا نتخذ شرابًا من هذا القمح ؛ لنتقوى به على عملنا وعلى برد بلادنا ؟ **قال** : هل يسكر ؟ **قلت** : نعم ، **قال** : فاجتنبوه . **قلت** : إن الناس غير تاركيه ، **قال** : إن لم يتركوه قاتلوهم عليه » رواه أحمد ، مسند الشاميين ، **وانظر** : « الجامع » (5/ 92) .

ويحسبُ السكارَى ، وهم مسرحُ ألعاب الخمر وميدانُ نَكْبَاته ، أنّ الخمرَ تُدْفئ الجسمَ ، وتُزيل البردَ ، **فهل تفعلُ الخمرُ ذلك طبيًّا ؟** لقد ذكرتْ جميعُ كتب علم المادة الطبية أن الكحول إذا وُضع على جلد المرء يُحدث فيه انخفاضًا كبيرًا فى درجة الحرارة ، وذلك لما للكحول من سرعة التبخُّر الذى يحتاج إلى حرارة فى هذه العمليةَ الطبيعية ، فيأخذ هذه الحرارة من الجسم فيقلّلُ درجةَ حرارته .

وأما استعمال الخمر من الداخل ، فالكحولُ بحسَب ما تذكرُ كتبُ الطبِّ يُحدث انخفاضًا فى درجة الحرارة ، وهذا الانخفاض ناشئ من تمدّد الأوعية الدموية التى على سطح الجسم ، مما يدعو إلى تسرُّب الحرارة إلى خارج الجسم ، فأىُّ وَهْمٍ يعيشُ به شاربو الخمر ، وأىُّ جهل يهيمون فى واديه .

4 - هل تزيدُ الخمرُ الدم ؟ وهل لشاربى الخمر وأمثالهم من الجهلاء دليل على فائدة الخمر للصحة إلّا ما يشاهدونه من تورُّد خدود شاربى الخمر ، واحمرارها ، وامتلائها بالدم ؟!

ألا فليعلم هؤلاء الجهلاء أن احتقان وجوههم ما هو إلّا مرضٌ ، وحادثٌ غيرُ طبيعىّ فى بدنهم ، ولقد ذكرت فيما تقدم كيف أن الخمر يُحدث تمددًا كبيرًا فى الأوعية الدمويّة التى على سطح الجسم ، فيندفع إليها الدم ، ويقل الدم الموجـود فى الأوعـية التى فى الداخل بانكماشها ، وهكذا تختل الدورة الدموية بجانب المصائب الأخرى التى تحدثها هذه المادة السامة مما سيأتى بيانه (*) .

(*) ذكر المؤلف أربعًا مما ينسب - خطأً - للخمر من الفوائد ، والأمر يحتاج إلى مزيد بيان ؛ لأنه شاع - خطأً أيضًا - عن الخمر عدة أمور :

1 - **الخمر والشجاعة والكرم** : يتوهم البعض أن الخمر تُكسب الشجاعة والكرم ، يقول الشاعر (حسان ابن ثابت) قبل إسلامه : ونشربها فتتركنا ملوكًا وأُسدًا لا ينهنهنا اللقاء

وهى شجاعة متوهمة وكرم غير أصيل ؛ لأنهما يصدران عن غير وعى ، فالعقل غافل مخمور ، فهما بالتهور أشبه ، وليس ذلك إلّا لأنها تخدر المناطق المخية العليا حيث الفكر والروية ، وحيث العقل يعقل الشهوات الجامحة فيبدو لذلك المخمور وكأنه شجاع مقدام وهو ليس كذلك .

انظر : «الخمر بين الطب والفقه» ص 44 . =

تَحَكُّمُ الخمرِ فى شاربيها :

وللخمر فعلان خَطِران يستولى بهما على عقولِ الشاربينَ فيجعلُها تحتَ سُلطانه ويقودها إلى العته ، ويتحكم فى أجسام المساكين فيضنيها ويذيقها ريبَ المَنُونِ .

إنّ شاربَ القليل من الخمر لا يَلْبَثُ أنْ يكونَ رغم أنفه مُدْمِنًا مستعبَدًا لها مما قد يجعله بعد ذلك عاجزًا عن الهروب مما وقع فيه من الرّق والأسْر ، وهذه الخاصيةُ الطبيعيةُ الأولى للخمر تُصيب الشاربين مطلقًا ، ولهذه الخاصية ترجع أسبابُ الأمراض التى سأذكرها فى حينها .

والخاصيةُ الثانيةُ للخمر يُسمّيها الطبُّ بالمقاومة أو الاحتمال وذلك أن من تكفيه كميةٌ محدودةٌ من الخمر للمرور بالدور الأول مثلًا يصبح وقد صارت لجسمه قوة مقاومة خاصة تحتاج لكمية أكبر من الكمية الأولى ليمرّ بنفْس الدَّورِ ، وهكذا حتى تصيرَ الكميّةُ التى تكفى لقتل نَفْس لا تُحدِثُ عنده إلَّا أعراضَ الفترة الأولى . وهكذا يزيدُ مقدارُ السُّم ، ويتسع عمله ، ويَعُمُّ أثرُه حتى يصيبَ أهمَّ الأعضاء الحيوية . كما سيأتى فى هذا المبحث .

= **ويقول الدكتور لورانس** : « أول ما يفقد من وظائف المخ بواسطة الغول هو القدرات الدقيقة على الحكم والملاحظة والانتباه » . **انظر** : المصدر السابق ص 44 .

2 - **زيادة القدرة الجنسية** : وهذا أيضًا مما يخطئ فيه الناس ، إذ يحسبون أن الخمر تزيد القدرة الجنسية ، وليست كذلك ، بل تؤدى إلى العكس .

وأكد البروفسير فورل أن الدورة الطمثية تضطرب لدى المرأة المدمنة ، وتصل إلى سن اليأس قبل غيرها بعشر سنوات وتتأذى (الخلايا من الخمر ، ويتضرر المبيضان منها . (w.w.w. Khay ma. com)

3 - **التلذذ** : وهذا أيضًا مما يُظن فيها وليس كذلك ، وإلَّا لما يرفعها الشارب - حين يشربها - ويصبها فى فمه ، ومنه إلى المرىء ثم الأمعاء ، دون أن يبقيها فى فمِه مدة ولو يسيرة ، ولو كانت اللذاذة من فوائدها لرجها فى فمه متلذذًا .

4 - **النسيان** : ومما يعدونه من فوائدها أنها تنسى ، وهذا أيضًا وهم ؛ لأنها لا تنسى وإنما تُذهب العقل ، وبعد أن ينتهى تأثيرها يواجه الإنسان بهمومه كما هى تنتظر حلًّا ، وكما يقولون : تذهب السكرة وتبقى القهرة .

تأثيرُ الخمرِ عَلى الأعصابِ :

وللخمر تأثيرٌ على المراكز العصبية حيث تُنبهها فى أولِ الأمر ، ولكنْ لا يلبث الحالُ أن ينعكسَ فَيَحْدُثُ الخمولُ فى هذه الأعصابِ ، وينتهى الأمرُ بتخديرها ، وتعطيلِ عملِها ، ومن ثَمَّ يتسبب فى الموت الذى يكون نتيجةً مباشِرةً لإيقاف عمل المراكز الحيوية فى الجسم .

هذا الحالُ هو ما نشاهدُه فى شارب الخمر فتراه أوّلًا قد انعدمت عنده فضيلةُ المروءة والحياء ، وينطقُ لسانُه بألفاظ لو كان حافِظًا لقواه العقلية ما فاه بها ، وتصدرُ عنه أفعالٌ وحركات تُضحكُ الثَّكْلَى ، وشرُّ البَلِيّة ما يُضحك .

هذه الفترةُ هى التى تجعلُ من الإنسان حيوانًا مَهِينًا مستهترًا بالكرامة والدِّين معرَّضًا للوقوع فى حَبائل الرذيلةِ والفسادِ ، وهى قصيرةُ الأمد لا تلبثُ فترةُ الخمول أن تأتى عليها ، فترى الشاربَ وقد اختلت أعمالُ مخه ، وفقدَ إحساسه ، وتجسمت فيه البلاهة بأقبح أشكالها ، وسرعان ما يدخل السكرانُ فى الفترة الثالثة ، وعندها يكون السُّمُّ قد عمل عمله فى المراكز العصبيةِ الحيويةِ فى الجسم فيعطل عملها ، وتَحْدُثُ الوفاةُ ، وقد يكونُ سببَ الموت تعطيلُ الخمر لعمل مراكز التنفس والدورة الدموية جميعًا .

يُمْتَصُّ الخمرُ بسُهُولة من المعدة والأمعاء ، فيصلُ إلى الدَّورة الدموية بدون تغيير حيث يُوزَّع على سائر أنسجة الجسم وسوائله فتُحدث فيها التأثيرَ السيئ ، وتصيبها بالعلل الخطِرة التى سيأتى الكلام عليها .

ويروى « سدنى سمث » عن « اشفيزهيمر » أنه وجد أن التسمّم الكحولى يعمل عمله حين تبلغُ النسبةُ المئوية فى الدم مقدار 0,153 % ، ويزداد هذا التسمم خطورة حين تبلغ النسبة 0,227 % ، وأما إذا ازدادت النسبةُ على ذلك فليس هنالك سوى الغيبوبةِ فالوفاةِ (*) .

(*) يختلف تأثير الخمر حسب نسبتها فى الدم ، فعندما يبلغ مستواه من 20 - 99 ملغ % يسبب تغير المزاج ، وعندما يصل 100 - 199 ملغ % تضطرب القوى العقلية والحركية ، ويفقد التوازن ، وعندما =

استغناءُ الطبِّ عنها كدواء [*] :

وإذا كانت هنالك بعضُ حالات مَرَضِيّة نادرة تنفعُ فيها الخمرُ ، فعلى الطبيب أن يستعيضَ عنها بالغول النقيّ ممزوجٍ ببعض موادَّ أُخرى إذا لزم الحالُ ، والطبيبُ حينئذ يصف الكحولَ كما يصف سائرَ العقاقير السامة المعروفة بمقاديرها الطبية اللازمة ، مع العلم أنّ الإسرافَ فى استعمال الغول حرامٌ كحرمة الإسراف فى استعمال سائر السموم المستعملة فى الطب . وبجانب ذلك فالأحوالُ التى يُستعملُ فيها الكحولُ نفسُه تُعَدُّ نادرةً ، كما تُقرّر كتب الطب ، وعلى كلِّ حال لا يُستعمل الكحول طبيًّا لتقوية الباه [**] أو للتدفئة ، أو للأغراض التى يشرب من أجلها السّكيرون الخمور ، ولا يستعمل الكحول كذلك فى جميع حالات التنبيّه المُخىّ ، واحتقان الدماغ ، والالتهاب السحائىّ ، وفى حالات الصدمة الناشئة من ارتجاج الدماغ أو إصابته ، ولا يُستعمل كذلك فى الاكتلاء (التهاب الكلية) والكباد (التهاب الكبد) والمعدة (التهاب المعدة) وغيرها ، وإنّى أستطيعُ أنْ أقولَ : إنّ الغبىَّ الجاهلَ وحدَه هو الذى يشرب الخمر مع ما هو معلوم من أضرارها التى يَلْمَسُها القارئ فى هذا المبحث ، والعاقل هو الذى يلجأ إلى الطبيب الموثوق بشرفه وعلمه ، فيصف له علاج الداء ، وهذا الطبيب وحده هو الذى يُمكنه وصفُ الكحول ، كما يصف أىَّ نوع من أنواع السموم ، بالمقادير المعروفة فى الطبّ .

وشاربو الخمر لا يشربونها لأنّهم مرضى الأجسام ، يَبْغُونَ علاجَ أمراضهم بها ، ولكنّهم مَرْضَى النّفوس ، والعقول ، والأرواح ، وإلّا فَلِمَ يشربونها ، وفيها الذى فيها مما هو موضَّح فى هذا المبحث ، ومقرّر فى كُتب الطب .

= يبلغ 200 - 299 ملغ % يظهر الغثيان وازدواج الرؤية واضطراب شديد من التوازن ، وعندما يبلغ 300 - 399 ملغ % تهبط حرارة البدن ، ويضطرب الكلام ، ويفقد الذاكرة ، وعندما يبلغ 400 - 700 ملغ % يدخل الشارب فى سبات عميق ، يصحبه قصور فى التنفس قد ينتهى بالموت (w.w.w. Khay ma. com.) .

(*) أكد الدكتور « هيجنتوم » أمام الجمعية الطبية البريطانيةَ أنه لا يعلم مرضًا قط شُفى بالخمر ، كما أكد عدد من الباحثين البريطانيين منهم الدكتور جونسون والدكتور جون هيل والدكتور هنرى مارتس : أن الخمر لا يشفى مرضًا ولا ينفع الجسم . انظر : (السابق) .

(**) الباه : النكاح ، والمقصود هنا القدرة الجنسية .

الجُنونُ الكُحوليُّ :

والجنونُ الكحوليُّ هو الاختلاط العقليّ الناشئ عن شرب الخمور ، وهو حالة تصل بالإنسان العاقل إلى درجةٍ أحطَّ من الحيوان غير العاقل ، أو تصل به إلى درجة الجنون الخطِر مما يَسْلُبه صفةَ الإنسانيةِ والعقلَ .

ويرجعُ ذلك إلى تأثيرِ الخمرِ على المخ تأثيرًا يفقده وظيفته ، ولا تكون النتيجةُ بعد ذلك إلَّا الاختلال العقليُّ أو الموتَ .

ولكى تأخذَ فكرةً عن مقدار تغلغل سُمّ الخمر فى الأعصاب ، ومقدار الزمن الذى تبقى فيه الأعضاءُ تحتَ تأثيرِ فعل الخمر الهَدْمِىّ ، أذكرُ لك ما ذكره (مارينسكو) و(بوليان) فى الجريدة الطبية البريطانية الصادرة فى 11 سبتمبر سنة 1920م من أنّهما وجدا الكحول فى سائل النخاع الشوكىّ بعد تجرعه بثمانية أيام ، ولقد وُجِد كذلك أنّهُ يُمكن فصلُ الكحول بعد تعفُّنِ الجثة ، وهو يدل على عظيم تغلغله فى الجسم .

هذا المرضُ يؤثِّر فى علم المرء وإدراكه ، ويوثِّر فى شعوره وإحساسه ، ويؤثِّر فى عمله . أما تأثيرُه فى عمله ، فهو عدمُ إدراك حقيقة الشىء مع وجوده ، أو كتخيل أشخاصٍ غير موجودين أو سماع أصواتٍ غير موجودة ، وهو ما يؤدِّى إلى فقد الذاكرة كما يحصُل فى الهستريا .

إنّ مجرَّد اضطراب الذاكرة يقلّلُ من قيمة القوى العقلية ، ولذلك يمنعُ الدِّينُ الإسلامى الأخذ بشهادة شاربى الخمر فى المحاكم ، لاختلال أعصابهم وارتباك مخهم ، واضطراب ذاكرتهم ، وشذوذ أفكارهم .

هذه إشارةٌ لما يُصيب إدراكَ الشخص وعلْمَه ، أما فيما يتعلقُ بشعوره وعمله فالخمرُ تُوثِّر فى شاربها تأثيرًا قد يدعوه إلى الانتحار أو القتل ، أو ارتكاب جرائم جنائية مختلفة ، كهتك العرض وغيرها من الجنايات التى تَشْغل المحاكم دائمًا .

وهنالك نوعٌ آخَرُ مِن الخَلَلِ الكُحولىّ يَصْحَبُهُ عادةً التهابٌ عصبى

ويُسمّى مرض (كورساكو)[1] ، ويمتاز هذا المرضُ بفقد الذاكرة فيما يتعلق بالحوادث القريبة ، واضطراب فكْرىّ فيتخيل وجودَه فى عالَم آخَر لا حقيقةَ له ، ويذكر أشياءَ لم تَحْدُثْ ، فيدّعى مثلًا أنّه كان بالأمس يعبثُ فى جهة ما ، مع أنّه لم يَبْرَحِ الفراشَ ، أو يدّعى أنّه كان سائرًا فى الطريق فهجمت عليه اللصوصُ وسلبوا نقودَه مع عدم حصول شيء من هذا مطلقًا . ومن الأمراض التى تصيب شاربى الخمور الصَّرْعُ كذلك[2] .

وفى جميع الأحوال ينتهى أمرُ الشارب (بدمنتيا كحولية) أىْ عَتاهة وبلاهة فيفقد ذاكرتَه ، ويَتَصوَّرُ تصوراتٍ لا حقيقة لها بجانب ما يُصاب به من شتى الأمراض العصبية الأخرى .

والجنونُ الكحولىّ المزمن هو السببُ المباشرُ لجميع الجرائم الجنسية المتسببة عن الغيرة ، وهذه الجرائم تكوّن فى الغالب قتلَ الأبرياء ، وتنشأ الحالةُ بأنْ يحسَبَ المعتادُ على الخمر أن امرأته تُحبُّ سواه ، وتنشأ فى فكره أشياءُ خياليةٌ تثبت لديه ما يجول بخاطره من الأوهام ، ويذهب إلى امرأته ليرغمها على الاعتراف باستعمال القوّة ، وبعد مشاجرات وتخيلات ينتهى الأمر بقتل الزوجة دون العشيق ، وقد يقتل هذا المعتوه أولاده انتقامًا ؛ إذ يخيَّل إليه أنّهم ليسوا بنيه بل جاءت بهم امرأتُه من عشيقها الموهوم .

الخمرُ والأخلاقُ :

والخمرُ هى الدافعُ الأساسىّ لجميع الموبقات ، والعاملُ الوحيدُ فى سقوط الذكور والإناث كالحمل سفاحًا ، واليأس وحوادث الانتحار ، وقد أثبتت الإحصائياتُ التى جمعها (باير) فى ألمانيا أن 50 - 70 فى المائة من حوادث الاعتداءِ الإجرامىّ تقعُ تحتَ تأثير الخمر ، وأنّ 75 - 80 فى المائة من حوادث الظهور بمظهر منافٍ للآداب إنما تقعُ كذلك بسبب الخمر

(1) انظر : كتاب « مزاولة مهنة الطب » جمع بريس ص 390 ، 1802 .

(2) وهى علة تصرع صاحبها فى الأرض فاقد الشعور ، متشنج العضل مزبدًا .
انظر : المرجع المذكور ص 390 .

(فوريل ص 269) ، وقد ذكرْنا ما تُحدثه الخمرُ من هَذَيَانِ الغَيرة عند الكلام عن الجنون الكحولىّ والتسمم المزمن من الخمر .

ويجبُ أنْ تَعْرِفَ أنّ الزّنا والخمرَ صنوانِ ، وتحفُّ بهما كلُّ الرذائل المعروفة فى العالم كالدعارة والقوادة ، والفحش والفجور ، وضعف الخلق ، وفساد النفس ، والخبث والغدَر ، والنفاق ، والخديعة والرياء ، إلى غير ذلك من الصفات الخُلُقية الدنيئة ، وإنّك لا تجد مجرمًا لا يَسْكر ! ولا تجد سكيرًا غيرَ مُجْرم ! وهَلْ تجدُ فى العالم من سبب لجميعِ الموبقاتِ غيرَ الخمر ؟

وقال الضحاك بن مزاحم يومًا لرجل يسكر : ما تصنع بالنبيذ ؟ **فقال :** إنه يهضم طعامى ، **قال :** إنه يهضم من دينك وعقلك أكثر !

وقيل للعباس بن مرداس : لم تركت الشراب ، وهو يزيد فى سماحتك ؟ **فقال :** أكره أن أصبح سيّدَ قومى وأمسى سفيههم .

وقد علمت أنّ الخمر لا تهضم الطعام أو تزيد السماحة ، والعاقل من لا يصاحِبُ شاربَ الخمر ، ولا يخالطه ، ولا يرتبط معه بصلة ؛ إذ تكفى سفالةُ وسَطه ، وفسادُ نفسه ، وانهيارُ أخلاقه ، وتوقعُ غدره ، وفقدُ الثقة به ، وحيوانيتهُ ، وما فيه من الشذوذ والأمراض النفسية والجنسية .

الخمرُ وشذوذُ العاطفةِ الجنسيّةِ :

ويكفى أن تَعْرِفَ أنّ الخمر تَقتلُ العواطفَ السامِيةَ فى الإنسان كالحنان والعطف والواجب ، وتعمل الخمرُ كذلك على إضعاف الإرادة وتعطيلها ، وتُسلبُ قوةَ السيطرة على النفس ، وهذا يعلل ما نشاهد من حالات الاعتداء على الفتيات ، والعربدة(*) فى المواخير(**) ، والاتصال بنساء الطبقات الدنيا من العاهرات والمومسات والزانيات والقوادين وذوى الأخلاق الساقطة من الشبان والرجال ، والفحش فى الحديث والسماجة وغيرها من الصفات الدنيا التى يتصف بها شاربو الخمور .

(*) العربدة : المجون وسوء الخُلُق .

(**) المواخير : جمع ماخور ، وهو بيت الفسق والفُجور .

بل إن الخمر تُحيى فى شاربها لَوْثاتٍ وراثيةً قديمةً فى العاطفة الجنسية ، كمرض الكشف التناسلىّ وعشق الجنس واللواط وجماع الحيوان وغير ذلك من أمراض العاطفة الجنسية . ويذكر فوريل (ص 286) أنه لاحظ أن عددًا كبيرًا من العاديين من حيث العاطفةُ الجنسيةُ قد تحوَّلوا إلى ذلك الشذوذ عند تناولهم أقلَّ كَميةٍ من الخمور ، بل إنَّ الخمرَ تُحدث شُذوذًا فى العاطفة الجنسية من أىّ نوع ، فتجد شاربَ الخمر عاهرًا أو مصابًا باللواط أو محبًّا لوطء الحيوان أو مصابًا بأحد الأمراض النفسية كمرض سادى أو (سوشر ماسوك) وغيرها مما سيأتى ذكره فى مبحث الطلاق ، وقد يكون مصابًا بأكثر من مرض واحد : كالزنا واللواط وتحمل الأذى وهكذا .

بل تُحدث الخمرُ شذوذًا أكبر من ذلك وهو الفجور فى القرابة والزنا بأحد الأقارب ، وقد روت كُتبُ التناسليات كثيرًا من هذه الفظائع والمصائب التى تنجُم عن شرب الخمر .

وهنالك أمراضٌ أُخرى كثيرة تصيب شاربى الخمر ، كاغتصاب الأطفال بالقسوة والتعذيب التناسلىّ والهستريا التناسلية وغيرها من العواطف الجنسية الشاذة التى لا سبيل إلى حصرها ، والتى تسببها الخمر .

تأثيرُ الخمرِ على الأعضاءِ التَّناسُليةِ :

إنّ كثيرين من ضِعاف العقول يحسَبون أنّ الخمرَ مقويةٌ للناحية الجنسية ، ومن هذا الطريق يدخل إليهم الشيطانُ ليستدرجَهم ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [النساء : 120] ، والحقيقة أنّه ليس للخمر تأثير طيب من هذه الناحية ، وأما ما يُشَاهَدُ من تنبّه بعض الناس فى المراقص جنسيًّا بشرب القليل من الخمر ، فليس هذا يرجع إلى تنبيه الخمرِ للباه (*) ، ولكنه يرجع إلى تأثير الخمر على المخ ، ولا يتعدّى هذا التأثيرُ إمالة ميزان العقل ، والشعور بعدم الحياء أو المبالاة ، فيشعرُ الشاربُ بأنَّه لا بأسَ أنْ يطأ المرأة التى تصاحبه وتراقصه ، ولقد ثبت علميًّا أنّ كمية الخمر التى يأخذها الذَّكَر

(*) الباه : النكاح أو الجماع .

فى المرقص ، وهو مع إحدى الساقطات لا تُحدث عند نفس الشخص تأثيرًا إذا أخذها وحده بعيدًا عن النساء .

وهنالك حقيقةٌ علميةٌ خطيرة ، يجب أن يَعْلَمها الناس جميعًا ، وهى أنّ شارب الخمر ينتهى أمرُه عادة بالارتخاء التام ، وذلك نتيجة ردّ فعل شديد فى أعصاب المراكز العليا والسُّفلى فى الجسم ، ولقد ذكرْنا آنفًا فعل الخمر فى هذه الأعصاب ، **ويقول شكسبير**[1] شاعر الإنجليز عن تأثير الخمر فى حديث العهد بشُرْبها : إنّها تُثير الشهوة[2] ولكنّها تُعَطِّل العملَ .

ومن المعروف كذلك علميًا أن البيرة بما تحدثه من إدرار البول تعوق كذلك الانتصابَ وتُسببُ العُنَّة [*] ، والخمر بجانب ذلك تُحدث سرعة الإنزال ، وهو ما يضر المتزوج ضررًا بالغًا بما يُحدثه من التأثير فى الزوجة مما لا مجال لبيانه هنا ، ولقد دعانى لذكر هذه الحقائق ما أراه من رجوع سبب الإدمان فى معظم الشاربين إلى طلب الحصول على اللذة الجنسية بالخمر ، فتصبح أبعدَ ما يكون منهم ، ولا يلبثون أن يقعوا فى هاوية الإدمان .

ويجب بجانب ذلك أنْ أذكرَ أنّ العمليةَ الجنسيةَ لا تتوقفُ على الجهاز التناسلىّ فحسبُ ، بل إنّ أىَّ ألم يحدث لجسم المرء أو مرض يُصيب أىَّ عُضو من أعضائه ، كالقلب ، والكبد ، والكُليتين ، والمخ وغيرها تسبب للمصاب ضعفًا جنسيًا ظاهرًا يشتدّ باشتداد وطأة المرض عليه ، ولهذا الضعف كذلك ارتباطٌ وثيقٌ ببعض غُدد الجسم ، كالغُدّة الدرقية والنخامية وغيرها ؛ إذ تؤثّر فيها الخمرُ تأثيرًا سيئًا ، فيترتب على ذلك حدوثُ الارتخاء .

---

(1) رواية مكبث ، الفصل الثانى ، المنظر الثالث .

(2) إيقاظُ الشهوة هو كما بيّنت إمالةُ ميزان العقل وعدمُ المبالاة بارتكاب هذه الفاحشة ، وبمناسبة هذا أذكرُ ما حكاه الأصمعىُّ عن عجوز من الأعراب جلست إلى فتيان يشربون نبيذًا ، فسقوها قدحًا فطابت نفسُها فتبسمت ، فسقوها قدحًا آخر فاحمرَّ وجهها فضحكت ، وسقوها ثالثًا **فقالت** : خبرونى عن نسائكم بالعراق أيشربن النبيذ ؟ **قالوا** : نعم ، **فقالت** : زنين وربِّ الكعبة والله إنْ - صدقتم - ما فيكم من يعرف أباه ؛ فانظر إلى الخمر وقد جعلت العجوز وقد حادثتها نفسُها بالزنا ، وبَدَهِىٌّ أنّ الخمر لم تُحدث عندها تقوية الباه (الرغبة فى الجماع) وقد ضمرت أعضاؤها التناسلية .

(*) **العُنَّةُ** : عدم القدرة على الانتصاب .

وسأبينُ بعدَ ذلك الأمراضَ الفتّاكةَ التى تُسببها فى الأعضاءُ المهمة فى الجسم كالقلب ، والكبد ، والكليتين وغيرها ؛ فإنّ (سروسز) الكبد مثلًا يجعل المرءَ غيرَ قابل للزواج مطلقًا ، وكذلك أمراض القلب مما يضع الخمر موضعَ أكبرِ عدوٍّ لسلامة الأبدان ، لخطورة العلل التى تحدثها ولاستحالة علاج أكثرها .

وبذلك يُعتبر الخمر طبيًّا خطرًا عظيمًا على الوظيفة الجنسية بتأثيره السيئ فيها مباشرة وللآفات التى تُحدثها فى المراكز العصبية ، وللاضطرابات التى تُسببها فى وظائف الأعصاب ، ولردّ الفعل الشديد الذى تفعله فيها ، وللهبوط الأخير المترتب على ذلك ، وأما تأثيرُ الخمر غيرُ المباشر على هذه الوظيفة ، فهو عملها الهدمى فى الأعضاء الحيوية فى الجسم ، وسيأتى بيان ذلك فى موضعه .

تأثيرُ الخمرِ فى النَّسل :

يَجْنى شاربُ الخمر على ذُريته جنايةً لا تُغتفر ، فإنّه يتسبَّبُ فى وجود أطفال معرضين لتشوهات خَلْقية وخُلُقية قبيحة ، وذلك لأن الخمرَ تتغلغل تغلغلًا سحيقًا فى جميع خلايا الجسم خاصة العصبية منها ، ولا تخلو منها الحيواناتُ المنويةُ ؛ إذ تَنْتقل إليها الإصاباتُ بواسطة التلقيح إلى بُويضة الأُنثى ، فتصبح العَلَقةُ مريضةً ، وأُبيِّنُ هذا التأثير فيما يلى :

1 - **الخمرُ والإجهاضُ** : ويُعتبر الخمرُ من أهم العوامل الرئيسة المسبِّبة للإجهاض ، والإجهاض هو ولادةُ الطفل قبلَ بلوغه كمال النُّمو الطبيعىّ ، أو هو لَفْظُ الجنين من الرحم قبلَ ميعاد الوضع ، الأمرُ الذى يُسبب للأم متاعبَ جمّةً هى فى غِنًى عنها ، ومضاعفاتٍ خطيرةً تُودى بحياتها ، ولقد صدق المثل العامى **القائل** : « ولادة كل يوم ، ولا سقط سنة » .

2 - **الخمرُ والطفل بعدَ الولادة** : وإذا نجا الطفلُ من الموت وهو فى الرحم جنينًا ، فليس معنى ذلك أنه تخلّص من أضرار الخمر التى سممه بها

أبواه ، بل سوف يَجْنى الثمرةَ الخبيثة التى هيآها له ، ويَرْزَحُ (*) تحت عِبء الأمراض المضنية ، والعلل المُميتة التى أرادا أنْ يُصيباه بها ، وهو المسكين الذى لم يرتكب إثمًا ، ولم يشرب سُمًّا ، بل ذَنبه الوحيدُ أنّه وجد من وَالِدَيْن عديمَىْ الحكمة والتدبير ، ظلما أنفسَهما ، وحمّلاه جريرتَهما ، وسبَّبا له نكدَ العيش ، وأهدياه مصيبةً لا سبيلَ له لرفعه عن كاهله ، ولقد صدق المعرّىّ حين قال :

هَذا ما جَناهُ أبى عَلَىَّ   وَمَا جنيْتُ عَلَى أَحَدِ

وإنى لستُ أعجبُ ممن لم يُرشدْهُ دينُه إلى ما فيه صلاحُ جسمه ، وسلامةُ بدنه ، فلهذا بعضُ العُذْر فى ركوبِه متنَ الشطط ، ووُلوجِه أبوابَ الظلمة والضلال ، ولكنْ عجبى ممن أرشدَه دينُه إلى سُبُلِ السلام فحاد عن طريقها ، وركِبَ رأسَه ، وتوغَّلَ فى الفسادِ والمَعْصية .

إنّ أقلَّ الناس إدراكًا ، وأفسدَهم رأيًا لا يصحُّ أنْ يجنى على أطفاله فيورِّثهَم عللًا يُقاسون منها ما يُقاسون ، ويُلاقون من صعابها ما لا قِبَلَ لهم به .

تؤثِّر الخمرُ تأثيرًا خاصًا فى نطفة الرجل ؛ إذ تُفسد بروتوبلازم الخلايا التناسلية أو تُشَوهها ، وتحمل كروموزوماتُها الاضطراباتِ المَرَضية مِن المُورِّثِ إلى نَسْله ، سواء كانت تلك الاضطراباتُ خَلْقية أو خُلُقية ، وعندما تصل نطفةُ الرجل إلى بُويضة الأنثى تُعْدِيهَا فتنتجُ العلقةُ حاملةً نواة الضعف العصبى والتشويه الخَلْقى والخُلُقى ، وقد يكون السببُ فى ذلك بويضةَ الأنثى إذا كانت هى الجانيةَ .

وربَّما كانت الإصابةُ مزدوجةً وموجودةً فى النطفة والبويضة نتيجة شرب الرجل والمرأة جميعًا لهذا السُّمِّ الزُّعافِ (**) ، فَتُعَدّ النكبةُ أشدَّ ، والمصيبةُ أكبرَ وأعظمَ .

وعلى أىِّ الحالات إذا سَلِمَ الجنينُ من الموت كان الطفلُ عرضة له ، وإذا

(*) يَرْزَحُ : يضعف ويسقط من شدّة المعاناة . انظر : «اللسان» (ر. ز. خ) .

(**) الزُّعافِ : سمٌّ زعاف أى سريع القتل . انظر : «اللسان» (ز. ع. ف) .

عاش هذا الأخيرُ كان عُرضة للإصابة بالسقوط العصبيّ الشديد الذى يودى بحياته سريعًا ، أو يُصاب بسقوط عصبيّ لا يُحدث الموت ، ولكنه يجعله عرضةً للتشنجات العصبية وسرعة التهيج ، وتراه بجانب ذلك ضعيفَ الجسم ، خائرَ القوى ، واهىَ الأعضاء مما يجعله هدفًا لشَتىَّ الأمراض التى تجد فى جسمه مرتعًا خِصْبًا لها كالنزلات المعوية ، والالتهابات الرئوية وغيرها .

ثُمَّ إنّه لا يَأْمَنُ كذلك من أنْ يشتدّ به المرضُ العصبىُّ فيصاب بالعته والجنون ، أو يصاب بالشلل العام ، حيث ينتهى أمرُه طبعًا بالموت ، وقد ذكر فوريل ص 268 : أنَّ أبحاث (بزولا) الحديثة تُثبت الرأىَ القديم القائل بأثر الخمر فى إضعاف النسل ، وقد راجع الإحصاء الذى تمّ فى سويسرا سنة 1900م ، فوجد أن تِسعة آلاف معتوه قد حملت فيهم أمهاتهم فى المَوسِمَيْنِ اللّذيْنِ يُفرط فيهما الناسُ فى تعاطى الخمور ، وهما عيدا الكرنفال والكروم .

ويذكر كذلك أنّه يلاحظ كثرة الحمل بالبلهى فى مواسم الكروم فى البلاد التى تكثرُ فيها زراعتُه ، بينما يكادُ ينعدم العتهُ فى المحمول بهم فى غير هـذه المواسم ، وبجانب ذلك فإنّ الإحصاء يدلّ على أنّ الحمل أقلُّ فى الموسمين المذكورين .

ومعظمُ أولاد الجهلاء من شاربى الخمور يُصابون بتشوهات (*) خَلْقية (بفتح الخاء) نتيجةَ فعلِ سُمّ هذه المادةِ الخبيثة فى أجسامهم طوال مُدّةِ الحمل فيخرجون إلى العالم مَرْضَى ناقصى الخِلْقة ، فترى نقصًا واضحًا فى تركيب مخهم أو تراهم مصابين بالكريتيسزم (مرض الطفولة) حيث لا تنمو عظامهم ، ولا عضلاتهم ، ولا تنمو أعضاؤهم التناسلية إلى غير ذلك مما يتبع هذا المرض .

ويُصاب أولادُ شاربِى الخمر كذلك بتشوُّهات أُخرى كفقْدِ تناسب عظام الجُمجمة ، أو بأمراض أُخرى مُميتة ، كاستسقاء الرأس وغيرها .

ويرث الطفل بجانب ذلك الأخلاقَ الشَاذة التى يتصف بها شاربو

(*) تنتج هذه التشوهات لوجود مادة Acet Aldahyoe وهى مادة مشوهة للصبغيات ولها دور فى إحداث السرطانات .

الخمور ، ويُصاب بضعف الأعصاب وضعف الذاكرة وسرعة التهيج ، وشدة الانفعال ، وتعتريه أعراضُ الهستريا ، ويكون عُرضة بين حين وآخر للتشنجات العصبية الشديدة وسائر الاضطرابات العقلية المختلفة ، ويمتاز بجانب ذلك أولاد شاربى الخمر بفساد الأخلاق ، وضعف النفس والميل إلى الإجرام والشذوذ التناسلى ، وَنقص القدرة على الإرضاع . . . إلخ .

وهذه الصفاتُ المتقدِّمة أو بعضُها إنْ لم تُصب الطفلَ صغيرًا تَلْحقه كبيرًا ، وتُحيط به فى أىِّ سِنٍّ من سِنىِّ حياته (*) .

3 - **الخمرُ والعقمُ** : ولقد ثبت طبيًّا أنّ الخمرَ تُؤَدّى إلى انقراض عائلات بِرُمَّتها فى العَقِبِ الأول أو الثانى أو الثالث ، فأما العقب الأول فهو قتل الجنين أو فتكها بالطفل بعد الوضع ، وأما انقراض العائلة فى العَقِب الثانى ، فهو أنّه إذا سلم الابنُ الأولُ فقد يكون عقيمًا ، أو قد تخرج منه أطفالٌ لا تلبث أن تَقْضِى نحبَها كما بيّنا أو يموتوا أجنةً .

أما إذا وُلِدَتْ أبناءٌ للعقِب الثانى وعقب هذا الأخير فلا شكَّ أنَّ العقبَ الثالثَ يُولد عقيمًا ، أو لا تعيش أبناؤه ، وبذلك تنقرضُ الأُسْرة ، ولقد ثبت ذلك طبيًّا ، وعُملت تجاربُ كثيرة انتهت كلُّها بإثبات فعل الخمر الهَدْمِىّ للأسرة والعمران ، ومن هذه التجاربِ أنْ سُمِّمَتْ كلبة بالخمر ، وأطلق عليها كلب سليم ، فولدت 12 كلبًا ، فَنِيتَ كلها فى بحر 67 يومًا ، ولم يكنْ سببُ موتها إلا التسمم الكُحوليَّ الذى وَرِثَتْهُ عن أمِّها .

وذكر بارتوهوليات Partoholeat أنّ 86% من شاربى الخمر تنعدم فيهم الحيواناتُ المنويةُ ، فلا يُعقبون نسلًا ، وهنالك بعضُ أمراض أُخرى تسببها الخمرُ (**) يمتنع فيها الزواجُ مطلقًا للبكر ، ويحرمُ فيها طبيًّا حمل الثيب ،

(*) يؤكد الباحث الأمريكى لوريل هرتون أن 50 % من أبناء المدمنين للخمر مدمنون أيضًا . انظر : (موقع نقابة الأطباء المصرية على الإنترنت) .

(**) **الخمر وشذوذ العاطفة** : يزداد هرمون الأنوثة فى جسم مدمن الخمر فتكبر أثداؤه ، ويرق صوته ويقل شعر العانة ، ويتجمع الدهن فى الأرداف ، ويفقد المدمن بذلك صفات الرجولة ، ويتحول إلى شبه أنثى . انظر : «الخمر بين الفقه والطب» ص 41 .

وبسبب الخمر «يقل إفراز هرمون الرجولة كما أن الحيوانات المنوية يقل عددها» (المرجع السابق) .

ومثلُ هذه الأمراضِ (سروسز الكبد) ، ويجب على المصاب بأحدها أن يَمتنعَ عن الزواج مطلقًا ، وإلَّا جَنَى على نفسه .

وهذا ما دعى « بتر » إلى أن يقرر أنَّ البكر إذا كانت مصابةً ببعض أمراض الكبد أو القلب أو الكليتين ، فيجب ألَّا تتزوج ، وإذا أصيبت بأحدها وهى ثيب يجب ألَّا تحملَ ، وإذا حملت يجب ألَّا تضع ، وإذا وضعت يجب ألَّا ترضع ؛ فإن الموت يُلاحقها فى أية فترةٍ من هذه الفترات ، وسيأتى الكلام على هذه الأمراض فى حينه .

الكَبِدُ الكُحوليَّة (الكِبّادُ المُزْمِنُ) :

هذا المرضُ هو من العلل المزمنة ، ويسمّى (سروسز الكبد) ويُسمّى أيضًا مرض (شاربى الچن) والچن نوع من الخمور كما قدّمنا ، والأغلبية العظمى من المرضى بهذا الداء هم شاربو الخمور[1] .

وتُسَببُ الخمرُ هذا المرضَ بما تُحدثه من التهابات أثناء مرور سُمّها فى القنوات المرارية[2] أو فى الكبد نفسها مع الدورة الدموية ، والمرضُ عِبارةٌ عن زيادة إنتاج أنسجة خاصة (نسيج ضام) فى الكبد خلاف نسيجها الأصلى .

ومن مصائب هذا المرض أنّ هذه الأنسجةَ الغريبةَ تنمو على حساب النسيج الأصلىّ ، ويصحب هذا الإنتاجَ ضمورُ بارنكيما الكبد ، ويتوقف ذلك على ما إذا كانت الأنسجةُ الجديدةُ قد تم انكماشها أو لم تزل على حجمها الأصلى .

ولا أريدُ هنا أنْ أذكر التغييرات الجسميةَ التى تطرأُ على هذا العضو ، سواء الظاهرية منها أو المكرسكوبية ، ولكنّى سأبين تأثير المرض على الوظيفة الحيويّة للكبد ، وكيفية هدمه لكيان الجسم .

---

(1) انظر : كتاب « مزاولة مهنة الطب » ص 681 المذكور آنفًا .

(2) يحدث مرض الصفراء فى 35 % من المصابين بالكباد .

هذا المرضُ معناه تعطيلُ توزيعِ الحرارة على جميع أنحاء البدن أو بطريق أوضح الإخلالُ بوظيفة الكبد التي هي من أهم الأعضاء الرئيسة التي عليها مدارُ الحياة ، وسأذكر هنا ما يقتضيه المقام عن أهم وظائفها ؛ لتسهلَ معرفةُ خطورة المرض الذي يسبب ولو بعض الإخلال بإحدى وظائف الكبد .

تنظم الكبدُ توزيعَ ما تحتاجَ إليه العضلات من الجلوكوز (سكر العنب) إما بإخراجه من البروتين ، إنْ كانت كميَّةُ الكربوهيدرات غيرَ كافية ، أو بتخزينه على هيئة (جليكوجين) إذا كانت كميَّتُها كبيرةً ، ثم توزيعه بعد ذلك على جميع أجزاء البدن حَسَبَ الحاجة .

ولو علمتَ أنّ السكر هو مبعثُ الحرارة في الجسم ، ومبعث الحياة ، ولو علمتَ أنْ الكبدَ هي التي تقوم بتوزيع هذه الحرارةِ لسهُل عليك معرفَةُ الخَطْبِ العظيم الذي يترتّب على المرض الذي يُصيب الكَبِدَ ، ولو كان تافهًا .

ومن وظائف الكبد استهلاكُها للمادة الحمراء في الدم ، واستيلاؤها عليه من كُرات الدم الحمراء القديمة المُتْعَبة ، واستغلالُها لِمَا به مِن الحديد لأعمال تالية ذاتِ شأنٍ خطير .

والكبدُ تقومُ بوظيفة لا غنى عنها ، ولولاها لعانينا الآلامَ التَّسَمُّمِيَّةَ الخَطِيرةَ بل لتعرضت أجسامُنا للموت في كلِّ لحظة ، وتلك الوظيفةُ هي حمايةُ الجسم ضدّ كثير من السموم السابحة فيه وإرسالُها إلى المرارة ، ومثلُ هذه السموم أملاحُ الأحماض المراريّة ، ومشتقاتها ، والألكالويدز ، والأمينز المكوَّن من البروتينات المتعفِّنة المتخلفة في الجهاز الهضميّ ، ويموتُ أكثرُ المصابينَ بالكباد إذا وقع لهم أيُّ حادث لفقد الجسمِ تلك المناعة التي تَكْسِبُها بالكبد السليم [1] .

وهنالك وظائفُ أُخرى للكبد كتنظيم إيرادِ البروتينات والدُّهن نكتفي بالإشارة إليها ، وهذه مثل لخطر شُرْب الخمور بالمقادير الصغيرة التي يَدَّعي بعضُ الجهلاء عدمَ تأثيرها على عقولهم ، وهي تسلبهم هذه العقولَ ، وتَنْخَرُ

---

(1) انظر : كتاب « مزاولة مهنة الطب » ص 682 .

فى أجسامهم كما ينخَر السوسُ فى الخشب ، ولا أجدُ مجالًا للخوض فيكفى اللبيبَ أنْ يعرفَ بما ذكرتُ مدى ما يُلاقيه المريضُ بالكبد ، وفقده لوظيفته ، وأحيل القارئ إلى كتب الطب إذا أراد التوسع فى معرفة الداء .

التحوُّلُ الدُّهْنىُّ للكبد :

وهذا المرضُ عبارةٌ عن تحوّلِ النسيج الكبدىّ إلى مادّة دُهنية على حساب بروتوبلازم الكبد ، وترى فى هذه الحالةِ العضو وقد غدا دُهنيًّا كبيرَ الحجم ، أصفرَ اللون ، وهذه الحالةُ تُعدّ مميِّزة لكبد شاربى البيرة [1] وهذا المرضُ يُفقِدُ عملَ الكبد كذلك كالكباد [*] .

الخمرُ والكُلى :

وقد يُحْدِثُ الخمرُ كذلك تحوّلًا دُهنيًّا ونَخْرًا فى إبيثليوما الكُلى ، وتُعَدُّ الخمرُ كذلك بلا شكٍّ عاملًا مهمًّا فى إحداث الاكتلاء الحَشْوِىّ والخللىّ المزمنين .

الخمرُ والنسيجُ العَصَبىُّ :

والتغييراتُ الأثيرومية [2] فى الأوعية المُخية التى تحدثُ من شُرْبِ الخمر تُؤَدّى إلى تغيُّرات استحالية (فساد) فى خلايا المادة السنجابية فى المخ ، وذلك بجانب ما للخمر من التأثير المباشر عليها ، فتجد بذلك الخلايا العصبية فى الغِلاف المُخّىّ ، وقد ظهرت عليها علاماتُ التسمم كورم الخلايا العصبية مع تكوّن فجوات فى الأنسجة المروضة ، مع التلوين ، وتحلل اللون مع ظهور تحول كبير كذلك فى الزوائد الرأسية . . . إلخ .

---

(1) انظر : الكتاب المذكور ص 390 .

(*) يؤكد البروفسير برانت من جامعة كامبردج أن تناول 180 غرام من الخمر يوميًا كافٍ لإحداث تشحمُّ الكبد .

ويموت فى فرنسا وحدها سنويًا أكثر من 22 ألف شخص بسبب تشمع الكبد الغولى ، وفى ألمانيا يموت حوالى 16 ألف .

(2) أثيروما : سيأتى شرحُها عند الكلام عن إصابة الأوعية الدموية .

إصابةُ الأوعيةِ الدَّمويَّةِ والقلبِ :

وتُصيبُ الخمرُ الأوعيةَ الدمويّة بأثيروما [1] وتصيبُ الشرايينَ بالتصلُّبِ الذى يُؤدى إلى ضيق الأوعية الدمويّة ، فانسدادِها ، فمنع التغذية عن العضو الذى تُغذيه تلك الأوعيةُ ، وبذلك يُصاب العضو بالغنغرينا الجافة .

وتُحدثُ الخمرُ كذلك مرضًا يُسمّى الرَّوْية الوريدية (ثرومبوسز) ، وينشأ هذا المرضُ مما تُحدثه الخمرُ من الالتهابات الوريدية التى تُسبب موتَ بعض الخلايا المبطنة للأنابيب الدموية فتتجمع هذه البقايا ، وتسافر فى الوريد ، ثم تصل إلى الشريان الرئوىّ فتسده ويَحْدُثُ موتُ الفُجاءة ، وقد يكون الموت الفُجائى ناجمًا عن تعرض هذه البقايا أو الدَّمَةِ (*) المتكوّنة فى البوّاب الذى يصل بين القلب والأذنين ، وقد تعترض الدُّمَة فى أحد شرايين المخّ فيحرم هذا الجزء من غذائه فيتعطل عمله ، وينشأ بسبب ذلك شللُ العضو الذى تُغذيه أعصاب هذا الجزء ، وقد تكونُ الإصابةُ مهمة فى المخّ فتحدث الوفاة .

وتُصيب الخمرُ القلبَ كذلك بالتحوّل الدّهنى والالتهاب الليفىّ لعضلة القلب نتيجةَ الأثيروما فيحدثُ انسدادٌ فى الشرايين الإكليلية ، وتتمدد عضلاتُ القلب كذلك إما للتغيرات التى طرأت عليها لحدوث الأورام الهلامية المصراعية ، ولا يخفى الخطرُ العظيمَ الذى يحدثُ من إصابة القلب ، وهو العضو الأساسىُّ فى الجسم (**) .

تأثيرُ شُرب القليلِ من الخمرِ :

وهكذا رأيتَ أنّ شُربَ القليل من الخمر فى كُلّ دَفْعة هو السببَ فى كلّ ما

---

(1) هو حدوث ورم هُلامى ، وهو فساد حُبيبى دُهنى فى بطانة الشرايين التى كانت موضع التهاب مُزمن ، وهذه الاستحالةُ تلين طبقات الحائط الشريانى ، تسبب تمزقًا فى البطانة ثم تقرّحًا أثيروميًا ، وقد تَسْتَحْجِرُ المادّةُ الهلامية ، أو تصير غضروفًا أو عظمًا .

(*) **الدَّمَةُ** : القطعة من الدَّم .

(**) **من الأمراض التى تصيب القلب بسبب الخمر أيضًا :**

1 - اضطراب نظام القلب .　　2 - داء البرى برى القلبى .

3 - داء الشرايين الإكليلية .　　4 - اعتلال عضلة القلب .

انظر : « الخمر بين الطب والفقه » (ص 35 - 50) .

بينت من الأمراض إذ تؤثرُ الخمرُ فى الجسم شيئًا فشيئًا حتى تَذَرَهُ ضعيفًا موبوءًا مصابًا بأخبثِ العلل والأمراض التى بيّنتُ أمثلةً لها فيما تقدّم .

خَمْرُ الجَنَّةِ :

ويَجْدُرُ بى هنا أنْ أَذْكُر كلمةً قصيرةً عن خمر الجنّة فقد جاء فى القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ [محمد : 15] ، فهل الخمرُ مطلقًا لذَّة للشاربينَ ؟! كَلَّا فقد عَلِمْنا فيما تقدّم أنّ خَمْر الدنيا شقاءٌ للشاربين ، وويلٌ لهم ، وقد بَيَّن الله تعالى فى هذه الآية أنّ ما يتوهمُه الناسُ فى خمر الدنيا من لَذّة لن يجدوها فيها ، ولكنّهم سيجدونها حقيقة فى خمر الجنّة ، وقد وصف سبحانه وتعالى فى سورة الصافات مجالسَ أهل دار الخلد فقال : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ [الصافات : 41 - 49] .

فذكر الله تعالى بذلك أن مجالسَ شُرْب الخمر فِي الجنّة ليست تلك المجالس السافلة الحقيرة التى تُوصِمُ الحاضرين فيها بِوَصْمات الفضيحة والعار ، بل إنّ مجالسَ شرب خمر الجنّة مكرَّمةٌ ، والحاضرات فى تلك المجالسِ لَسْنَ بالمتهتكات ، بل قاصرات الطَّرْف ، وحابسات النظر على أزواجهن ، كأنهنّ بَيْضٌ مكنون أى : لا يَمَسُّ خَلْقَهنّ أو أنفسهنّ ذرةٌ مِن شَرّ .

وقد ذكر الله تعالى العِلة فى ذلك وهى أنّ خمر الجنّة لا يوجد فيه الغول (الكحول) الذى يفعلُ بالأجسام والعقل والأنفس ما قدّمنا ، وقال تعالى كذلك عن تلك الخمر الخالية من الغول : ﴿ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ [الصافات : 47] أى يسكرون فلا تَنْزِفُ عقولَهم وتزول بشربها ، بل هى لَذّة للشاربينَ وفيها من الموادّ ما لا يُحدِثُ الأضرارَ التى تنجُم عن شُرب الغول واستعماله للسكر ، وقال تعالى فى سورة الواقعة : ﴿ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا

يُنزِفُونَ ﴾ [الواقعة : 18 ، 19] أي : لا يُصابون بالصُّداع الذى يَعْترى شاربى الخمور فى الدنيا ولا تذهب عقولهم بها ، ويؤدى النزف كذلك معنى ذهاب المال ، ونفاد الشراب (*) .

★ ★ ★

(*) قال ابن كثير : « أى لا تصدع رءوسهم ولا تنزف عقولهم بل هى ثابتة مع الشدة المطربة واللذاذة الحاصلة » . انظر : « تفسير القرآن العظيم » (4/ 286) .

وجهاء لم يشربوا الخمر : لم يشرب الخمر فى الجاهلية وجهاء ومبَّرزون ، منهم :

1 - أبو بكر الصديق ﷺ أخرج أبو نعيم فى « الحلية » عن عائشة رضى الله عنها قالت : « حرَّم أبو بكر ﷺ الخمر على نفسه ، فلم يشربها فى جاهلية ولا إسلام » .

2 - عدى بن حاتم : قيل لعدى بن حاتم : لم لَا تشرب الخمر ؟ فقال : لا أشرب ما يشرب عقلى . انظر : « العقد الفريد » (8/ 48) .

3 - عثمان بن عفان ﷺ : قيل لعثمان ﷺ ما منعك أن تشرب الخمر فى الجاهلية ، ولا حرج عليك فيها ؟ فقال : إنى رأيتها تذهب العقل جملة ، وما رأيت شيئًا يذهب جملة ويعود جُملة . انظر : « فقه الأشربة وَحَدِّها » .

4 - العباس بن مرداس : قيل للعباس بن مرداس : ألا تشرب الخمر فإنها تزيد فى حرارتك ؟ فقال : ما أنا بآخذ جهلى بيدى فأدخله جوفى ، ولا أرضى أن أصبح سيد القوم وأمسى سفيههم .
انظر : « فقه الأشربة وَحَدِّها » ص 48 .

المبحث الثامن
عصير القصب المتخمر والبوظة والبيرة

وإنَّهُ لَيخطرُ ببال كثير من العامة. وبعض الجهلة من ذوى الثقافات المحدودة ، ممن لا إلمام لهم بأصول دينهم أنّ عصيرَ القصب المخمَّر والبوظة [1] والبيرة [2] (الجِعَة) Ale مرفوعة من قائمة المحرَّمات المُذْهِبات للعقل كمختلف أنواع الخمور ، أو أنّ هؤلاء وهؤلاء يُغالطون أنفسهم ، أو يستولى الشيطان على ما فى داخل جماجم هيكلهم البشرى فيخدعهم ويُزَيِّن لهم المعصية ، ويميل بهم عن سبيل الرشد إلى طريق الغِواية والشرّ ، فَيُهَوِّنُ لهم من شأن مُذهبات العقل ، ويوهمهم أنها من مواد التغذية ، وأنّها طعام من الأطعمة المباحة ، أو عقار من العقاقير المشهية النافعة لأبدانهم الحيوانية المفيدة لأجسامهم التى لم ترقَ أرواحها إلى المستوى الإنسانىّ الكريم ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ [الكهف : 103 - 105] .

عِلّةُ شُربِ عَصيرِ القَصبِ المتخمّر والبوظةِ والبيرةِ :

قُل للذينَ يَدَّعون أنّ عصيرَ القصب المتخمِّر أو البوظة أو البيرة غيرُ حرام : لماذا تشربونها ؟ أهى كعصير الليمون Citrllmedica المستعمل فى الطبّ مبرّدًا فى الالتهابات والذى تصنع منه الليمونيات وأشربة ملطّفة ، ويستعمل

(1) البوظة « البوزة » : هى الخمر المصنوعة من الشعير ، وهى غير البوظة التى تطلق على الدندرمة والجيلاتى فى الجمهورية العربية السورية وجمهورية لبنان .

(2) البيرة : مادة خمرية من الشعير المنقوع وحشيشة الدينار .

مسًّا للزور فى الذبحات الصدرية ونزلات الحلق ، ويُستعمل فى الروماتزم شرابًا وفى غير ذلك من الأمراض ؟! أو هى كمنقُوع الخرّوب Ciratonai siliqua السّكرى المغذّى المرطّب ؟! أو كمنقُوع عرق السوس Liduiritia Officinalis المسهّل تسهيلًا خفيفًا يناسبُ الضعفاء والمصابين بالبواسير ، المنفث فى النزلات والسُّعال المغذّى المرطّب .

بل قُلْ لهم : هل يستوى مثلًا عصير القصب المتخمر والطازج طعمًا ؟! وهل تستوى البوظة (البيرة) وماء الشعير Hordeum vulgare المبرد ذوقًا ورائحة ؟! هل يستوى الخبيثُ والطيبُ : ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة : 100] .

إنّ الذى لا شكَّ فيه أنَّ الناسَ لا يشربون عصيرَ القصب المتخمّر والبوظة والبيرة إلَّا لتأثيرها المُسْكر ، ولأنّها تُميل ميزانَ العقل ، وجريًا وراء الأوهام التى يَنْشُدُها شاربو الخمر تحت أىّ اسم سُمّيت به ، ومهما كان المصدر الذى صدرت منه .

المادّةُ الفعّالة فى عَصير القَصَب المتخمّر والبوظة والبيرة :

إنّ المادَّة الفعَّالة فى عصير القصب المتخمّر والبوظة والبيرة هى عينُ المادة الفعَّالة فى سائر أنواع الخمور ، هذه المادة الفعَّالة هى - كما ذَكَرْنا - الكحول (السبرتو) ، ولا فرق بين ما هو موجود فى الكونياك أو الوسكى أو البراندى أو البيرة أو البوظة أو عصير القصب المتخمّر وغيرها من كحول إلّا النسبة المئوية من أي نوع من هذه الأنواع .

فالكحولُ الذى يوجَد فى الكونياك مثلًا يستخرج من السكر الذى يوجد فى العنب ويُسمَّى سكرَ العنب (جلوكوز Glucose) ، وينتج الكحول الموجود فى عصير القصب المتخمّر من سكر القصب (سكروز Sucrose) وهو نفس السكر الموجود فى البلح الذى يُستخرَج منه بعض الخمور ، وكذلك يَنتجُ الكحول الموجود فى البوظة من السُّكر الموجود فى الشعير ، ويُسمّى سكر الشعير (ملتوز Maltose) ، وهو الذى يستخرج من كحول البيرة .

فإذا كان عصيرُ القصب المتخمّر يُعْمَلُ من مادة عصير القصب فعِرقُ الروم Rumbultion الشهير باسم (روم Rum) يُحَضَّرُ فى أمريكا من العسل الأسود بالتخمير والتقطير ، والمعروفُ أنّ العسل الأسودَ يُستخرجُ من عصير السُّكر ، وهو دبس السكر أى المادة الباقية بعد تبلور السكر من عصير القصب .

وإذا كان كُلٌّ من الجِعَة والبوظة يُصنعُ من الشعير فإنَّ كلًّا من الچن Gin والوسكى Whiskey (عرق الشعير) يصنع من نفس هذا النبات ، كذلك . وهكذا تجد أنّ الخمر هى خمر مَهْما تغيرت أسماؤها وتنوعت مصادرها واختلفت الموادُّ السكرية التى صُنعت منها .

حَالةُ السُّكْر تتوقفُ على مقدارِ الكُحول المشروبِ :

إنّ حالةَ السُّكرِ وذهابِ العقل لا تتوقفُ على نَوع الخمر المشروب ، وإنَّما تتوقفُ على الكَمية التى يتناولها الإنسانُ مِن الكُحول فى المادة المشروبة وفى حجم المادة نفسها .

فالذى يَسْكَرُ مِن 50 جرام من الوسكى مثلًا ، فقد سكر فى الحقيقة من 100 جرام من الكحول الموجود فى الوسكى بنسبة 50 % مع العلم بأن نسبة الكحول فى الوسكى تبلغ من 40 إلى 60 % ، ونفس الشخص يسكر مِن شرب (قصعة) بوظة تحتوى على مِلْءِ نحو أربعة أكواب ماء من البوظة تحتوى على نحو 50 جرام من الكحول ، مع العلم بأنّ كوب الماء سعتها 200 جرام وأن نسبة الكحول فى البوظة يبلغ نحو 6 % ، ولهذا تجد شارب الوسكى يشرب كأسًا من الوسكى (الذى يُعادِلُه قصعة من البوظة) بينما لا يكتفي شارب البوظة بكأس ، وإنما يشرب قصعة برمتها فيتساوي الاثنان فى درجة السُّكر .

وكذلك الحالُ فى شارب عصير القصب المتخمّر المحتوي على 5 % من الكحول فإنه حينَ يَشرب أربعَ أكواب من هذه المادة المُسْكرة فإنّه يقع في حالة السكر التى يقع فيها من شرب من البراندى Brandy أو الليكير Liqueur أو ما شابهها مقدارًا يبلغ نحو خمسين سنتيمترًا مُكَعَّبًا ، مع العلم بأنّ كُوب

العصير المتخمّر يبلغ نحو 250 سم^3 أىْ كوبًا أكبر سعة بقليل من كوب الماء العادى ، ومع العلم بأنّ أصنافَ الخمر المذكورة تحتوى على نسبة من الكحول تتراوح بين 40 و 60 % .

وقِسْ على ذلك أنواعَ البيرة [1] مثل الإيل Ale والبرتر Porter التى تُسمّى (البيرة السوداء) والتى تحتوى على مقدار من الكحول يبلغُ نحو 2 إلى 9 % ، فشاربُ زجاجة من البيرة يبلغُ حجمُها نحو 800 سم^3 أى أقلّ من اللتر بقليل ، إنّما يشربُ من الكحول نحو 40 سم^3 ، إذا كان متوسط المادة الفعّالة فى البيرة يبلغ 5 % فما بالك بمن يشرب من البيرة زجاجتين أو أكثر من زجاجتين ، فهل هنالك من يدّعى بعد ذلك أن عصير القصب المتخمر أو البوظة أو البيرة ليست خمورًا كغيرها من الخمور ؟ .

فِعْلُ عصير القَصب المتخمّر والبوظةِ والبيرةِ فى شاربيها :

وهنا يتبيّنُ أن عصيرَ القصب المتخمّر والبوظة والبيرة وأىَّ مادة أُخرى تشبهها تفعلُ فى شاربيها ما بيّناه فى المبحث السابق من إتلاف الأعصاب وخلل مختلف أنسجة الجسم وأعضائه الرئيسية ، والإضرار بالنسل وإفساد المجتمع الإنسانىّ وتقويض دعائم الأسرة على وجه خاص .



(1) يطلق على مشروبات المولت اسم محاليل المولت Maltliquors وتشمل البيرة (بيرا) والبوظة (بوزة) والمزر .

المبحث التاسع
الطَّلاقُ وحِكمَتُهُ

قال الله تعالى : ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ ﴾ .
[البقرة : 229]

سُبُلُ التَّوفيقِ ومَنْعِ الطَّلاقِ :

ولم يُشَرِّع الله تعالى الطَّلاقَ للمسلم إلَّا بعد أنْ هَذَّبه بالعبادات التهذيبَ الكافى ، وربَّاه التربية الدينية العالية ، وقوّم نَفْسَه ، وعلا بعواطفه ، وربىّ إرادته ، وجعله رجلًا بالمعنى الكامل للرجولة ، وبعد أنْ عَرّفه حقيقةَ الزواج وعلّمه واجباتِه نحوَ أُسْرته ، ونحو المجتمع الإنسانىّ الذى يعيش فيه إلى غير ذلك مما بيناه فى مؤلَّفنا (الرجل والمرأة فى الإسلام)[1] .

ولم يجعلْ الدِّينُ الطلاقَ فى يد الرجل إلَّا وقد اعتبره رجلًا كاملًا ذا عقل صحيح ، وقوة إرادة ، لا تعبثُ به الانفعالاتُ المختلفةُ ، يضبطُ نفْسَه ويوجهها إلى ما فيه الخيرُ العام ، لا يثور لأدنى خلاف بينه وبين زوجته ؛ بل يداوى الأمورَ بحُسْنِ تصريفه وصائب فكره ، وعين بصيرته .

فإذا صَعُب عليه الإصلاحُ ، وكانت امرأته ليست كما يجب وليست على علم تام بواجباتها الزوجيّة ، فعليه أن يُرشدها إلى واجبها بالحلم والموعظة الحسنة ، وأنْ يَلْفِتَ نظرَها إلى ما هو خَليقٌ بها كامرأة كاملة مُسْلِمَة تعرفُ حقوقَها وواجباتها .

فإذا لم يُؤدِ ذلك إلى نتيجة مُرْضيةٍ ، وكَان فى المرأة بعضُ الشّذوذ ، وضَعْفُ الإدراك ، وشىء من الإهمال ، وعَدَمُ التبصر فى عواقب الأمور ،

(1) الكتاب طُبع بدار الفضيلة .

فعليه أن يجرّب الزجرَ وبعضَ القول الشديد ، فإن لم ترجعْ الزوجةُ عن عصيان زوجها ، فلعلّ فى هجرها فى المضاجع تنبيهًا لها ، ولفت نظر عمليّ إلى ما هى عليه من العِوَجِ ، فإذا كان ذلك لا يُجدى فقد أباح الدِّينُ الضربَ كآخر وسيلة للإصلاح .

ولقد ذكر الله تعالى ذلك فى قوله : ﴿ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ [النساء : 34] .

ولقد دعا الدينُ بجانب ذلك فى محاولة الصّلح قبلَ الانفصال لعلّ ذلك يكونُ سببًا فى هداية الزوجة ، والرجوع إلى رشدها ، فقال : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ﴾ [النساء : 35] وقال : ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء : 128] . ولقد شَرَعَ الدِّينُ الطلاقَ إذا لم تُفِدْ كلُّ هذه المحاولاتِ فقال : ﴿ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : 227] وقال : ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ [النساء : 130] وانظر إلى قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ ﴾ [البقرة : 227] فالعزمُ لا يكُون إلَّا بعد الرّوِيَّة وطَرْقِ جميعِ الوسائل المؤدِّية إلى الوِفاق ومنع الخلافات .

فِطْرِيَّةُ الطَّلاقِ :

وهكذا ترى الدِّينَ الإسلاميَّ متمشيًا مع الفِطْرَةِ وطبيعةِ النُّفُوس البشرية ، منطبقًا على سُنَنِ الكون ، غيرَ متعارض مع التفكير الصحيح والمنطق السليم .

وهكذا ترى الدِّينَ لم يُبِحْ الطلاقَ لِذَاتِهِ أو لمجرد ما يُشيعه عنه ذَوُو الأغراض ، بل قَرّره حين لا يكون هنالك مفرٌّ منه أو مَحِيدٌ عنه ، وسأذكرُ فيما بعدُ بعض الأمثلة للحالات التى تكونُ العِشْرَةُ الزوجيّة معها مُحالًا من المحالات ، بل نكبةً على المجتمع من أشدِّ النَّكَبَاتِ .

قال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم : 21]
والمُفكِّر يرى أن الزواجَ ما هو إلَّا علاقةٌ نفسية ، وصلةٌ رُوحية بين الزوجين ، وهو قوله تعالى : ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ وهذه الحالة النفسية إذا ائتلفت واتفقت ، صلُح الزواجُ وغدا سعادةً حقيقية .

وشرطُ الزواجِ الراحةُ وسكونُ النَّفْس إلى النَّفْس ، وهو قوله جل شأنه : ﴿ لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾ فإذا لم يتوفر هذا الشرطُ لا يصلح الزواج ، بل يُصبح عبئًا ثقيلًا ترزحُ تحته العائلةُ وتنوء به الأرواحُ ، والمودة والرحمة اللذان ذكرهما تعالى فى الآية الكريمة لا يتوافران إذا تنافرت النفوسُ وشذّت الطباعُ .

وإنّكَ لترى اليومَ بعضَ الأُمم المسيحيّة حينَ رأت حكمةَ الطَّلاق ، وشاهدت بعينَيْ رأسها وجوبه فى الحالات التى ذكرها الدِّينُ الإسلامىُّ انقادت إليه وأَذْعَنَتْ له ، وهى تَعرِفُ مُنافاتِه لِدِينها ، وإلَّا فَلِمَ يُطلِّقُ المسيحىُّ وكتابه يقول : (من يطلق امرأته إلَّا لعلة الزنا يجعلها تزنى ، ومن تزوج مطلقة فإنه يزنى) . ويذكر فوريل (ص 183) أن الطلاقَ كان مباحًا فى الأمم المسيحية ، ولم يحرِّمه إلَّا مجمع ترنت حسب قول الكثلكة الحديثة : إن ما جمعه الله لا يُفرّقه الإنسانُ .

وأعتقد أن الطلاقَ فى الإسلام جريمة إذا لم يكن ضرورةً لا بدَّ منها ، وبعد أن تُعيى الرجلَ المسلمَ الحيلةُ فى إصلاح ذات البَيْنِ .

حَقُّ الرّجلِ والمرأةِ فى الانفصالِ :

جعل الدينُ الطلاقَ بيد الرجل لأنَّه أكثرُ تعقُّلًا وأحزمُ رأيًا من المرأة ، وكذلك أعطى الإسلامُ المرأةَ الحقَّ فى طلب الطلاق والانفصال ، ولها أن تنال ذلك إذا ثبت أنّها على حقّ فى طلبها كأنْ كان زوجُها مُعْدَمًا أو إذا حُكم عليه بالسَّجن لجريمة اقترفها أو لجُرم ارتكبه ، أو كان غيرَ قادر على تأدية الوظيفة الجنسية إلى غير ذلك مما سيأتى بيانُه .

وقد قَيّدَ الدينُ حريةَ المرأة فى الانفصال خوفًا من أن تستعمل هذه الحرية فى غير موضعها تحتَ تأثير انفعال خاص أو رغبة وقتية ، فإذا أساء الزوجُ استعمال السلطةِ المخوَّلة له من الدِّين فى طلاق امرأته كان غيرَ خليق بالرجولة ، وعُدَّتْ مرتبتُه العقليةُ والنفسيةُ أقلَّ من المستوى الخليق بالرجل الصحيح ، فالرجلُ الأرعنُ الذى يُطَلِّقُ امرأته لغير سبب قاهر ، عُدَّ سفيهًا وغدا غيرَ كُفْءٍ للبقاء مع زوجته التى فرّط فيها ، وأصبح خيرًا لها أنْ تُفارقَه لتجدَ الرَّجل الصالح لها ، الذى يمتاز عليه بالرجولة الكاملة .

الطَّلاقُ باللَّفظِ :

وقد جعل الدِّينُ لفظَ الطلاق كافيًا للانفصال ، وذلك تقديرًا للمرأة وحفظًا لشرفها وكرامتها ، فإنَّ الرَّجلَ الذى يقول لامرأته : إنها طالق ، كان كمن طردَها من منزله الذى ارتضى أن يكوّن منزلًا لها ، والإسلامُ لا يَرْضَى للمسلمة أن تُعاشر رجلًا يقول لها : اخرجى من بيتى ! فيطردها من منزله ولو كان غير جاد فى قوله ، مع ملاحظة كونِ الإسلام قد جعل لفظ الطلاق شَرَّ ما يستطيعُ الزوجُ أن يُلقيه على امرأته ، سيما أن هذا العرف أصبح سائدًا بين جميع المسلمين .

ومن فَضلِ الإسلام ومراعاته لجميع الظروفِ الطارئة ، وتخفيفًا منه ، تَسَامَحَ فى التلفظ بالطلاق - أى طرد الزوجة - مَرّتين ، وعَدّ الإهانةَ الثالثة أو التطليقَ الثالث هو النهايةَ القُصوى لاحتمال المعيشة الزوجية ، وهو قوله تعالى : ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ ﴾ [البقرة : 229] .

ولم يُحَلِّلْ الدِّينُ العشرةَ بعد الطلقة الثالثة ، ولكنّه مجاراةً للحالة الاجتماعية ، وتقبيحًا للتهور فى الطلاق ، وردعًا للرجال الرُّعنَاء المتهورين سمح لرجوع المرأة المطلقة الثالثة إلى رجُلها الأول إذا تزوجَتْ آخرَ زواجًا شرعيًّا طبيعيًّا ، ثم طُلقت منه لأمرٍ طبيعيّ كذلك ، قال تعالى : ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة : 230] .

بعضُ مُبَرِّراتِ الطَّلاقِ الاجتماعيةِ :

1 - **العُقْمُ** : أباحَ الدِّينُ للرجُلِ أنْ يطلِّقَ امرأته إذا ثَبَتَ عقمُها ولم يتيسر له زواجُ غيرها معها حتى لا يُحْرَمَ الذُّرية ، ولا يتعطل النسلُ ، وكذلك للزوجة طلبُ الطلاق من الرجل الذى لا تنجب منه إذا ثبت أنّه لا يأتى بنسل .

2 - **عُدْمُ الزَّوج** : وأباحَ الدِّينُ للمرأة أن تَنال الطلاق من زوجها إذا غدا مُعْدَمًا لا يستطيع الإنفاقَ عليها مُطْلقًا حتى لا تموتَ جوعًا أو تضطرها الحالُ إلى طرق سُبُلِ الفساد .

3 - **سَجْنُ الزَّوجِ مُدَّةً طويلةً** : وللمرأة أنْ تَطْلُبَ الطلاقَ من زوجها إذا حُكم عليه بالسَّجْن زمنًا لتحفظ مركزها الأدبىّ والاجتماعىّ ، وليُمْكِنَها التزوجُ من رجل غير مجرم(*) ، ولتجدَ عائلًا يعولها ، ويُنفق عليها ، ويَعرف حقَّها ، ويُقَدِّر واجب الأُسْرة ، ويفهم معنى الزواج .

بعضُ الأمراضِ التى تُبيح الطلاقِ :

1 - **بعض أمراض القلب والكبد** : ومن بعض أمراض القلب والكبد ما يُوجبُ الطلاقَ ، فسروسز الكبد أو القلب مثلًا ، أو التحول الدّهنى لهما يُحتِّمُ الطلاقَ إذا وقع الزواجُ خطأً ، فإنّ من أمراض القلب ما يمنعُ الزواجَ بالمرّة لخطره الكبير على المصاب أو المصابة به إذا تمَّ الزواجُ ، ورَاجِعْ هذين المرضَيْنِ فى مبحث الخمر .

2 - **السُّلُّ** : والسُّلُّ من الأمراض المُعْدِيَةِ التى قد لا يُرجى منها الشفاءُ ، بل يُعدّ السلُّ من أشد الأمراض خطرًا على الحياة التناسلية ، فالمريضُ بالسّل لا يمكنه أن يقوم بوظيفة الزوج فضلًا عن أنّ هذا المرضَ يُعدى الطرفَ الآخرَ ، بل يُعدى الأطفالَ ، ويُفسد الأسرة .

3 - **الزُّهْرِىُّ** : وقد سبق ذكرُه فى مبحث الزنا ، ويوجِب الفراقَ .

(*) ليس كل مسجون مجرمًا ، فقد يسجن الرجل من أجل دينه أو رأيه أو عِرْضه أو ماله .

4 - **بعضُ الأمراض العصبية** : وهنالك بعضُ الأمراضِ العصبية يُصاب بها أحدُ الزوجين أثناءَ الزواجِ فتستحيلُ المعيشةُ الزوجيةُ كجنون العظمة ، والجنون الاضطهادىّ ، والهستريا ، والملاخوليا ، والبَله ، والعبط ، والعته ، وغيرها .

تشوهاتٌ جسميةٌ تُبيحُ الطَّلاقَ :

ومن التشوهاتِ الجسميّةِ ما يُبيح الطلاقَ كالشلل والبرص والجُذام والعمى وغيرها من التشوهات التى قد تُنفر أحدَ الفريقين ، وأعتقدُ أنّ عدمَ تناسبِ أعضاء الذّكر والأنثى مما يوجب كذلك الانفصالَ لأسباب لا مجالَ لذكرها فى هذا المقام ، ومثلُ ذلك ضِيقُ الحوض الذى لا يسمحُ بنزول الجنين إلّا بطريق فتح البطن فى كلِّ مرّة ، قد يكون من مُبررات الطلاق .

الأمراضُ النفسيّةُ التناسليةُ التى تفرض الطلاق :

وهنالك عِللٌ أُخرى كثيرة تَخْفَى كُلَّ الخفاء عن جُمهور النّاسِ مع كونها من الأهمية بحيث يجبُ أَنْ يَعْرفها كلُّ إنسانٍ ، وهذه العللُ قَلَّما يصرِّح المصابُ بأحدها بما يلاقيه منها ، وقد تَحْدُثُ حادثةُ طلاقٍ بينَ قَرِينَيْنِ ، قلَّما كانت الناسُ تُفكّر فى احتمال وقوعها ، وهم إن عَلِمُوا بالحقيقة لظهرَت لهم مِيزةُ الطلاقِ فى الدِّين الإسلامىّ ، ولرأوا بعقولهم فِطْريته وضَرورَتَهُ فى كثير من الأحوال .

1 - **مَرَضُ العُنْفِ (السادزم)** : فمن الأشخاص من يكونُ مُصابًا بمرض العُنف ، وهو استعمالُ القَسوة للتنبيه التناسلىّ ، كشابٍّ مثلًا لا يهتاج إلَّا برؤيةِ الدَّم فكان يضعُ الدودَ يوميًّا على عانة عشيقته حتى يرى الدمَ فيهتاج ، وقد مَرِضَت العشيقةُ بفقر الدم ، وجُنَّت آخرَ الأمر .

وذكر (أبنج) حالة رجل كان يُنبّه عاطفتَه فى شوارع ليبزج بأنْ يَطْعَنَ الفتيـاتِ بِمُـدْية (*) فى أكتافهنّ لِيَسْتَمْنِى وهو سائر .

(*) مدية : سكينة كبيرة .

وهذا المرضُ كثيرُ الانتشار فى العالم ، والمصابون به كثيرون وتجد من مشاهير التاريخ من كان مصابًا به مثل (نيرون) و (كاليجولا) و (تيبير) و (إيفان المخيف) و (كترين دى مدسيس) و (اليزابث الروسية) و(مسلينا) ويغلُب أن يكونَ مَنْشأُ هذا المرضِ فسادَ النطفةِ الناتج عن شُرب الخمور .

2 - **مَرَضُ احتمالِ الأذى (الماسوشزم) أو (ساشرماسوك)** : وهو عكسُ المرض السابق فلا يهتاج المريضُ به إلَّا إذا أُوذِى من الجِنس المقابل ، والمريضُ به عِنِّينٌ فيغْنيه الألمُ الذى يُلاقيه من المرأة عن الاختلاط الجنسىّ الطبيعىّ .

وهذا المرضُ منتشرٌ بين الناس انتشارًا هائلًا ، ومن بعض أسباب ظهوره عادةُ الاستمناء وشُربُ الخمورِ ، أو عِشْرَةُ المومِسات ، وكان أوَّلَ من بحث هذا المرض وسجله فى كتبه (ساشرماسوك) الكاتبُ الألمانىُّ ، وتَبَيَّنَ أخيرًا أنَّ هذا المؤلِّف كان مصابًا بنفْس الداء .

وكان (جان جاك روسو) مصابًا بهذا الداءِ ؛ إذ كان **يقول** : إنَّه عندما كان صغيرًا كان يُحِبّ أَن يُضرَب ويُهان ، ولما كبر كان يبحثُ عن النساء القويات النفوذ ليتحَكَّمْنَ فيه .

ويوجد نوعٌ من الماسوكزم خيالىٌّ مَحضٌ ، فلا يُظهر الشخصُ رغبتَه فى التعذيب ، وإنما يفكر فيه فقط .

ويوجَدُ نوعٌ عرضى يوهم به المصاب نفسه بالتعذيب كشخص كان يذهب إلى بَغِىٍّ مرّةً كلَّ ثلاثة أشهر ، فتخلعُ ثوبه وتُوثِقُهُ وتَعْصِبُ عَينيه ، ثم تتركه هكذا فى الظلام نصفَ ساعة ، وتعودُ إليه وتحلُّ وِثَاقَه فيرتاحُ لذلك ، ويُعطيها عَشْرَةَ فرنكات أجرًا .

3 - **التعشُّقُ الخيالىّ (الفيتشزم)** : وهنالك أشخاصٌ مصابون بالتعشّق الخيالىّ ، ومصدرُ الجاذبيةِ عندهم ليس هو شخصَ المرأةِ ، بل أَحَدَ حاجيَّاتها كخُصلة شعر منها مثلًا أو حذائها أو مِنْديلها أو قُفّازها ، وقد يحدو العشقُ بهؤلاء إلى أن يَسْرِقُوا الشيء الذى يتعشّقونه فَيُقْبَضُ عليهم ويُسْجنون .

ومِثلُ هؤلاء الأفراد لا يَصْلُحون للحياة الزوجية مطلقًا ، وإذا تزوَّج أيُّ فرد منهم فلا يستطيعُ أن يحيا مع الجنس المقابل له .

وإلّا فكيف تعيشُ امرأةٌ مع رجل كالذى يَحْكِى عنه (كرافث إيبنج) أنّه لا تؤثر فيه المرأة مطلقًا ، ولا أنوثتها ، ولكنه إذا مرّ أمام أحد فاترينات المحال التِّجارية ورأى أحذية النساء معروضة فإنّ هذه الأحذية تهيِّجُه ، ومن المرضى بهذا الداء الحلاقون الذين يستمنون بعد قص شعر النساء .

4 - **النفورُ الجنسيُّ وانعكاسُ الشعورِ** : وهو أن يَكْره الرجلُ المرأةَ ولا يُفكّر فيها ولا فى الاستمتاع بها ، وهذا المرض شائعٌ شيوعًا غريبًا ، وأوَّلُ درجاتــه العادةُ السِّرية ، وجلد عميرة ، ويُزيدُ هذا الداءَ ويُظهرُه شُربُ الخمور والاختلاطُ الشَّاذُّ بالزناة والترددُ على المومِسات ، والمرضى بهذا الداء قد يتزوَّجُون لأسباب مادية ، أو لغايات أُخرى ، أو قد يحاولون بالزواج إصلاحَ شعورهم ولكنّهم يفشلون ، ولا يلبث الحال بهم أن يُحتّم الفراقَ .

وهذا المرضُ يُؤدى إلى انعكاسِ الشعور وعشقِ الجنس ، وقد قرأنا كثيرًا وسمعنا عن فتيات يُحببن بعضَهن ، ويَقصُّ علينا (فوريل) قصة فتاة أغرت اثنتى عشرة فتاة أحببنها حُبًّا جُنونيًّا ، ففضت بكارتهن ، وقد خلَّفت الحربُ الكبرى سنة 1941م كثيراتٍ من هؤلاء الفتيات فى باريس ولندرة وبرلين .

ونَفْسُ الأمر يحصُل للمرضى من الرجال ، وهو كثير الانتشار والذيوع ، ويُرْوَى أنّ من رجال التاريخ المصابين بهذا الداء : سقراط ، وأفلاطون ، وفردريك الأكبر ، وهنرى الثالث ، والكونت بلاتن ، وسافو ، ولويس الثانى ملك بافاريا ، وقد تكلمنا عن هذا المرض فى مبحث اللواط .

5 - **التّأنُّث والمرأةُ المسترجِلة** : وهو شعُورُ الشخص أنه امرأة ويُحب الجلوسَ مع النساء ، ويَشْعُرُ شُعورَهن ، وتصاب المرأة كذلك بمثل هــذا المرض فتشعر فى صميم نفسها بمشابهتها للرجل ، وتعجب كيف خُلقت أُنثى ، وليس فيها من الأنثى إلّا الشكل والشبه ، فتحلق شعرها وتلبس لباس الرجل .

6 - **مَرضُ تحقيرِ المرأةِ** : ومن النّاس من يُصاب بمرض تحقير المرأة والاستهزاء بها فلا يرتاح إلّا بإهانتها ، ولا يرى اللذةَ الجنسية إلّا فى إلقاء إحدى القاذورات عليها ، أو تلويثها بالهباب أو بالحبر مثلًا .

فالمصابون بهذا الداء لا يشعرون بأىّ ميل للعملية الجنسية ، بل لذتهم الوحيدة هو الشعور الداخلىّ بتحقير المرأة وامتهانها .

7 - **مَرضُ الاستعراضِ** : وهذا المرضُ يجعل الشخص المصابَ به لا يشعر باللّذة إلّا إذا رأى الجنسُ المقابلُ أعضاءه التناسلية ، ومنهم من يقف فى الأزقة والمنعطفات ليسترعى انتباه الغير ليلمحوا أعضاءه ، ولتكفيه هذه الإشارة ، ولا يشعر المريض بهذا المرض بالحاجة إلى المرأة والاتصال الطبيعىّ .

8 - **مَرضُ البرودِ التناسلىّ أو غِيابُ العاطفةِ الجنسيةِ** : وهو مرضٌ كثيرُ الحدوث فى الرجال والنساء على السواء ، والمصاب به لا يستطيعُ أنْ يأخذ فكرة صحيحة عن الزواج ، وقد يكون على جانب كبير من الثقافة والتعليم والتربية ، وقد يتزوج لسبب ما فلا يستطيع فهمَ الزواجِ ، أوْ لا يُفكّر فى القيام بالعملية الجنسية ، ويروى فوريل حادثة شاب من هذا القَبيل لم يستطعْ أنْ يفهم زوجتَه الراغبةَ فى النسل ، والتى فضّلت لحيائها البقاء على طلب الطلاق وإعلان الفضيحة . ويروى كذلك حادثة رجل مثقَّف عادىّ من الناحية الجنسية تزوج فتاة محبةً حارة العاطفة ، عصبيةَ المِزاج ، وقد صدمتها الليلةُ الأولى لأنها رأت فى الجماع عملًا مخيفًا مؤذيًا ، وصبر الزوج حتى مَلّ ، واتفقا على الحياة ، فاحتمل الزوجُ بُرودها ، واحتملت العملية التناسلية ، ورزقا بأطفال كثيرين ، ولكنّهما لم يتذوقا طعمَ السعادِة حتى طلبا الطلاق بعد بِضع سنين .

9 - **مَرضُ الحبّ الوهمىّ** : وهو أنْ يتوهَّم المريضُ أنّه يحب فتاةً ما ، فإذا ما خطبها أو عقد عليها تَبيَّنَ خطؤه ، واتضح له أنّه كان واهمًا فى الحب .

هذه الأمراضُ كثيرًا ما تكون خافية قبلَ الزواج ، بل ينذُر أن تظهرَ

لأحد القرينين إلّا بعده ، فهل يقف الدِّينُ حَجَرَ عَثرة فى سبيل الانفصال لسعادة الأسرة ، ولتحريكها إلى طريق الكمال ؟ وهل يُكلّف الدينُ الإنسانَ فوق طاقته ويَحْمِلُه على أن يرتبطَ مع امرأته المصابة ارتباطًا لا يحلُّ ولو كان فى ذلك القضاءُ عليه وعلى الأسرة وعلى المجتمع باعتباره عضوًا فيها ؟!. . كلَّا !

فلقد قال تعالى وهو أَصْدَقُ القائلين : ﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [المؤمنون : 62] .

فَسادُ الأَخلاقِ يُبَرِّرُ الطلاقَ :

ويُضافُ إلى ما تقدّم من أسباب الطلاق فسادُ أحد القَرينين بعدَ الزواج ، وهذا جائزُ الحدوث ، بل هو كثيرُ الوقوع فى كلِّ زمان ، فكثير من الأزواجِ قد تَفْسُدُ أخلاقُهم بعدَ الزواج ، وقد يكون هذا الفسادُ لا يرتبط بالزوجةِ البتة ، فقد يندفعُ الزوج بعد الزواج لضعف أخلاقه ومرض نفسه فى شُرب الخمور ، وقد يَلتفُّ حوله أخلاءُ السوء وإخوانُ الفجور ، فَيَهِيمُ معهم على وجهه ، ويركبُ رأسَهُ ويتوغَّلُ فى المعصيةِ ، وينسلخُ عن الدِّين ويحيدُ عن طريق الصّواب ، فهلْ يصلُح الزواجُ بعدَ ذلك إذا تعذّر العلاجُ ، وعجز أحدُ الفريقينِ عن إصلاح الفريق الآخَر ؟! أليس تنافُرُ الأرواحِ واختلافُ الأمزجة والطباع وسوءُ السلوك مما تستحيلُ معه العِشْرَةُ الزوجيةُ ويَفْسُدُ به معنى الزواج ؟! وإنّى لأعتقدُ أنّ النفسَيْن إذا لم يأتلفا لا يتيسرّ الحبُّ الذى يُعتبر المعنى الحقيقىّ للزواج ، فإذا فُقِدَ الحبُّ غدت العمليةُ الجنسيةُ أشبه الأشياء بالعمليات الميكانيكية الحيوانية ، وغدا الزواجُ لا يختلفُ عن الزنا فى شيء ، إذ تُسلبُ منه المعانى السامية التى يحملها لفظ الزواج وتَعنيها رُوحُه .

حقوقُ المرأةِ بعدَ الطلاقِ :

وعلى كلِّ حال فالدينُ الإسلامىُّ لم يَدَعْ المرأةَ بعدَ الطلاقِ بغير تشريعٍ خاص يجعلُ لها حقوقًا يُلْزِمُ بأدائها الرّجلَ ، فحرَّم على الرجل أنْ يأخذَ

شيئًا مما أعطاه للمرأة بعد الطلاقِ ، انظر إلى قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ۚ أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ [النساء : 20 ، 21] .

وفَرَضَ كذلك على الرجل أن يُنفقَ على مُطلقته إذا كانت حاملًا حتى تضعَ حَمْلها .

وأمر تعالى أن يَدْفع الزوجُ لمطلقته أَجْرَ رِضاعها لابنه منها ، وأن يُنفق عليه طول مكثه معها ، فقال : ﴿ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ۚ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [الطلاق : 6 ، 7] .

وقال تعالى عن المطلَّقة غير المدخول بها : ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة : 237] .



المبحث العاشر
تَعَدُّدُ الزَّوجاتِ وَحِكمَتُهُ

قال تعالى : ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴾ [النساء : 3] .

ولم يُشَرِّعْ الدينُ الإسلاميُّ الزواجَ بأربع نسوة إلَّا لحكمة عظيمة ، وغاية سامية يرجعُ أهم أسبابها لأصول طبية ثابتة ، ولمرام اجتماعية عميقة الأثر ، يجب اعتبارُها ، وتلزمُ العنايةُ بها فهى تتفق وسُنَن الكون ، وتَتَمشَّى مع طبيعة البَشَرِ .

التعدُّدُ عِنْدَ النصارَى واليهودِ :

وقد وُجِدَ نظامُ التعدُّدِ فى أوربا ، فإن القديسَ أغسطسَ لم يحرِّمه ، وقد أباح لوثرُ إمامُ البروتستانت لفليب أمير هيس أن يتخذ لنفسه زوجتين كما أُبيـح للرجال بعد معاهدة وستفاليا أن يتزوجوا من اثنتين ؛ وذلك لنقص عدد سُكّان ألمانيا وقتئذ نقصًا كبيرًا .

ويُنبئك التاريخُ بعدم استنكار الأساقفة ورؤساء الكنائس للأمر الذى أصدره فالنتيان الثانى بإباحة الزواج بأكثر من واحدة لمن رغب فى ذلك ، وقد ظلَّ هذا التصريحُ معمولًا به فى عهد خُلفاء فالنتيان المذكورِ حتى فشا التعدُّدُ إلى أن جاء جوستنيان ووضع قانونًا يمنعه ، ولكنّ التعدّدَ ظلَّ معمولًا به عند السَّوادِ الأعظم من الناس ، وشَمَلَ ذلك رؤساءَهم ، وتسامحَ رجالُ الدين فى ذلك ، وأباحوه لمن يأخذُ ترخيصًا من الأُسْقُفِ (*) أو الرئيس .

(*) الأُسْقُفُ : رئيس من رؤساء النصارى ، فوق القسِّيس ودون المِطْرَان .
انظر : «الوسيط» (س. ق. ف) .

وليس اتخاذُ الأمراءِ وعامة الناس فى أوربا وغيرها فى الزمن الحاضر للخليلات والمحْظِيَّات بجانب زوجاتهم الشرعية إلَّا أثرٌ لنظام التعدُّدِ الذى كانوا يسيرون عليه .

وما كانت حُجَّـةُ (لوثـر) فى التصريح بالتعدد بأكثر من زوجة واحدة وعدم تحريمه ذلك إلَّا لعدم وجود نصّ فى الكُتب المعتبرة عند المسيحيين اليومَ ، بل إنّ اتخاذَ بعض أنبياء بنى إسرائيل أكثرَ من زوجة واحدة لدليل على إباحة التعدد عند المسيحيين ، وهم يؤمنون بتوراة اليوم ، ويَسيرُ إنجيلُهم على أساسها كما بيّنا فى كتابنا (المسيح والتثليث) (*) ، ولا يُنكر أحدٌ أنّ إبراهيمَ جدُّ الأنبياءِ كان متزوجًا فى وقت واحد بهاجرَ أمِّ إسماعيلَ وسارّة أمِّ إسحاقَ ، ويذكر فوريل (ص 184) أن وحدانيةَ الزواج التى فرضتها الكنيسةُ الرومانيةُ فَرْضًا ظالمًا لا يتفق مع الفطرة ، ولا يتمشَّى وطبيعة حاجات البشر التناسلية .

شرطُ التَّعدُّدِ :

والدِّينُ الإسلامىُّ حين أباح التعدّدَ أحاطه بسِياج مَنيع من الدقَّة والحزم ، فاشترط فى إباحته الرحمة والعدل بين الزوجين والمساواة التامة بينهنّ ، فيأتى لكل زوجة من زوجاته بحاجيَّاتها تامةً غيرَ ناقصة ، قال تعالى : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً ﴾ [النساء : 3] ، وأمر بحسن عشرتهن وهو قوله تعالى : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : 19] .

وسترى فيما يلى بعضَ الحالات التى أباح الدينُ التعدُّدَ فى أمثالها ، وفى مثل هذه الحالات - كما سترى - لا يُمكن العدلُ من الناحية القلبية ، فذاتُ الأولاد مثلًا تفوقُ العقيم فى الحب الزوجىّ ، ولكنّهما لا تختلفان فى الرّعاية الزوجيـة ولوازم البيت ، انظر إلى قـوله تعـالى : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن

(*) هو كتاب للمؤلّف نفسه وطبعته (دار الفضيلة) .

تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء : 129] .

وهذه الآيةُ الكريمةُ تَعْنِى العدل فى الحب والميل والعاطفة الجنسية ، وسترى بيان ذلك فى الحالات التى يباح فيها التعدد .

والدينُ الإسلاميُّ ترك للمسلم التقديرَ ، وعامله معاملةَ الرجال فى الحكم ، فلا يحقّ له الزواجُ عَلى زوجته إلَّا إذا اضْطُرّ إلى ذلك اضْطِرارًا ، وألجأته إلى ذلك ظروفٌ قاهرةٌ يكونُ فيها التعدُّدُ واجبًا من الواجبات ، بل يصبحُ فيها الزواجُ من أكثرِ من واحدة ضَرْبًا من المحتَّمات ، مع يُسْرِ حالته ، وقدرته على العدل والتوفيق بين رغبات زوجاته جميعًا .

مُسَوّغات التَّعدُّدِ :

1 - **بعضُ مُسوِّغاتِ الطلاقِ** : وفى بعض مُسوّغات الطلاقِ مُسوّغاتٌ للتعدّدِ ، فهبْ أن رجلًا شُلَّت امرأتُه أو أصيبت بالسُّلِّ أو البرص أو العقم أو غيرها مما ذُكر فى مبحث الطلاق ، وهى مفتقرةٌ إليه ، وفى حاجة إلى حمايته ورعايته ، فهل يضطره دينُه ألَّا يتزوج بأخرى تقوم بحاجته ، وتعاونه فى حياته ، ولا تَدَعُهُ يُفكّر فى ارتكاب المنكر واقتراف المعاصى ؟

2 - **مَنْعُ الزّنا واتخاذُ الخليلاتِ** : ولا يَخْفَى أنّ الرجلَ بحكم طبيعة صفاته النفسيّة والجنسية ، قد يقعُ فى حُبِّ امرأة خلافَ زوجته ، وهو لا يستطيعُ فى الوقت نفسه التفريط فى هذه الزوجة لما لها فى قلبه من عظيم المنزلة ، فهل يَتَّخذُ هذه المرأةَ خَليلةً وخَدينةً ، كما يفعل رجال أوروبا وأمريكا وغيرها ؟

لقد أباح الدِّينُ لمثل هذا الرجل الجمعَ بين المرأتين حفظًا لكِيان الأُسرة ، وإبقاءً على الأخلاق ، وتمشيًا مع الطبيعة البشرية والسُّنة الكونية التى أوجدها الله فى هذه الحياة ، ومنعًا لانتشار الزنا والفجور .

ويجبُ هنا ألا نقيمَ وزنًا للغيرة التى يزعمها بعضُ الناس ، وإنّنا نظلم الحقيقةَ إذا قُلنا إنها تقتصر على زَوْجَتَىْ الرَّجل الواحد أو زوجاته ، وهبْ أنّها دبت بين زوجتى رجل واحد ، فهل لا تحدث بين زوجة وخليلة لبعلها ؟

إنّ ما يُنفقه الرجلُ على عشيقته يبلغُ أضعافَ ما يُنفِقُ على زوجته ، ولكنَّ زوجتَيْ المسلم يسودُ بينهما العدلُ فى كلّ شيء .

ويجب ألا يغيبَ عن البال مخالفةُ اتخاذ الخليلات للنظام الاجتماعىّ ، فهو حَطٌّ لقيمة المرأة ، وسلبٌ لحق كبير من حقوقها ، فهى لا تحمل اسم الرجل الذى يُعاشرها ، ولا يُوجِبُ لها القانون نفقةً ما ، ولا ترِثُهُ ، ولا تَنْسِبُ إليه أولادَها منه ، وامرأة كهذه تفقدُ سمعتها فى المجتمع الذى تعيش فيه ، ولا يكونُ لها شرفٌ فى الأوساط العائلية ، ولا يراها مَن يعاشرها إلَّا زانية مأجورة .

3 - **زيادةُ عددِ النساءِ** : ولا يَخفى أنَّ زيادةَ عدد النساء على الرجال مما يُوجب التعدُّدَ ويُلزِمُ الأخذَ به ، ولا زالت الحروبُ الطاحنةُ تُرينا من بين زمن وآخرَ كيف يُحيطُ الموتُ بالرجال ، وكيف يَحْصُدُ الشُّبان حَصدًا ، ويُفنيهم إفناء ، وإنك لتجدُ فى كثير من البلاد كفرنسا ، وأسبانيا ، وكندا ، وغيرها كيف يزيدُ عددُ الرجال كثيرًا عن عدد النساء ، وبجانب الحروبِ نَرى الرجلَ معرَّضًا للموت أكثر من المرأة لارتباطه بالحياة الخارجية وفيها ما فيها من الأخطار والمتاعب التى كثيرًا ما تُودى بحياته ، فإذا فرضْنا أنّ عددَ النساء بلغَ ضعفَ عددِ الرجال ؛ فماذا يفعل لغير المتزوجات تشريع لا يبيح التعدد المقبول ؟

4 - **إكثارُ النّسل** : ولعلَّ من الأمور البدَهِيَّة أنّ الأمة كُلَّما زاد عددُ سكانها خَشِيَتْ الأممُ الأُخرى جانبهَا ، وكانت قوةً لا يُستهان بها ، ولقد وجدْنا كيف عملت بعضُ الأمم الحاضرة على زيادة عددِ سُكّانها بتشجيع الزواج ، وبالترغيب فى النّسل(*) .

بل إنّ الرغبةَ فى زيادة عددِ أفرادِ الأُمة والتسليم بأنّ من القوّة زيادةَ العددِ وهو ما دعا الدُّول إلى الارتباط ببعضها بواسطة المعاهدات المختلفة لضمان العدد الكافى من الأفراد إذا قامت الحروبُ ، وما زالت الأممُ الصغيرةُ القليلةُ العددِ ميدانًا لطمع الدولِ الكبيرة ، ولا زالت الأممُ المستعمِرة فى أوربا تعملُ على إضعاف الأمم الشرقية بتجزئتها ، وتفريق قوتها ،

(*) قال رسول الله ﷺ : **« تزوجوا الودود الولود فإنى مكاثر بكم الأمم »** .
انظر : « سنن أبى داود » كتاب النكاح (2050) .

وتقليل عدد جيوشها ، وإلَّا فأيةُ قوة تستطيعُ أنْ تقف أمام الشرق إذا كانت بلادهُ كُتلةً واحدةً وجيشُها قوةً واحدةً ؟

5 - **الطبيعةُ التناسليةُ فى الرَّجلِ والمرأةِ** : وإنّ طبيعةَ الرجل والمرأة من الوجهة التناسلية تتمشى مع التعدد المعتدل إلى أقصى حد . فالمرأةُ ما خُلقت إلّا للحمل ، ولقد بيَّنا أنّ تركيب جسمها ما أعد إلَّا للولادة والنّسل ، أضف إلى ذلك عدمَ قدرتها على وضع أكثر من طفل واحد فى العام إلَّا إذا وَلَدَتْ توأمَيْنِ ، بل إنَّ متوسطَ ما تحمِلُ به المرأة هو من طفل واحد إلى خمسة أطفال طوال حياتها ، وأما الرجل فطبيعته تُمكّنه بأن يشغل بالحمل أكثر من امرأة واحدة ، فالمرأةُ لا يُمكنها الحصول إلَّا على طفل واحد فى العام ، والرجل يستطيعُ أن يحصُلَ على أكثر من ذلك بأكثر من امرأة ، والدينُ الإسلاميُّ لم يُجزِ التزوجَ بأكثر من أربعة نسوة دَأَبُهُ (*) فى ذلك التوسط .

6 - **الحياةُ التناسليةُ فى الرجل والمرأة** : أضفْ إلى ما تقدّم قدرة الرجل على التلقيح طول حياته أو على الأقل إلى سِنٍّ متأخرة منها ،وأما المرأةُ فينقطع عندها قبولُ الحمل بينَ سِنِّ الخامسة والأربعين وسنِّ الخمسين إلى آخر حياتها .

7 - **مساعدةُ الزوجات للرّجل** : ولعلَّنا نستطيعُ أنْ نذكرَ سببًا آخرَ للتعدد ، وهو أننا نجد فى أكثر الحالات أنّ - خاصة فى عامة الشعب والفلاحين - النساء تقوم بمساعدة الرجل مساعداتٍ لها قيمتُها فى كثرة الإنتاج وازدياد الربح ، وتسهيل سُبُلِ العيش .

8 - **زَمنُ الحيضِ** : وهنالك سببٌ آخرُ من أسباب التعدّدِ هو ما نَعْلَمُه من أنَّه من الرجال وخاصة رجالُ المناطق الحارة والمعتدلة من كانت طبيعتُهم لا تستقيمُ ولا تسير سيرًا طبيعيًّا إذا هى حُرمت من المرأة أربعة عشر يومًا كاملًا كُلَّ شهر أثناء الحيض .

والحيضُ يَحْرُمُ الاتصالُ بالمرأة أثناءه فى الدين الإسلامىّ كما بيّنا ، وتمتدّ دورتُه فى مختلف النساء من ثلاثة أيام إلى أربعة عشر يومًا ، ولعلَّ زمنَ الوضع والنفاس يكاد يكونُ أشبهَ بفترة دورة الحيض .

(*) دَأَبُهُ : عادته .

المبحث الحادي عشر

الميتة

قال تعالى فى سورة المائدة : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ﴾ [المائدة : 3] .

وقال فى سورة الأنعام : ﴿ قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .
[الأنعام : 145]

وهكذا حرَّم الله تعالى أَكْلَ الميتة والدَّم ولحمَ الخنزير ، وسنُبين فى هذا المبحث بعضَ المضارّ التى تنجُم عن أكل هذه الخبائث ، والأمراضَ التى قد تُصيب آكليها ، وسنتكلمُ عنها بالترتيب الذى أتت عليه فى كتاب الله تعالى .

الميتةُ وتحريمُها :

والميتةُ فى الآية الكريمة هى الحيوانُ غيرُ المذبوح الذى يموت من تلقاء نفسه بأىِّ مرضٍ من الأمراض أو بالشيخوخة أو بحادثة من الحوادث كالخنق والوأْدِ والتّردى وغيرها ، والحيوانُ الميّتُ لا يكونُ طبعًا كالحيوان المعدّ للذبح الذى يُفْرَغُ دمُه ، ويُسلخ وتُفصل منه أحشاؤه ، ويُغسل ويُعدّ للأكل . والحيوانُ الميت لا يُعرف سببُ موته إلّا بواسطة الطبيب الإخصائىّ ، ويكفى أن يموتَ الحيوانُ وفيه دماؤه وهى تحتوى على جراثيم المرض الذى قد يكون سببَ الوفاة ، ومع هذه الجراثيم السمومُ التى تُفرزها فى جسم الحيوان ، فتتشبع الجثةُ بها ، وتصبحُ الميتة عمومًا خطرًا كبيرًا على آكليها ، ويَرْسُبُ دمُ

الحيوان بعد وفاته بنحو ساعة ، وتُسمّى هذه الحالة بالرسوب الرِّمّىّ ، وهو الزرقة الرِّمية الضاربة إلى الحمرة أو السُّمرة التى تشاهد عند سلخ الحيوان الخلوى الجلدى فى الجانب الأكثر انخفاضًا فى الجثة .

ويَلِى الرسوبَ الرِّمّىّ التيبسُ الرِّمّى ويبدأ بعد نحو 3 - 4 ساعات من الوفاة ، وهو عبارة عن تصلُّب عضلات الجسم وتوترها لِتَكَوُّنِ أحماض خاصة فيها نتيجةَ التفاعل الكيماوىّ كحامض الفسفوريك واللبنيك والفورميك وبتأثير الخمائر المختلفة ، وبعدَ مدة قصيرة تعود القلويةُ للعضلات فيزول التيبُّسُ بتأثير التعفنِ ، فتتكاثر أوّلَ الأمر الجراثيمُ الهوائيةُ ، ثم تتكاثرُ الجراثيم غيرُ الهوائية بعدها .

ومن أمثلة جراثيم التعفُّن باسلاتُ كوللاى ، ويروتيص ، وسيزنتركس ، وميكروككس ألبص ، وغيرها من الجراثيم التى تُوجدُ طبيعةً فى أمعاء الحيوان ، وتغزو الجسم بتخللها الأغشية المعدية التى تضعُفُ بالموت وتصلُ إلى جميع أجزاء الجسم بواسطة الأوعية الدموية والليمفاوية . ولقد ثبت بجانب ذلك أنَّ بعضَ الجراثيم تصلُ إلى الجثة كذلك عن طريق الهواء .

وبالتحللِ تَنْتُجُ بعضُ موادَّ خاصةٍ مثلُ الليوسين والتيروسين وحامض البيوتريك والإندول والاسكالول وغيرها ، وتنفصل بعض الغازات كالأوكسجين والهيدروجين والأزوت ، وتتكوّن غازاتٌ أُخرى ككبريتور الأيدروجين وثانى أكسيد الكربون والنشادر .

وبعضُ المركبات الناشئة ذاتُ رائحة خاصة ، والبعضُ الآخرُ سامٌّ فى مفعوله . والغازات تُحدِثُ انتفاخَ الحيوان الميت فى بضع ساعات من بَدْءِ وفاته ، ويُسْرِعُ هذا الانتفاخُ فى نوع خاص من آكلة الأعشاب كالبقر والجاموس والثيران والخيل والجمال والحمير والغنم وغيرها .

وبعضُ الجراثيم تكوّن أثناء تكاثرها بعضَ موادَّ ذاتِ ألوانٍ مختلفة تُعطى اللحم منظرًا غيرَ طبيعىّ . ومن الموادّ السامَّة التى تَحْدُثُ نتيجةَ التحللِ الموادُّ البروتامينز والموادُّ الألبيومينز ، ومعظم أنواع المواد الأخيرة قد تكون الأشدَّ فى تأثيرها السامّ .

ويجبُ أنْ تعلمَ أنّ جميعَ الأمم المتمدينة تُحَرِّمُ أَكْلَ مثل هذه اللحوم وتمنع بيعهَا منعًا باتًا ، ولمثل هذا أنشئت (السلخانات) وعُيِّن فيها الأطباء الإخصائيون لفحص اللحوم والأمر بإعدام غير الصالح منها ، واللحم المتحلل تجده أكثر ليونة وسيولة من اللحم العادى ، ولونه يبعث فى النفس الاشمئزاز وقتل الشهية ، ويتراوح لونُه من الخضرة الغامقة إلى السواد ، وتجده متورمًا نتيجة خروج الغازات التى تنشأ من فعل الجراثيم وله رائحة كريهة ومذاق مكروه ، ويُحدث أعراضًا تَسمُّمِيَّة لآكليها تنتهى غالبًا بالموت ، خاصةً إذا لم تُطْهَ طهيًا جيدًا ، وعلى كل حال لا يوجد ذو ذوق سليم يأكلُ اللحمَ المتحلِّلَ مع ما فيه من الموادّ السالفة الذكر حتى ولو غلى اللحمُ غليانًا شديدًا بفرض أنه يقلل من تأثير العناصر السامة فيه .

المُنخنِقةُ :

والمنخنقةُ حكُمها حُكْم الميتة تمامًا ، وإذا فرضْنا استعمالَها قبلَ تعفُّنها لا تصلحُ للأكل طبيًّا كذلك ، لتغير شكل لحمها وكآبته إذ ترى لونَها أحمر قاتمًا لا يَسُرُّ الناظرينَ ، وترى السطح الذى تحت جلدها وقد عم فيه الاحمرارُ من امتلاء الشّعيرات الدموية بالدماء ، وتجدُ اللحمَ مسودًّا عند قطعه ، ذا رائحة كريهة ، لَزِجَ الملَمس ، أضفْ إلى ذلك أنَّ الاختناق يَزيد فى سرعة تعفن الجثة . .

ويذكر كتاب « والز » فى فحص اللحوم (ص 63) أن اللحمَ الذى لا يُصَفًّى منه الدمُ جيدًا لا يكون صالحًا مثل ذلك الذى استنزفت منه أكثر الدماء ، ويذكرُ أنّ سبب هذا يظهر أنه يرجع إلى وجود السائل الزلالى فى الأوعية حيث يتيسر للجراثيم من السطح أن تنتشرَ بسرعة وَسْطَ اللحم .

الموقوذةُ والمتردِّيةُ والنطيحةُ وما أَكَلَ السَّبعُ :

والموقوذةُ : المقتولة ضَرْبًا . **والمتردية** : الساقطة من مكان مرتفع فماتت . **والنطيحة** : المقتولة بنطح أُخرى لها . **وما أكل السبع** : أى من هذه الأشياء ، وهذه الأنواع المذكورة فى الآية الكريمة يقرر علمُ فحص اللحوم عدمَ

صلاحيتها للأكل ، فالإصابات تُحدِث رُضوضًا (*) ، وتجعل الدماء منتشرةً تحتَ الجلد ، وداخلَ الأنسجة ، وكذلك فى اللحم المجاور للعظام التى حصل فيها كسرٌ ، وتجد الأنسجة التى تحت الجلد ، وقد تورمت وامتلأت بمادة ليمفاوية ، ولو فرضنا أن الحيوانَ المصابَ لم تصل إلى موضع إصابته جراثيمُ تعفنية أو ممرضة ، فقد يصبحُ اللحمُ فى جميع أجزاء الجسم أسودَ اللون لزجًا ، كريهَ الرائحة ، غيرَ صالح للأكل فنيًّا ، فيحكم الطبيب الإخصائىُّ بإعدام الجثة ، أما إذا وصلت الجروحَ التى تنشأ من الضرب أو السقوط أو النطح الجراثيمُ المِدّيّةُ أو القيحيّة ، فهذا مما يزيد الطين بِلة ، وكذلك الحالُ إذا أُصيبت الجروحُ بالغنغرينا (العُطَبة) هذا بجانب ما يحصل لهذه الأشياء من سرعة التحلل والتعفن مما بيّناه آنفًا .

الموتُ الناشئُ عَنِ الأمراضِ :

وهنالك أمراضٌ فتّاكة ، تُسبب موتَ الحيوانِ وتُتلف اللحمَ وَتُشوّهُه وتُقلل من قيمته ، ومنها ما يصيب آكليه بجانب ذلك بإصابات مختلفة تتوقفُ على نوع الداء المسبب للوفاة .

فالحيوانُ المصاب **بالسُّلّ** الذى يُسبّب هذا الداءُ موتَه لا يصحُّ علميًّا أنْ يُؤكلَ البتةَ ، فلقد ثبت أنّه من وسائل نقل العدوى للإنسان الأكلُ من اللحم المصاب ، بل إنّ كُتُبَ الطبّ الخاصة بفحص اللحوم تُقرّر إعدامَ الجثة التى يَعُمُّ مِكروبُ السُّلّ رئتيها ، أو إذا وُجِدت الجراثيمُ فى الغشاء الذى يُغَطّى الرئتين وفى البريتون ، أو إذا وجدت فى الجهاز العضلى ، أو فى الغُدد الليمفاويّة التى تقعُ بين العضلات ، أو إذا وُجدت علامات السُّلّ فى الحيوان الهزيل ، فما بالك بالحيوان الذى بلغ به الداء حدًّا أهلكه !

والحيوانُ الذى يُذبح بعد أنْ تظهرَ عليه أعراضُ مرض الكلب يجبُ كذلك علميًّا أنْ تُعدم جثتهُ ، فالأولى تركُ لحمه إذا مات بهذا الداء ، وجراثيمُ المرض ولو أنّها لا تنتقلُ للإنسان بطريق الأكل ، فإن هنالك خوفًا

(*) رُضُوضًا : جمع (رضّ) وهو الكَسْر .

من وصول الجراثيم عن طريق جرح فى أثناء تجهيز الحيوان . والجراثيمُ توجد فى مُخّ الحيوان والحبل العصبيّ وغدد اللعاب والدموع ، وقد توجَد كذلك فى كُليته والمحافظ فوقَ الكُلى والبنكرياس والغدد اللبنيّة .

والحيوانُ الذى يموت **بالحمّى الفحمية** يجب ألَّا تمسَ جُثته البتةَ ، بل يُدفن ويُحرق حتى لا تنتشرَ جراثيمُه ، فَتُعْدِىَ الإنسانَ والحيوان مَن طريق الهواء أو أكل لحم الجثة الموبوءة ، وجراثيمُ هذا المرضِ قابلةٌ للتحويل إلى بذيرات قادرة على مقاومة المطهرات والمؤثرات الجوية المختلفة ، وقادرة كذلك على حفظ قوتها الحيوية كامنةً لعدة سنوات ، هذا المرضُ يُميت الحيوانَ فجأة أو فى ظرف ساعة أو ساعتين من بدء ظهور الأعراض الأولى للمرض ، ومدةُ المرض غالبًا من (2 – 5) أيام ، وأحيانًا من (7 – 9) أيام ، وقد يظهر على الحيوان المصاب التحسُّن الوقتىُّ ، ولكنْ لا يلبثُ المرضُ أنْ يعاودَه فيموتَ ، وإذا أَزْمَنَ عنده ترتفعُ حرارته قليلًا ، ويموتُ بعد الضعف والهزال .

ويُحْدِثُ المرضُ فى الإنسان قروحًا خبيثة ، وألمًا شديدًا فى مكان الإصابة ، ويُصيبه بالحمى ، وتنتهى الحالة غالبًا بالتسمم الدموىّ من سَرَيان الجراثيم فى الدم .

وقد تموتُ الماشيةُ مصابةً بجراثيم تسمم الطعام كباسلس إنتريتيدس (كرتنر) مثلًا فيسبب أكل لحمها تسممًا فى الإنسان .

وهذه الجراثيمُ لا تُغيِّر مذاقًا ورائحة إذا وُجدت وحدَها ، ولها قدرة عظيمة على إنتاج كميات كبيرة من السموم (توكسينات) التى لا تفقد مفعولها بالطهى ، وإذا لم يُطْهَ اللحمُ جيدًا تتسرب الجراثيمُ الحية كذلك إلى مَعدة الإنسان وأمعائه حيث تتكاثر تكاثرًا شديدًا ، فَتُحدث أعراضًا مَرَضية شديدة فى جوفه بجانب التأثير السامِّ الذى لإفرازاتها .

والحيواناتُ التى تموتُ متسمِّمةً بالجراثيم السبحية والعنقودية تضر آكلها كذلك .

وهنالك أمراضٌ أُخرى تُسبب موتَ الحيوان ، وهى لا تُعدى الإنسانَ ،

ولكنّها تترك اللحمَ بحال كئيب قبيح لا يصلح للأكل ، وكُتب علم فحص اللحوم تأمرُ بإعدام مثل هذه اللحوم والتخلص منها ، ومثلُ هذه الأمراض مرضُ جون الذى يَقْتل الثيرانَ بعد أنْ يُصيبها بالهزال ، وكذلك يفعل بها مرضُ الأكتنوميكوسز (الأغنام والخيول تُصاب به كذلك) وغيرها .

ويضيقُ بى المَقام إذا حاولَتُ أنْ أُعدّدَ جميع الأمراض التى تُسبب موت الحيوان وتجعل منه مصدرًا كبيرًا للأذى والضرر للإنسان ، أو على الأقل تجعل لحمه كريهًا ، كئيب المنظر تَعافُه النفسُ ، ولا يقبله الذوقُ السليم ، ومثل ما قدّمنا : الحيواناتُ الهزيلة الضعيفة ، أو الكبيرة فى السِّن ، أو المتعبة ، وكلُّها لا تُصَرِّحُ البلادُ المتمدينةُ التى تهتمُّ بفحص اللحوم أنْ تُباعَ فى الأسواق لسوء لحمها وقبحها كما ذَكَرْنا .



المبحث الثاني عشر

الدَّمُ وَتحرِيمُه وأضراره

تعريفُ الدَّمِ :

الدَّمُ هو ذلك السائل المُعْتِمُ الأحمرُ الذى يسيرُ فى شَرايين الجسم وأوردته ، وهو زيتيّ القوام تقريبًا ، قلويّ التفاعل ذو مذاق مِلحيّ ورائحة خاصة .

وتنقسمُ محتوياتُ الدَّم عمومًا إلى قسمين : **القسم الأول** : وهو سائل يُسمّى بالبلازما ، **والثانى** : خلايا حية تسبح فى هذا السائل ، والنسبةُ بين البلازما وهذه الخلايا تبلغُ فى الحِصان والثور 64 : 36 ، وتبلغ فى الجمال 73 : 27 ، وفى الإنسان 60 : 40 .

وخلايا الدم نوعان : **أحدُهما** : يُسمّى خلايا الدم الحمراء ، وهى التى تحتوى على الصبغة الحمراء فى الدّم . **والثانية** : الخلايا البيضاء وهى التى تُدافع عن الجسم ضدَّ الجراثيم التىَ تصل إلى الدم فى أثناء الحياة .

وتحتوى البلازما على 90 % ماء و10 % مواد صُلبة منها 8 % مواد بروتينية ، و2 % أملاح معدنية وبولينا وسكر وغيرها .

وبمجرد خروج الدم من الجسم يتجمد فى دقائقَ معدودةٍ ويكوّن جُلْطةً ، وهذه الجُلطة عبارة عن شبكة من مادة زلالية تُسمّى (فيبرين) تحيط بكرات الدم المختلفة ، وتنفصل عن الدّم مادة صفراء تُسمّى (السيروم) .

وظيفةُ الدّمِ :

ويُمكنُ حصرُ وظائفِ الدّم فيما يلى :

1 – حملُ الموادّ الغذائية من المواضع التى حصل منها الامتصاصُ فى الجسم إلى أنسجته المختلفة .

2 – حملُ مخلَّفات الجسم التى نتجت عن الفعل الهَدْمِىّ فى الأنسجة إلى الأمكنة التى تفرز منها كالكُليتين والمثانة والجلد وغيرها .

3 – توزيعُ الحرارةِ فى الجسم .

4 – الدِّفاعُ عن الجسمِ ضدَّ الجراثيم ، وذلك بواسطة كُرات الدم البيضاء وبعضِ المواد الموجودَة فى البلازما .

هذه صورةٌ مختصرة رأينا ضرورة تقديمها قبلَ أنْ نتكلمَ عن حِكمة تحريم الدّم ، وسنرى كيف أنّ دينَنا الحنيف فى تحريمه أكلَ الدم ، إنما يريدُ بنا الخيرَ ، ويحاولُ تنبيهَنا إلى الأضرار الجسيمة التى تعود على أجسامنا من تناول هذه المادة وإلى الأخطار العظيمة التى تدعو إلى إتلاف صحتنا وتشويه تغذيتنا .

الدّمُ وَسَطٌ صالحٌ لنمُوّ شتَّى الجراثيمِ :

إنَّه من المقرَّر طبيًّا أنَّ الدمَ أصلحُ الأوساط لنمُو شتَّى الجراثيم ، وأنسبُ مكان لتكاثُرها وأحسنُ وسَطٍ لانتشارها ؛ إذ يُعتبر أطيبَ غذاء لهذه الكائنات ، وأفضلُ تربة لنموها ، وسواء فى ذلك الدّم بقسمَيْه أو السيروم الذى ينفصل عن الجُلْطة وحده .

وتَسْتعملُ معاملُ البكتريولوجيا الدّمَ لهذا الغرضِ لتحصل على مستعمرات من الجراثيم تحصل عليها فى بضع ساعات .

أما كيف تصلُ الجراثيمُ القاتلةُ إلى الدم ؟ فإن الدّمَ بمجرد نزوله من الحيوان سواء أكان ذلك بالذبح أو الفصد فإنّه ينعزلُ عن الأوعية الدموية التى تحفظه أثناءَ الحياة ، وتَفْقِدُ كُرات الدم البيضاء وظيفتَها التى أشرنا إليها ، ويصبحُ الدمُ بعد ذلك عُرضة للجراثيم المنتشرة فى اليد وفى السلاح المستعمل للذبح ، وفى الآنية التى يُستقبل فيها ، بل توجدُ الجراثيم فى الأرض وفى الهواء الذى يتعرضُ له الدمُ ، والذى يحملُ جراثيمَ التعفن وسائرَ هذه الأحياء القاتلة .

وبَدَهِىٌّ أنَّ الضرر البالغَ الناشئ عن انتشار الجراثيم المذكورة ليس

مقصورًا على العَدْوى فحسبُ ، بل إنّ فيما تفرزه من السموم (توكسين) ما يُعَدُّ من أشدِّ الأخطار وأعظم المصائب كذلك .

ومن المعروف أنَّ هذه السمومَ لا تَفْقِدُ تأثيرَها ولو بالطهى ، وليست هناك طريقةٌ عملية مطلقًا تحفظ الدم دون التلوث بالجراثيم المختلفة التى تصلُ إليه ، ومِثلُ دم الحيوان دمُ النفاس ودمُ الحيض ، ويُمكن مراجعة ذلك فى مبحث الحَيض .

الدّمُ يَحملُ إفرازاتٍ وسمومًا يجبُ التخلُّصُ منها :

ولقد رأينا أنَّ من وظائفِ الدّم حَمْلَ مخلفاتِ الجسم التى تَنْتُجُ عن الفعل الهَدْمِىِّ فى الأنسجة المختلفة لإفرازها وحَمْلَ الموادَّ الضارّة إلى خارج البدن ونَقْلَها إلى الأعضاء التى تُفْرَزُ منها ، فيخرجُ بعضُها مع العرق وبعضها من الرئتين كغاز ثانى أكسيد الكربون ، ويُفْرَزُ الجزء الأكبر مِن هذه المخلَّفات بواسطة الكُليتين ثم يجمَّع فى المثانةِ ويفرز منها باسم (بول) .

ومن هذه الموادّ الضارّة (حامض البوليك) ومادةُ (البولينا) وهى المادة التى تُعطى الرائحةَ النشادرية عند تحللها إلى نشادر وثانى أكسيد الكربون ، ويحصُلُ التحللُ بواسطة نوع خاص من البكتريا عند تعرض البول للهواء .

ويقومُ الدّم كذلك بحمل بعض الأحماض الأمينية والأملاح إلى خارج الجسم .

وإنّ الإنسانَ الذى لا يُقَدِّرُ الضرر الذى يحصلُ له من أكل الدماء ، وتقبَلُ نفسُه شُرْبَه على ما بيّنتُ ما فيه من الأضرار ، وعلى ما يحتوى من شتَّى الإفرازات المختلفة ، لا يصعبُ عليه استساغةُ شُرْب البول ، وهو كما بينا يُستخلص من الدم .

ويحتوى الدمُ بجانب ذلك على كثير من الموادّ السامة التى يعمل الكبدُ على تخليصه منها ، وحمايته من أضرارِها . ومن المعروف أن كبدَ الحيوان الحىّ هو الذى يقومُ بهذه الوظيفةِ .

ومن السموم الفتّاكة التى يعملُ الكبدُ على إزالتها فى الحيوان الحىّ أملاحُ الأحماض المراريّة ومشتقاتها والألكالويدز والأمينز المكوَّن من البروتينات المتعفِّنة المتخلِّفة فى الجهاز الهضمىّ وكثير من غير ذلك من السموم المسماة (توكسين) التى تصلُ إليه من الأمعاء .

كُلُّ هذا يحصلُ إذا أُكل دَمُ الحيوان السليم ، أما إذا كان مصابًا بأحد الأمراض العفنة أو الحمية ، فهنالك الطامةُ الكبرى والمصيبة العظمى .

الدّمُ لا يُعتبر غذاءً :

والدمُ لا يُعتبر غذاءً بالمعنى العلمى ، وذلك بجانب ما اصطلح عليه عامَّة الناس من أقدم الأجيال ، وتعليل ذلك علميًّا أنَّ الغذاءَ لا بدَّ أنْ يتكوَّنَ من البروتينات والكربوهيدرات والدهنيات والأملاح والفيتامينات ، والنوع الأول يُمكن أخذُه من اللحم أو البيض ، والثانى من السكر والنشاء ، والثالث من السمن والزيوت ، والرابع من مختلف الأطعمة التى تحتويه وملح الطعام ، والأخير من اللبن والفاكهة وغيرها من الخضر الطازجة ؛ فإذا نظرْنا إلى الدّم لا نجده مصدرًا لأىّ واحدة عن هذه الأصناف ، وأمَّا ما فى البلازما ومن الموادّ الزلالية فتبلغ نسبته 8% على التفصيل الآتى :

ألبيومن 4 % . جلوبيولن 3,5 % . فيبرينوجن 0,5 % .

وهذه المقاديرُ لا تصحُّ أنْ تكونَ مصدرًا للبروتينات ، وبجانب ذلك فإنَّ الدّمَ يتجمَّدُ بمجرّد انفصاله عن الحيوان ، ويكوّنُ الـجُلطة التى هى عبارة عن الخيوط المسماة (فيبرين) حاصرةً بينها خلايا الدّم .

وبعدَ تكوّن الـجُلطةِ ينفصلُ السيرم الذى يحتوى على المقدار الأكبر من الزلاليات التى تحويها البلازما ، وهى الألبيومن والجلوبيولن .

وبجانب ذلك يجـبُ أنْ نُصَرِّح أنَّ البروتينات كُلَّها ليست متساويةً فى نفس القيمة الغذائية ، بل لقد وُجد أنّ خيرَ مصدر لها من حيثُ القيمةُ الغذائية هو اللحم واللبن والجبن والبيض ، ومن النباتات الأرز والبطاطس والفول وخبز القمح والأذرة ، مع العلم أنَّه ليس كل المقدار المأكول يهضمه

الجسم ، بل إنَّ ما يهضم فعلًا من زلال اللحم 95 % ومن الأرز والخبز 90 % وهكذا . وخيوط الفيبرين تُعتبر من أسوأ البروتينات وأعسرها هضمًا .

ولكى تعرفَ حقارة هذه المادة فى الدم يكفِى أنْ نذكر لك أنّه لكى تحصل على كيلو جرام من هذه المادة يجب أن تأكل نحو 200 كيلو جرام من الدم المتجمّد أو تستخلصه من هذا المقدار .

وإذا علمتَ أنّ الأغنامَ تزن حوالىَ 50 كيلو جرامًا ، وأنّ الدمَ فيها يبلغُ من $\frac{1}{14}$ إلى $\frac{1}{22}$ من هذا الوزنِ فإنّك إذا أردت أن تحصل على كيلو واحد من المادة المذكورة وجب عليك الحصول على مقدار من الدم يحتويه نحو 50 - 77 خروف أو 5 - 8 بقرات تزن الواحدةُ منها حوالىْ 400 كيلو جرامات !!

وإذا عارَضَنا مُعارض وادّعى أنّ صِغرَ الكَمية لا تمنع استعمالَها ، **قلنا** : إنّنا لم نستقبح الدّم من وجه واحد ، بل يجبُ مراعاةُ المساوئ الأُخرى كالتى ذكرْناها ، كاحتواء الدّم على المخلَّفات القذرة ، وعلى السموم ، وعلى كون الدم أحسنَ الأوساط لنمو الجراثيم وانتشارها ، فضلًا عن كونه من الأشياء التى تعافُها النفسُ ولا يقبلُها الذوقُ السليمُ ، وإلَّا إذا نظرنا إلى الدم من جهة احتوائه على هذه الكمية الضئيلة من البروتين وحدها ، فإنّ البرازَ الذى يتبرَّزهُ المرءُ قد يحتوى على نسبة من البروتينات غيرِ المهضومة أكبرَ مما يحتويه مثلُ هذا القدر من الدم ، بل إنّ البرازَ يحتوى على موادَّ أُخرى مفيدةٍ .

وأما ما يدَّعيه بعضُ الجهلة من أنَّ الدمَ يُؤكل لما فيه من الحديد ، فإنّ ذلك مجرَّدُ هُراء ووهم ، فإنّ الدم ليست فيه إلَّا آثارُ ضئيلة لا تُذكر منه ، لا يصحّ أنْ يُقام لها وزنٌ ، ومع ذلك فإنّه من المعروف طِبيًّا أنّ الجسمَ لا يستفيدُ من الحديد إلَّا إذا وصل إليه فى حالة غير عضوية ، أىْ فى صورة أملاح ، أىْ أنّ الحديدَ فى الدم لا يَستفيد منه الجسمُ .

★ ★ ★

المبحث الثالث عشر
لحم الخنزير وتحريمه وأضراره

سَتَرى هنا شيئًا مما يَفْعلُه الخنزيرُ فى أجسام الذين لا يعقلون كتابَ الله ، ولا يأتمرون بأوامره ، ولا يجتنبون نواهيه .

وقد **يقولُ قائلٌ** : فلِمَ خَلقَ اللَّهُ إذًا هذا الحيوانَ ما دام قد حرَّمَ أكلَه ؟!

ولكنْ لِيعلَمْ هذا القائلُ أنَّ الله تعالى خَلَق هذا الحيوانَ كما خَلَق سائرَ الحشرات والهوام والدوابِّ والوحوش والجوارح من الطير ، ولم يحلل منها إلَّا ما يصلح للإنسان ، قال تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ﴾ [المائدة : 4] وهذا الحيوانُ الخبيثُ يُصيب آكليه بأشدِّ الأمراض فتكًا بالبشر ومثال ذلك :

1 – **مرضُ تينياسوليم** : وتُسمّى دودةَ لحمِ الخنزير[1] وتَصلُ إلى الإنسان عن طريق أَكْلِ لحم الخنزير المصاب ، وهى أشدُّ الديدان على الإطلاق فَتْكًا بمَن يُصاب بها ، والحمدُ لله الذى وَقَى المسلمين شرَّها .

ويقول كتاب بيتى وديكسون : إنَّ الإصابة بها تكادُ تكونُ عامَّةً فى

---

(1) هذه الدودةُ شريطيةُ الشكلِ ويتراوحُ طولُها بين مترين وأربعة أمتار ، ويبلغ عرضها نحو ثمانية ملليمترات ، وهى مقسَّمة إلى عُقَل عديدةٍ يتراوح عددُها من 800 – 900 عُقلة ، وهذه العُقَل تأخذ فى الكبر طولًا وعرضًا كُلّما بَعُدَت عن الرأس ، وكلُّ عُقلة تحتوى على كل من أعضاء التذكير والتأنيث مجتمعةً ويُلَقِّحُ بعضُها بعضًا عند تمام نضوج العُقلة ، وتنتج من هذا التلقيح ملايينُ البويضات ، ويبلُغ حجمُ العُقلة الناضجة من 10 – 12 X 5 ملليمترات ، وعند انفصال العقلة أو العُقَل الناضجة يحلُّ غيرُها محلَّها ، وفى أسفل الرأس معملٌ خطيرٌ يُنشئ أقسامًا جديدة بدل الأقسام المنفصلة .

ورأس الدودة يُشبه رأسَ الدبوس ولا يزيدُ قُطرُه عن ملليمتر واحد ، وهو مُسَلَّح بثمانية وعشرين من الخُطَّافات الشيتينية الصُّلبة المنحنية المدبَّبة مرتبةً فى طبقتين إحداهما فوقَ الأخرى ؛ وكذلك بأربعة مصاصات قُرصية الشَّكل . وكلُّ ذلك تستعمله الدودةُ للالتصاق بأمعاء المريض .

جهات خاصّة من فرنسا وألمانيا وإيطاليا ، ولكنّها نادرةُ الوجود فى البلاد الشرقية لتحريم دين أهلها أكلَ لحم الخنزير ، **ويقول اشتت** : بوجودها فى أمريكا بنسبة أقلَّ من وجودها فى أوربا .

وهذه الدودةُ ليس لها فَمٌ أو قناةٌ هاضمة ، بل تمتصُّ خُلاصةَ غذاءِ المريض بواسطة سطح جسمها كلّه ، وهو ما يتركُ المريضَ بها فى أشد حالات الضعف والهُزال ، وتُسبّبُ له مع ذلك الاضطرابات المِعِدِيَّةَ والمعوية الشديدة ، وسوءَ الهضم ، والآلامَ البطنية المبرِّحة ، والمغصَ والإسهالَ فى كثير من الحالات ، وتُسّببُ للكبار ضعفَ الأعصاب ومرضَ الوسواس ، وتُسبِّب للأطفال التشنّجاتِ العصبية وحَوَل العين ، إلى غير ذلك من الأعراض التى تجد تفاصيلها فى كُتب الطبّ .

ومِن مصائبها العُظمى كذلك أنَّها تعدى المريضَ بها بشكل آخرَ كذلك ؛ وذلك لأنّ بيضَها الذى لا يُرى إلَّا بالمجهر يخرج مع البراز أو يخرج منفصلًا فيحدث حكًّا يضطر معه المريض إلى حك فتحة الشرج ، فتتلوث يده بالبيض فإذا وصلَ البيض إلى فم المريض مع الأكل أو خلافِه ، ومنه إلى المعدة ، تُذيبُ العُصارةُ المعويةُ القشرةَ فتخرجُ الأجنّةُ بكثرة عظيمة جدًّا ، وتغزو كذلك الجلدَ والنسيجَ الذى تحته بل تنتشرُ فى جميع أجزاء الجسم وخاصة العينين والمخّ ، ولك أنْ تتصورَ الآلامَ العظيمةَ التى تَحدُث للمريض إذا استقرّت الأجنةُ فى العضلات وسائر أجزاء البدن ، والعمى إذا استقرت فى العين ، والآلامَ العصبيةَ أو الشلل أو الموتَ حينما تستقرّ فى المخّ . . . إلخ (*) .

2 - مرضُ التريخينا (تريكينا اسبيرالز) : والمرضُ الذى ينشأ عن أكل لحم الخنزير والمنبار المحتوى على التريخينا الملتوية هو مِن أشدّ الأمراض فتكًا بالإنسان ، ومما يجعلُ الوقايةَ منه تكاد تكونُ مستحيلةً أن الطبيبَ لا يُمكنه

(*) يؤكد Noble(1961م) أن دودة الخنزير هذه تحدث عددًا كبيرًا من الإصابات الدماغية سنويًا عند سكان المكسيك الذين اعتادوا تناول لحم الخنزير ، فى حين يؤكد لاباج وكلوكس ومانسون فى كتابهما عن طب البلاد الحارة أن هذه الدودة نادرة الوجود فى البلاد الإسلامية .
انظر : « موقع نقابة الأطباء المصرية على الإنترنت » .

أنْ يحكمَ بخلوِّ الخنزير من هذا المرض إلَّا إذا فحص جميع ألياف عضلات « لحم » الخنزير قطعةً قطعةً بواسطة المجهر ، وهذا طبعًا لا يمكن تيسره .

وكيفيةُ الإصابةِ بهذا المرض : أنّه بمجرَّد تناوُلِ الأجنّة الحيّة المغلّفة فى هذا اللحم ، تُذيب العُصارةُ المِعوية أغلفتَها ، فتنطلق الدِّيدانُ فى أمعاء الإنسان الدقيقة حيثُ يتمُّ تلقيحُ الذكرِ للأنثى (الذكر طوله 1,5 ملليمتر والأنثى طولُها من 3 – 4 ملليمترات) وبموت الذّكر تدخلُ الأنثى فى الغشاء المخاطىّ المبطّن للأمعاء حيثُ تلدُ كلُّ واحدة ما ينوف عن ألف من الأجنة (حوالى 1500 جنين) والملايين المولودة من الإناث جميعًا تجدُ طريقَها إلى الأوعية الليمفاوية حيثُ تتوزعُ مع الدَّورة الدمويّة إلى جميع أجزاء الجسم (وهذا يحدُث فى الغالبِ بينَ اليوم الثامن واليوم الخامس والعشرين بعد أَخْذِ العَدْوى) .

وقد عَدَّ الأستاذ « لوكارت » فى الجرام الواحد من اللحم ما يبلغ حوالى 15000 دودة .

وتتجمعُ الأجنّةُ فى العضلاتِ الإراديةِ حيثُ تسبّبُ آلامًا شديدةً والتهابًا عَضليًّا مؤلمًا يدعو إلى انتفاخ العضل وصلابته ، وتكونُ نتيجةَ ذلك الأورامُ التى تمتدّ بطول العضلات .

وتَنْتُجُ من الإصابة أعراضٌ تُشبه أعراضَ الحمّى التيفوديّة ، ولكنّها تختلف عنها بالميل إلى القىء والآلام البطْنية المبرّحة ، والإسهال والارتفاع فى درجة الحرارة ، والآلام الشديدة التى يُعانيها المريضُ بتحريكه العضلات المصابة كعضلات المضغ والكلام والتنفس وغيرها .

ويَصحَبُ إصابةَ عضلات التنفس ضيقٌ عظيم فى عملية التنفُّس ذاتِها ، وقد تحصلُ الوفاةُ من تعطيل تلك العضلات عن الحركة ، أو من التهاب الرئتين ، أو من المضاعفات الثانوية الأُخرى ، أو من شدَّة الضعف والهُزال ، وقد تصل الأجنّةُ إلى الجهاز العصبيّ وتتحوصلُ فيه ، فتُشاهِدُ على المريض أعراضًا عصبيةً مختلفة .

وقد تَعْجَبُ من سرعة انتشار هذا الداء فى المصاب ومقدارِ تغلغُله فى

جسمه ، إذا علمتَ أنّه فيما بُلِّغ من الحالات موتى أهلكهم هذا المرضُ ، فَوُجِدَ فى أجسامهم ما بينَ ثلاثين إلى مائة مليون من هذه الدِّيدانِ .

هذا المرضُ لم يتيسَّر للطبّ حتَّى اليوم أنْ يجدَ له علاجًا ، ولن يتيسرَ للطبّ أنْ يجدَ له علاجًا لأسباب فنية خاصة إلا بالامتناع عن أكل لحم هذا الحيوان . واستعمالُ الشُّرَب لطرد الديدان البالغة من الجهاز الهضميّ ليست له أيةُ فائدة إلَّا إذا أخذ الدواءَ عند مبدأ العَدْوى قبلَ مُضِيّ أكثر من يوم واحد ، وهو مستحيل ؛ وذلك لأنّ المرضَ يتعذّر تشخيصهُ قبلَ وصول الأجنّة إلى الدورة الدمويّة ، وهذا لا يحدُث إلَّا بعدَ الأسبوع الثانى من أَخْذِ العدوى ، ولا يوجد دواء يُمكن توصيلُه إلى العضلات بحيث يقتلُ الأجنة المتحصِّنة فيه ، وعلى ذلك فلا يُمكن أن يقىَ الإنسانُ نَفْسَهُ من العدوى ، إلَّا إذا امتنع عن أكل لحم الخنزير .

3 - **الجراثيمُ العفنةُ** : ولقد أثبت (كيث) فى الجريدة الطبيّة الأمريكيّة الصادرة فى 30 يناير سنة 1926م وجودَ كثير من جراثيم التعفُّن فى عضلات الخنزير السليم الحيّ ، وقد وجد أنّ هذه الجراثيم تكونُ موجودةً كذلك بعدَ ذبح هذا الحيوان .

4 - **الباراتيفود** : ويَنقل لحم الخنزير كذلك إلى مستهلكيه جراثيمَ الباراتيفود ، فيسبّب لهم تسمُّمًا حادًّا مصحوبًا بالتهابات شديدة فى الجهاز الهضميّ قد تُسبب الوفاةَ فى بضعة ساعات .

وقد يُصاب المعدى بهذه الجراثيم بحُمّى تُشبه فى أعراضها الحُمّى التيفودية بوصول الجراثيم الحية إليه .

وتؤثر هذه الجراثيمُ فى المصاب ولو قتلها بطهى اللحم الملوّث ؛ لأن الأمرَ ليس مقصورًا على الجراثيم فحسبُ ، بل إنّ ما تحويه هذه الجراثيمُ من السموم كافٍ لأنْ يُصيبه بالتسمم الذى قد يقضى عليه .

5 - **بالنتيديم القولون** : وتسبّب طفيليات خاصة تسمي بالنتيديم القولون Balantidium Coli أعراضًا دسنطرية فى الإنسان ، وهذه الحيواناتُ

الأوّلية طفيلية فى الخنزير ، وتصل بالعدوى إلى أمعاء الإنسان عن طريق بلعه هذه الطفيليات حين تخرجُ من الخنزير متحوصلة .

6 - **شحمُ الخنزير** : وبجانب ما تقدّم فإنّ شحمَ الخِنزير يُعَدُّ من الموادّ العَسِرة الهضم إلى حدٍّ بعيد .

هذا بعضُ ما كشفه الطبُّ من الأمراض الفتّاكة التى تُصيب آكلى لحم هذا الحيوان ، وذلك بجانب ما نعرفُ عن هذا الحيوان من أكله الرممَ والقاذورات حتّى إنّه يأكلُ فى مَرعاه ما يموتُ من الخنازير المريضة .

وحسبُك من قُبح الخِنزير ما يتّصف به من الرائحة المنتنة التى لا تُطاق [1] .

---

(1) ذكر المؤلف ستة أمراض بسببها أكل لحم الخنزير ، ونضيف عليها :

1 - **الالتهاب السحائى المخى وتسمم الدم** الناجم عن الإصابة بالمكورات السبحية الخنزيرية المكتشفة عام 1968م ، وقد فَسرت الحالات الغامضة من الوفيات التى حدثت فى هولندا والدانيمارك .

2 - **انفلونزا الخنازير** : ومن مضاعفات هذا المرض التهاب المخ وتضخم القلب ، وأصيب به أكثر من 20 مليونًا من البشر سنة 1918م .

3 - **الحمرة الخنازيرية** : وينتقل هذا الداء من الخنزير إلى اللحامين والدباغين ومن سواهم ، ويكون بشكل منطقة محمرة مؤلمة جدًّا .

4 - **جائحات الكريب** : يؤكد الدكتور هايترسن أن فيرس الكريب الذى ينقلُه الخنزير أكثر سمية . ويؤكد مركز الأبحاث الفيروسية فى لندن أنَّ فيرس الكريب يوجد فى رئة الخنزير التى يصنع منها السجق .

5 - **الزحار الأميى والزلل** : يعتبر الخنزير هو المصدر الوحيد للإصابة بمرض الزحار الزق والعائل الأكبر لنوع من الزحار الأميبى .

6 - **تقرحات الساقين** : يؤكد الدكتور (هانس . هـ . ريكفيغ) أن الدورة الدموية المحيطية قد تضطرب فى ظروف مناخية خاصة نتيجة تناول لحم الخنزير محدثة تقرحات مؤلمة على الساقين ، وأن هذه الآفة انتشرت بين الجنود الألمان أثناء الحملة التى قادها رومل فى شمال إفريقيا فى حين أن المسلمين لم يصابوا بهذا الداء . **انظر** : (موقع نقابة الأطباء المصرية على الإنترنت) .

* ورغم هذه الأضرار الصحية الجسيمة للأكل لحم الخنزير أضرار أخلاقية أهمّا هى :

لأكل لحم الخنزير تأثير على العفة والغيرة على العرض ، نظرًا لأن نوعية الطعام تؤثر على أخلاق الإنسان ، يقول النبى ﷺ : « الفخر والخيلاء فى أصحاب الإبل ، والسكينة والوقار فى أهل الغنم » (رواه أحمد) .

ويقول الفخر الرازى : « قال أهل العلم : الغذاء يصير جزءًا من جوهر المغتذى ، فلابد أن يحصل له أخلاق وصفات من جنس ما كان حاصلًا فى الغذاء ، والخنزير مطبوع على حرص عظيم ورغبة شديدة فى المشتهيات ، فحرّم أكله لئلا يُتكيَّف بتلك الكيفية » .

المبحثُ الرابع عشرْ

الإسراف فى الطعام والشراب

قال تعالى : ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف : 31]
وهذه الآيةُ الكريمةُ تُعَدّ معجزةً من معجزات الطبّ الخالدة ، فهى تأمرُ بعدم الإسراف فى الطعام والشراب لتُنْجينا وتحمينا مما يقعُ فيه المسرفون من أوجاعٍ وأمراضٍ ووَهَن وضَعْفٍ .

الإسرافُ بتناولِ كَميّةٍ كبيرةٍ مِن الطَّعامِ :

إنّ كثيرًا من النّاس يتوهَّمون أنْهم بتناوُلهم كَميةً كبيرةً من الطعام يَزدادون صحةً وقوة ، وخَفى عليهم أنّ كمية الطعام الزائدة تُسبب لهم عكسَ ما يرجون ؛ إذ تسيرُ بهم إلى الضَّعف والهُزال .

إنَّ الجسمَ لا يستفيد بكلّ ما يُلقَى فيه من طعام ، وإنَّما يأخذُ مجرَّدَ كفايته

= ويقول ابن خلدون : « أكلت الأعراب لحم الإبل فاكتسبوا الغلظة ، وأكل الأتراك لحم الفرس فاكتسبوا الشراسة ، وأكل الإفرنج لحم الخنزير فاكتسبوا الدياثة » (الدياثة : أى يُصاب الرجل بعدم الغيرة على أهله) (w.w.w.Khayma. Com/tagthialislam. htm:) .

7 - لحم الخنزير يساهم فى انتشار مرض سرطان القولون والمستقيم والبروتستاتا والثدى والدم .

8 - يحتوى لحم الخنزير على نسبة دهون عالية تصل إلى 50 % فى حين أن نسبة الدهون فى الضأن تمثل نحو 17 % ، وفى البقر حوالى 5 % ، وهذه الدهون تؤدى إلى تصلب الشرايين أو ضيقها ؛ ولذلك تنتشر الذبحة الصدرية فى أوربا بما يعادل (خمسة) أضعاف النسبة فى العالم الإسلامى .

للمزيد انظر : (w.w.w.Khayma. Com/tagthialislam. htm:) .

وقد قسّم البعض هذه الأمراض إلى عدة أنواع ، هى :

1 - الأمراض الطفيلية . 2 - الأمراض البَكترية .
3 - الأمراض الفيروسية . 4 - الأمراض الجرثومية .
5 - الأمراض الناشئة عن التركيب البيولوجى . (السابق نفسه) .

(w.w.w.Khayma. Com/tagthialislam. htm:) .

منه ، ثم يَبْذل بعد ذلك مجهودًا كبيرًا للتخلُّص مما زاد منه عن حاجته ، وبجانب هذا تُصاب المعدةُ وسائرُ الجهاز الهضميّ بإرهاق شديدٍ يُسلم المرءَ إلى أمراض معيّنة خاصة بذلك الجهاز .

الإسرافُ فى تناوُلِ مادَّةٍ مُعيّنة مِنْ موادّ الطَّعام :

وهنالك إسرافٌ من نَوع آخَرَ ، وهو تناول مادةٍ مُعيَّنة من موادّ الطعام بنسبة كبيرة تَطغى على النِّسب اللازمة من الموادّ الأُخرى كالإسراف فى تناول الزُّلاليات كاللحوم بحيثُ تَطْغى هذه الزُّلالياتُ على ما يحتاجه الجسمُ من نشويَّات (كالخبز والأرز) أو موادّ سُكرية أو دُهنيات (كالسمن والزيت) أو بالعكس .

فالطعامُ يجبُ أن يكونَ محتويًا على جميع العناصر اللازمة لعمليات البناء ، والهدْم فى الجسم بنسبها الصحيحة مع عدم إغفالِ الفيتامينات الموجودة فى الفاكهة والخَضْرَوَات ، وعدم إغفال ما يلزمُ الجسمَ من ملح الطعام وغيره من سائر الأملاح والماء .

فاللحومُ مثلًا والإكثارُ منها يُعرِّضُ الإنسانَ للإصابة بأمراض الكُلى وضغطِ الدّم وتصلُّب الشرايين ، والإسراف مثلًا فى تناول السّكر الأبيض النقىّ والحلويات المصنوعة منه يَضُرّ كذلك بالجسم ضَررًا بليغًا للميل العجيب الذى فى السُّكَّر إلى الاتحاد بالكلْسيوم ، فعندما يزيد السكرُ الذى فى الجسم عن حدٍّ مُعيَّن ، فإن المقدار الفائض يتحد ببعض الكلسيوم الموجود فى الأنسجة ، ويُضْطَرُّ الدّم أن يُعوِّض ما فقده منه ، فيأخذه من العظام والأسنان ، ويُؤدِّى هذا إلى نخر الأسنان وضعف العظام ، وهكذا الشأنُ فى الإسراف فى مادّةٍ مُعَيَّنة من موادّ الغذاء .

الإسرافُ بالإكثارِ مِن الأغذيةِ المركَّزةِ :

ومن الإسراف الإكثارُ من الأغذية المركَّزة ، فتناوُل الأغذيةِ البروتينية المركَّزة - مثلًا - مثلِ البيضِ واللحومِ والأسماكِ والجبنِ المركّز والطيور يضرُّ

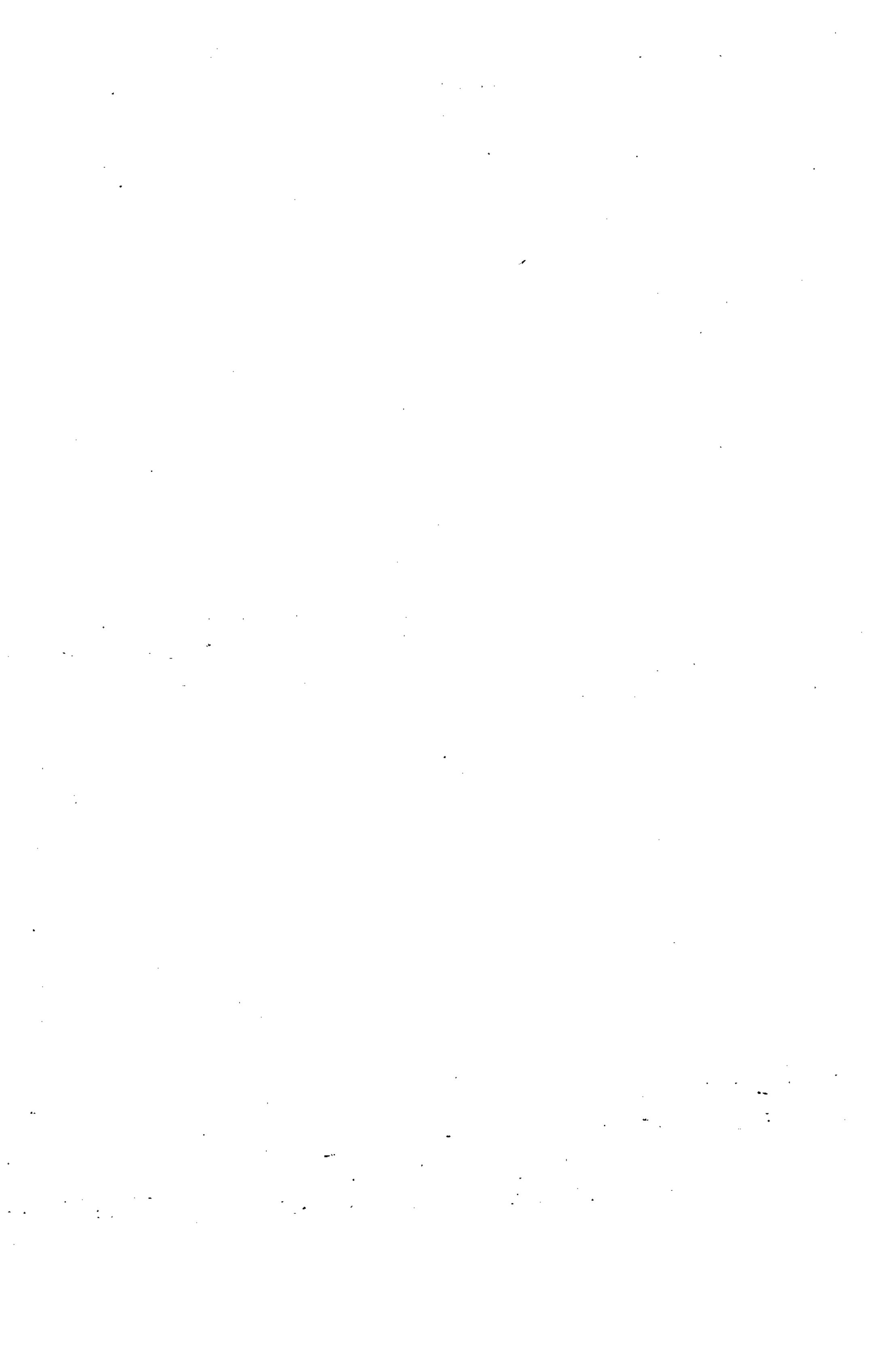
بالجسم ضَررًا بليغًا من ناحية معيّنة ، فإن الجسمَ فى حاجة إلى المأكولات التى تحتوى على مقدار كافٍ من الألياف والموادّ السليلوزية كالفاكهة والخَضْروات حتى لا تُحْدِث الإمساكَ الذى يسبِّبُ الحموضةَ فى الجسم ؛ فإنَّ بقاء الكُتلة البرازيَّةِ فى الأمعاء معناه امتصاصُ الجسمِ لبعض ما تحتوى عليه من الموادِّ السامة والنفايات الحامضية وهكذا .

فَرْضِيةُ الأكلِ والشُّربِ :

والآيةُ الكريمةُ مع نهيها عن الإسراف فى الأكل والشرب تأمرنا أنْ نأكلَ ونشربَ محافظةً على أبداننا وحيويّتنا ، ولتعويض أجسامنا وخلاياها عما تَفْقِدُه أثناءَ تأدية وظائفها الفسيولوجيّة الحيويّة .

قال الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة : 168] وقال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [المؤمنون : 51] .

★ ★ ★



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

★ ★ ★

رقم الإيداع بدار الكتب 17071 / 2005 م

الترقيم الدولى 5 - 256 - 297 - 977

فى هذا الكتاب

- الصحة فى الإسلام .
- تطوراتُ خلق الإنسان .
- عناصر جسم الإنسان .
- كيف خلق الإنسان من طين ؟
- طور النطفة .
- كيف تنشأ النطفة ؟
- تركيب الخصية .
- تركيب القنا المنوية .
- الرحـــم .
- طَوْرُ العلَقةِ .
- العلقة ومعناها .
- الإشارة إلى البويضة فى القرآن .
- تركيب البويضة .
- تلقيح البويضة .
- طَوْرُ المُضغة .
- طَوْرُ العِظام واللّحم .
- خلق الزوجين الذكرِ والأنثى .
- حرمة وطء الحائض فى الإسلام .
- دورة الحيض .
- آلام الحيض .
- أذى وطء المرأة أثناء الحيض .
- علة إهلاك قوم لوط .
- الخَمْرُ وأضرارُه .
- الغـول (الكحول) .
- الغول ونجاسة الخمر .
- تحكم الخمر فى شاربيها .
- تأثير الخمر على الأعصاب .
- استغناء الطب عنها كدواء .
- الجنون الكحولى .
- الخمر والأخلاق .
- الخمر وشذوذ العاطفة الجنسية .
- تأثير الخمر على الأعضاء التناسلية .
- تأثير الخمر على النسل .
- الخمر والطفل بعد الولادة .
- الخمر والعقـم .
- الكبد الكحولية (الكباد المزمن) .
- الخمر والكلى .
- الخمر والنسيج العصبى .
- إصابة الأوعية الدموية والقلب .
- خمـر الجنة .